



سينا للنشر

سيد قطب

من القرية إلى المشنقة
تحقيق وثائق



عادل حموده

بجيت

سید قطب

من القرية إلى المشقة
تحقيق وشائق



الناشر

مكتبة النشر

المدير المسئول

راوية عبد العظيم

١٨ شارع ضريح سعد - القصر العيني

ص. ب. ٢٦٧٤ - القاهرة - ج. ٢٠ ع.

تليفون : ٣٥٤٧١٧٨

سيد قطب

من القرية .. المشنقة

الخلاف للفنان : هبة الله عنایت

المراجعة : السيد عبد المعطی

الطبعة الأولى : أبريل ١٩٨٧

تم الصف التصويری بمؤسسة روز اليوسف

سید قطب
من القرية الى الشقة
تحقيق وشانق

بسم الله الرحمن الرحيم

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »

صدق الله العظيم

[الأيتان ١ - ٢ من سورة طه]

قبل أن تقرأ

من يعرف بداية سيد قطب ، كان من عاشر المستحيلات أن يعرف ، أو يتوقع ، أو يتخيل ، أو يتصور .. أو حتى يتنبأ بما ستكون عليه خاتمته !
بدأ معلماً وانتهى زعيماً ..
بدأ ناقداً للأدب ، وانتهى ناقماً على الثورة ..
بدأ شاعراً ، رقيق الحس ، مرهف الإنفعال ، ينظر إلى الحياة نظرة فنان ، وانتهى غاضباً ، ساخطاً ، متمرداً ، محرضاً على الكفاح المسلح ضد نظام حكم جمال عبد الناصر ..
بدأ ملحداً ، لا يثق في موهبة الدين على تغيير البشر ، وانتهى متطرفاً ، بعد أن جزم بتكفير المجتمع وجاهليته ..
بدأ متفتحاً على الدنيا ، متحمساً للمعارك الفكرية ، وانتهى معلقاً في إحدى مشانق « الستينيات » ، حاملاً - منذ ذلك الوقت وحتى الآن - لقب « شهيد » !
بداية لا علاقة لها بالنهاية ..
أو .. بداية لا يمكن أن يتصور أحد - ولا هو - أنها يمكن أن تؤدي إلى هذه النهاية !
فهل - ياترى - كان سيبدأ ، لو قدر له أن يعرف ما سينتهي إليه ؟ !

□□

إن مشوار حياته .. من القرية إلى المشنقة - يمتلئ بالانعطافات الحادة ، والانقلابات الحادة ، والتغيرات الحادة .. مشوار « حياة » كان يدفعه في كل تقاطع يقابله فيه للهدف من أعماق أعماقه : « هذا هو الطريق » .. ثم .. إذا به بعد مئات الأميال يكتشف أن الطريق « مسدود » .. وأن عليه التحول إلى طريق ثان .. وثالث .. وعاشر .. وعندما قدر له أن يموت شنقاً ، لم نعرف هل وجد طريقه أخيراً .. أم أنه كان سيواصل البحث عن طريق جديد إذا ما امتد به العمر ؟ !
أغلب الظن أنه كان سيغير الطريق .. طبيعته الإنسانية تؤكد ذلك .. وتحولاته المتعددة أيضاً .. ثم إنه كان ابن الظروف .. ولو تغيرت لتغير معها .. ثم .. إنه « كان رجاءاً للحق » .. لا يكابر .. ولا يعاند .. لكن .. من سوء الحظ .. أوهى مشيئة الله ، ألا تنتهي تلك الظروف قبل أن ينتهي هو .. ثم .. إنه دفع حياته ودمه وأنفاسه ثمناً لما انتهى إليه من أفكار .. وهذا ضاعف من قيمتها في موازين البشر .. خاصة عند الشبان الباحثين عن النموذج الجريء ، والبطل الذي

يواجه ، والإنسان الذى يصبح شهيداً .. إن المفكر إذا ما دفع حياته ثمناً لفكرة ، كتب له ، ولها « الخلود » مهما كان ، ومهما كانت .. هذه سنة البشر .. وطبيعة الحياة وحكمة التاريخ .. لكنها حكمة لا يفهمها إلا العقلاء !

□□

ولا بد أنه كان مثل سفينة بناها قانون خاص ، وسيرها قانون خاص ، وحطم ضلوعها قانون خاص .. لا بد أنه كان مثل سفينة تتحكم فيها رياح قدرية .. لا تعرف من أين تهب ؟ .. ولا متى تشتد ؟ .. ولا إلى أين سيكون المصير .. لذلك فهو يستحق التفرد والتأمل .. يستحق الانتباه والدراسة .. يستحق الاهتمام والمتابعة .. وخاصة أنه فرض نفسه وأفكاره وتحدياته على أجيال عرفت وأجيال لم تعرفه .. أجيال سمعت « منه » .. أجيال سمعت « عنه » .. وخاصة أنه فرض نفسه على ماض لم نحسمه ، وحاضر نتحسسه ، ومستقبل نخشاه ولا نعرفه .

لكن .. رغم شهرته ، وتكاثر أتباعه ، وذيوع أفكاره .. فإن غالبية الناس لا تعرف عنه وعن حياته وتحولاته وتغييراته الكثير .. وهم معذرون .. فما كتب عنه ، مقالات عابرة ، متناثرة لم تصل إلى حد الكتاب .. ونصف كتاباته - على الأقل - لم يعاد نشرها .. وهناك إصرار ما على ذلك .. ولا شك أنه أمر يوصل إلى حد الجنون أن تصدر الكتب عن نجوم الكرة ، والسينما ، والطرب ، ولا يصدر كتاب واحد عنه .. إنها كارثة .. لكنها كارثة لها ما يبررها وإن كان التبرير أقبح من الذنب .. فأتصاره يرون - عن عمد - أن في حياته ما لا يجوز أن ينشر .. ويقصدون أيام كان على خلاف مع الدين .. بعيداً عن حظيرة الإيمان .. مندفعاً كالفراشة ناحية الضوء المبهل للحضارة الغربية . أيام كان يكتب عن المرأة ، والعشق ، وموسيقى « الجاز » ويدعو أن تكون في مصر مستعمرات عراة .. وهم يتمنون أن يفقد من ذاكرة التاريخ ذلك الجزء من أيامه .. يذوب كقص الملح في نهر عظيم .. يتلاشى .. كأن لم يكن .. لتبدأ قصة حياته من لحظة الهداية ، والعقيدة ، وبداية الطريق إلى الاستشهاد .. وكأنه ليس إنساناً يتبدل ويتغير .. يخطئ ويصيب .. يضل ويهتدى .. وهذا نوع من الظلم له ، ولهم .. وإصرار لا معنى له على ألا نرى من اليوم حياته سوى آخر صورة .. ألا نعرف عن « حزمة » أفكاره سوى آخرها .. وكأن رجولته كانت بلا طفولة .. وكأن أفكاره كانت نبتاً شيطانياً .. نام الناس واستيقظوا ليجدوها في عقله ، وأمام عيونهم .

وهذا التصرف ليس شاذاً ولا غريباً عنا .. فهو عادة « مصرية » أصيلة .. جداً ولن نشترئها ، أو نستوردها .. فنحن نقدر زعماءنا ومفكرينا وأبطالنا إلى حد غير إنسانى .. فلا نتصور أنهم ضعفوا مرة .. أو بكوا مرة .. أو شعروا باليأس مرة .. ولا نتصور أنهم مثل باقى البشر ، يمكن أن يقعوا في الحب .. ويمكن أن تهزم امرأة .. ويمكن أن يفكروا في خطيئة .. ويمكن أن يرتكبوها .. بل .. ربما لا نتصور أنهم يمكن أن يدخلوا « الحمام » مثلنا .. إننا نراهم - دائماً - غيرنا .. فنعامل معهم « بالشوكة » و« السكينة » .. ونكتب سيرتهم ونحن نرتدى « القفاز » .. ولا ننطق أسماءهم إلا بعد أن نفصل أفواهنا « بمعجون الأسنان » .. ونرمى - من يشير إلى إنسانيتهم - بأبشع الاتهامات !!

وهى عادتنا ولن نشترئها أو نستوردها أيضاً ، أن تبرز عيوب من نختلف معهم ، ومع

أفكارهم ، ومعتقداتهم ، فنشطتهم من خانة الملائكة ، ونضعهم في خانة الشياطين .. ونشطتهم من ذاكرة التاريخ أيضاً .. ولا نعترف بحسنة واحدة من حسناتهم ، ولا فضيلة واحدة من فضائلهم .. لذلك فإن خصوم سيد قطب وقفوا بالمرصاد لكل كلمة تقال أو تنشر عنه .. وتمنوا - أيضاً - أن يكون كقص الملح في نهر عظيم .. يذوب .. يتلاشى .. كأن لم يكن .. وقد أزعجهم كثيراً .. ولا يزال . وتجاهله - ربما - يضعف تأثيره .. أو يلغى هذا التأثير .. وهؤلاء مثل النعامة التي تدفن رأسها في الرمال حتى تبعد عن نفسها خطر الصياد .. ومثل الذي يصد القطار المندفع نحوه بإغماض عينيه .. وكأن عدم رؤية الخطر يلغيه .. يوقفه .. يمنع !!

وكان .. أن راح أنصار سيد قطب وخصومه يسرون في نفس الطريق ، ليحققوا - دون اتفاق أو تدبير - نفس الهدف .. هدف الانعزاف ولا نعترف بحياته ولا تحولاته .. فقد راح أنصاره يمنعون نشر كتبه التي لا تعجبهم .. ومقالاته التي تجاوزها .. ومزقوا المجلات والصحف القديمة التي لم تعد تناسبه .. ولا هم أيضاً .. فلم تصل إلينا قصة حبه الفاشلة التي ابتعد بسببها عن المرأة وأضر عن الزواج .. ولم تصل إلينا إنطباعاته عن أمريكا بعد زيارة شهيرة لها .. ولم تصل إلينا معاركه الفكرية والأدبية ضد بعض الكتاب الإسلاميين .. باختصار .. لم تصل إلينا سنوات طويلة من حياته ، تصل إلى ١٥ سنة .. وربما أكثر .

أما خصومه فقد راحوا - قدر استطاعتهم في وقت من الأوقات - يمنعون نشر مؤلفاته التي توجعهم ، وتؤرقهم وتزعجهم .. وكانوا في وقت آخر .. وبقرار من السلطة العليا - يجمعون كل مؤلفاته ، ويتبارون في حرقها .. ونزعت - بمحاضر رسمية - صفحة من كتاب « القراءة والنصوص » ، طبع عليها نشيد وطني حماسي ، من تأليفه عن مصر .

وهكذا .. قطع الجميع - بالقهر أو بضيق الأفق - الطريق بيننا وبينه .. ثم .. بعد أن ارتكبوا جريمتهم بنجاح وإتقان ، تركوا الأجيال التي لم تعاصره ، ولم تفهم سر تحوله ، ولا الظروف التي أثمرت آخر أفكاره ، في تخبط .. وتوتر .. في غضب واستنفار .. ثم .. ما إن حمل بعضهم السلاح ، وراح يقتل ، ويفجر ، ويواجه المجتمع الجاهل الكافر الذي أشار إليه « الأستاذ » .. « الشهيد » ، حتى اتهموه بالجهل ، والتسرع ، والفهم الخاطئ ، والسير في عكس الاتجاه .. في المنوع !

مع أن أحداً من أنصار « الأستاذ » ولا حتى خصومه ، لم يقل لهم : من هو ؟ .. ولا ماذا يريد بالضبط ؟ .. فهم إما يمجّدونه إلى حد التقديس .. أو يهاجمونه إلى حد الإسفاف .. وكتاباتهم العابرة عنه إما تمجده .. أو تلغنه وليس من بينها ما يشرح - بإنسانية - طبيعته !

وكان .. أن أصبحنا أمام حالة فريدة من نوعها .. أن نعرف أفكاره ونناقشها .. نؤيدها أو نهاجمها .. دون أن نعرف - أو نحاول أن نعرف - صاحبها !

وذلك .. إما جنون عظمة .. أو جنون اضطهاد .. وفي الحالين .. كان سيد قطب ضحية ! .. ومفتري عليه !

□□

لا أنا مصاب بجنون العظمة .. ولا بجنون الاضطهاد .. لذلك أنا أكتب عنه .

لم أعاصر بدايته .. ولم أشهد تحولاته .. وعندما أعدم ، كنت طالباً صغيراً لم يتح له أن يعرف سوى أنه أراد أن يقتل ويحرق وينسف ويظلم البلاد ، ولهذا شنقوه .. وعندما رحت كصحفي أتابع قضايا العنف الديني الأخيرة وجدت أنها - بصورة أو أخرى - تنتمي إلى أفكاره وفلسفته ونظريته التي مات عليها .. أي أنها خرجت من تحت عباءته .. فكان أن رحت أقرأ تلك الأفكار .. وكان أن رحت أدرس الظروف العامة والخاصة التي خرجت فيها تلك الأفكار .. وكان أن رحت أدرس المفكرين الإسلاميين الذين أثروا فيه وتأثروا بهم .. وكان أن رحت أراجع خطوة وراء أخرى حتى وصلت إلى لحظة ميلاده .. ثم .. كان أن سرت عكس الطريق ، وبدأت أقطع الأميال والمسافات من قريته إلى المشنقة ، بعد أن حملت على ظهري شبكة كبيرة ثقيلة فيها ما جمعت من معلومات وكتابات ، ووثائق ، ومخطوطات ، وأحاديث قالها من عاصروه وعرفوه عن قرب ، وبعد أن أصبح في ذهني الكثير من التأملات والتفسيرات .. ثم .. كان أن رحت أفرغ ما حصلت عليه على الورق .. مرة .. ومرتين .. وثلاثاً .. وأخيراً كان هذا الكتاب .

كتاباتهِ القديمة جداً في مجلة « الرسالة » ، وه المقتطف ، وصحيفة « الإخوان المسلمون » .. كتبه التي نفذ بعضها ويتداول أغلبها .. الملف الكامل لقضية صيف ١٩٦٥ .. كتابات الإخوان المسلمين التي تردد أفكاره .. وتناقشها .. وتقندھا .. أحاديث بعض الذين عرفوه .. هذه هي أهم مصادري .. وهي كل ما أتبع لي من مصادر .. ثم يضاف إليها انطباعاتي .. وتأملاتي .. ورؤيتي الإنسانية الواقعية له ، وظروفه ، ولأحلامه ، ولتقديراته الخاصة والعامة .. فهل أنا أخطأت ؟ .. هل أنا تجرأت ؟ !

ربما ..

لكن .. من المؤكد أنني اجتهدت .

ومن حقى أن أنال ثواب الاجتهاد .. وهو عند الله .. خير حافظ .. وخير معين .. مع عظيم الشكر والتقدير لكل من أعطانى ورقة .. فكرة .. مقالاً قديماً .. كتاباً غير متداول .. وأوراق قضية أصبحت في ذمة التاريخ .. مع أن بعضهم كان متحمساً .. وكان البعض الآخر منذراً .
لله .. للتاريخ .. للبشر .. هذا هو سيد قطب الإنسان والأديب والناقد والمفكر والمتمرد ، كما عرفته ، وكما فهمته وكما تصورتہ .. هذا هو سيد قطب المفترى عليه .

عدل حمودة

القاهرة — ربيع ١٩٨٧

شخصيات في الكتاب

أحمد حسين (دكتور) :

ولد عام ١٩٠٢ .. تولى وزارة الشؤون الاجتماعية في الفترة من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٢ .. سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٥١ وعاد منها ليقيم استقالته من حكومة الوفد التي كانت في السلطة .. كون « جمعية الفلاح » بدعم معنوي هائل من أجهزة الإعلام الأمريكية .. عين سفيراً لمصر في واشنطن من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤ .. زوجته السيدة عزيزة حسين التي تخرجت مثله في الجامعة الأمريكية ، وهي رئيسة جمعية من جمعيات تنظيم الأسرة التي تتلقى دعماً مالياً كبيراً من المعونة الأمريكية .

جمال عبد الناصر :

ولد بمدينة الإسكندرية في ١٥ يناير ١٩١٨ .. اعتقل وهو طالب بالمدرسة الثانوية بسبب اشتراكه في مظاهرة ضد معاهدة ١٩٣٦ .. في ١٧ مارس ١٩٣٧ قبل بالمدرسة الحربية .. تخرج ضابطاً بعد حوالي العام .. خدم في منقباد والسودان وحارب في فلسطين سنة ١٩٤٨ .. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٤ وكان في مجموعة واحدة مع الضباط : عبد المنعم عبد الرؤوف ، وكمال الدين حسين وخالد محيي الدين .. أسس تنظيم « الضباط الأحرار » الذي غير حكم مصر في يوليو ١٩٥٢ .. يعد زعيماً بارزاً على مستوى حركات التحرر الوطني .. هزم في يونيو ١٩٦٧ .. وتوفي في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

حسن البنا :

ولد في قرية المحمودية - محافظة البحيرة في أكتوبر ١٩٠٦ .. بدأ تعليمه في كُتَّاب القرية .. شارك كطالب في مظاهرات ثورة ١٩١٩ .. تخرج في كلية دار العلوم في صيف ١٩٢١ .. أسس جماعة الإخوان المسلمين في مدينة الاسماعيلية سنة ١٩٢٨ .. اغتيل في فبراير ١٩٤٩ بتدبير من البوليس السياسى .

حسن الهضيبي :

ولد في قرية « عرب الصوالحة » إحدى قرى « شبين الكوم » .. حفظ القرآن في كُتَّاب القرية .. التحق بمدرسة الحقوق بعد إنهاء مرحلة التعليم الثانوى .. لم يشارك في فترة الدراسة في أية مظاهرات سياسية باستثناء جنازة مصطفى كامل .. تخرج في مدرسة الحقوق عام ١٩١٥ .. عاش فترة في سوهاج بعد تخرجه .. شارك في أحداث ثورة ١٩١٩ .. عين في سلك القضاء سنة ١٩٢٤ وقضى ٢٠ سنة متنقلاً بين محاكم مصر .. قابل البنا سنة ١٩٤٤ وأصبح في فترة وجيزة واحداً من مريديه .. في أكتوبر ١٩٥١ عين مرشداً عاماً للإخوان فاستقال من سلك القضاء .. دخل السجن أكثر من مرة في الخمسينيات والستينيات .. وبعد أن توفي خلفه في موقع المرشد عمر التلمسانى .

زينب الغزالي :

أسست جماعة السيدات المسلمات سنة ١٩٢٧ .. التقت بالشيخ حسن البنا بعد ٦ شهور من تأسيس الجماعة .. بعد دخول الإخوان السجون سنة ١٩٥٤ ، أقامت تنظيمًا نسائيًا لمساعدة أسرهم ، وقد أخذ هذا التنظيم دعماً من الداخل والخارج . شاركت بصورة فعالة في إحياء جماعة الإخوان منذ ١٩٥٧ حتى ١٩٦٥ .. اتهمت في أحداث ١٩٦٥ ، ودخلت السجن .. وفي سنة ١٩٧١ خرجت من السجن .

سعد زغلول :

ولد في سنة ١٨٦٠ .. درس في الأزهر على يد الإمام محمد عبده .. عين وزيراً للمعارف (١٩٠٦ - ١٩١٠) ثم وزيراً للحقانية (١٩١٠ - ١٩١٣) .. قاد ثورة ١٩١٩ وأسس حزب « الوفد » في نفس العام .. عين رئيساً للحكومة عام ١٩٢٣ ، عام الدستور الأول في مصر .. توفي سنة ١٩٢٧ ..

شمس بدران :

كان تلميذاً لسيد قطب .. عين مديراً لمكتب المشير عبد الحكيم عامر .. تولى وزارة الحربية من ١٩٦٦ إلى ١٩٦٧ .. أشرف على عملية كشف تنظيمات الإخوان سنة ١٩٦٥ ، واتهم بسببها - فيما بعد - بارتكاب جريمة التعذيب .. حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة بتهمة التآمر على الحكم بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ .. دخل السجن الحربى لسنوات .. يعيش الآن خارج البلاد .

عمر التلمسانى :

ولد فى حارة « حوش قدم » بحى « الغورية » - القاهرة فى ٤ نوفمبر ١٩٠٤ .. عائلته أصلاً من الجزائر من بلد اسمها تلمسان ، وهذا سر اللقب .. دخل مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٤ .. ارتبط فى تلك الفترة بحزب الوفد .. تخرج محامياً ليعمل فى مكاتب المحامين الخاصة سنة ١٩٣١ .. بعد حوالى العامين انضم إلى الإخوان المسلمين .. دخل السجن فى فترات المحن المختلفة للإخوان .. أفرج عنه آخر مرة سنة ١٩٧١ .. عين بعد رحيل الهضيبى مرشداً عاماً للجماعة .. وفى سنة ١٩٨٦ توفى .

عبد الفتاح عبده إسماعيل :

ولد بكفر البطيخ - محافظة دمياط سنة ١٩٢٤ .. درس بمعهد طنطا الدينى الثانوى ولم يكمل تعليمه .. انقطع عن الدراسة سنة ١٩٤٦ لأسباب عائلية .. ارتبط بجماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٧ بعد زيارة قام بها حسن البنا فى نفس العام لبلدته .. انضم للجماعة رسمياً سنة ١٩٥٢ .. اعتقل سنة ١٩٥٤ لمدة ٨ شهور ثم أفرج عنه .. تعرف على زينب الغزالى فى رحلة حج سنة ١٩٥٧ وهناك تعاهدا على إحياء جماعة الإخوان .. أعدم بعد محاكمات ١٩٦٥ .

عبد السلام عارف :

ولد فى سنة ١٩٢١ .. اشترك كضابط فى الفيلق العراقى الذى حارب فى فلسطين سنة ١٩٤٨ .. كان الساعد الأيمن لعبد الكريم قاسم فى إنقلاب سنة ١٩٥٨ الذى أطاح بالملكية .. كان نائباً لرئيس الوزراء حتى اختلف مع عبد الكريم قاسم وحكم عليه بالسجن بتهمة التآمر .. فى سنة ١٩٦٢ قام بانقلاب ناجح ضد عبد الكريم قاسم .. تولى رئاسة الجمهورية من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٦ . وفى العام الأخير مات فى حادث طائرة ..

عبد العزيز على :

ولد في القرن الماضي .. من أعضاء الحزب الوطنى المتطرفين الذين لعبوا دوراً في المقاومة بالعنف .. أحد أبطال ثورة ١٩١٩ .. قبل ثورة يوليو كان يكون تنظيماً وطنياً من المدنيين والعسكريين ، كان من بينهم رشاد مهنا .. وكان وقتها موظفاً بمحافضة القاهرة .. بعد الثورة أصبح وزيراً في أول حكومة شكلتها .. وخرج منها دون أن يحصل على معاش الوزير .. تعرفت عليه قيادات تنظيم الإخوان سنة ١٩٦٥ في بيت زينب الغزالى ، وعرضوا عليه قيادة التنظيم .. اعتقل في زنزانة انفرادية في السجن الحربى ثم أفرج عنه ..

عبد الحكيم عامر :

ولد سنة ١٩١٩ .. من أسرة صعيدية تعيش في المنيا .. اشترك في حرب فلسطين .. قدم محمد نجيب إلى عبد الناصر قبل الثورة .. كان عضواً في مجلس قيادة الثورة (١٩٥٢ - ١٩٥٦) .. رقى من رتبة رائد إلى رتبة لواء سنة ١٩٥٣ وأصبح بعدها القائد العام للجيش المصرى .. عين نائباً لجمال عبد الناصر سنة ١٩٦٤ .. قبض عليه بتهمة التآمر بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. وأعلن في شهر سبتمبر من نفس العام أنه انتحر .

على أحمد عبده عشاوى :

ولد بميت غمر سنة ١٩٣٧ .. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٢ وعمره ١٧ سنة تقريباً .. بدأ فكرة إحياء تنظيم الإخوان من جديد سنة ١٩٥٩ .. كان المسئول عن التدريب والنشاط العسكرى فى تنظيمات الإخوان سنة ١٩٦٥ .. وكان عمره وقتها ٢٨ سنة ، ويعمل كاتب حسابات بالشركة المصرية العامة للأساسات ، وكان يقيم فى حى روض الفرج بالقاهرة .

كمال الدين حسين :

ولد سنة ١٩٢١ .. تخرج فى الكلية الحربية لىخدم فى سلاح المدفعية (١٩٣٩ - ١٩٥٣) .. كان مندوب سلاح المدفعية فى مجلس قيادة الثورة (٥٢ - ١٩٥٦) .. عين وزيراً للشئون الاجتماعية (١٩٥٤) ثم وزيراً للتربية والتعليم (٥٤ - ١٩٥٨) ثم وزيراً للتعليم فى حكومة الوحدة مع سوريا (٥٨ - ١٩٥١) ، ثم وزيراً للإدارة المحلية والإسكان (٦١ - ١٩٦٤) ، واختير عضواً بمجلس الرئاسة (٦٢ - ١٩٦٤) .. طلب فى رسالة شهيرة لعبد الحكيم عامر بعد حادث الإخوان ١٩٦٥ ، أن يترك مصر ليعيش فى السعودية .. كان عضواً فى جماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة .. فى فترة حكم الرئيس أنور السادات دخل مجلس الشعب وأصبح نائباً فيه ، وبعد رسالة شهيرة للسادات خرج من المجلس .

معروف الحضرى :

من الضباط الأحرار الذين انضموا إلى الإخوان المسلمين .. حارب
في فلسطين .. اعتقل سنة ١٩٥٤ .. أفرج عنه سنة ١٩٥٦ .. كان
طرفاً في شركة تجارية مع عبد الفتاح إسماعيل ، ثم انفضت ..
عرضت عليه قيادة تنظيم الإخوان الجديد سنة ١٩٦٤ أن يتولى
قيادته .. رفض مؤكداً : « أنه غير مستعد لأن يبذل قطرة من دمه في
سبيل هذا الشعب » .

[١]

طفل القرية .. المحال !

□ قريته □ إهداء إلى طه حسين □ المجذوب العارى □
حلاق الصحة □ عسف الحكومة □ أسرته □ نظرة إلى أم
الدنيا، □ وحيد أبويه □ شائعة في مدرسة القرية □
الفرار من سيدنا، □ حفظ القرآن قبل المراهقة □
البسطاء لا يفهمون الزمخشري □ الحب الاول □ رأى في
المرأة الامريكية □ الكتب السرية □ سعد زغلول اسم
مقدس □ احلام الام □ الطريق إلى القاهرة □

لابد ان سيد قطب كان ابن ظروفه ومجتمعه ..

لابد أنه ابن القرية التي اختلطت فيها المعتقدات بالخرافات .. والتي فقدت فيها أسرته ما تملكه من ثروة ، فراهنت عليه ، ليعوضها بالتعليم ، والانتماء إلى « الأفنديات » ، عما ضاع منها بالإسراف .

ولابد أنه كان ابن عالمه الذاتى .. الخاص .. الشبعر الذى مس أوتار ذوقه .. الأدب الذى راح يفترق - باستمتاع من نبعه .. المرض الذى طارده منذ صغره ، وحرمه الكثير من متع الحياة .. الحب الذى صدمه .. والمرأة التى ردت مشاعره نحوها .. باقة من الأشواك .

ولابد أنه كان ابن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحضارية التى كانت حوله « الخلافة الإسلامية » ، العلمانية الغربية .. ثورة ١٩١٩ .. الليبرالية .. الديمقراطية .. الدستور .. البرلمان .. الاحتلال .. الفساد .. انهيار الوفد .. صعود الإخوان .. الفساد .. تغير العالم بعد الحرب الكونية الأخيرة .. انفتاح أمريكا على العالم .. التهاب التنظيمات الشيوعية .. حرب فلسطين .. ثورة يوليو .. أزمة مارس ١٩٥٤ .. ثم .. المحن المتلاحقة التى عاشها هو وغيره فى السجون والمعتقلات .. إنها ظروف متغيرة .. أدت به إلى أفكار متغيرة !!

ولابد أنه كان خير مثال للحكمة الشهيرة التى تقول .. إنه على قدر ما يعرف الإنسان من معلومات وبيانات ، على قدر ما يصل من أفكار .. وإن زيادة المعرفة قد تقلب هذه الأفكار ، وتغيرها .. تؤكد لها .. أو تنفيها .. أو تحولها فى حياته إلى تراث !!

فى قرية صعيدية ، صغيرة ، غير شهيرة ولد سيد قطب سنة ١٩٠٦ .. القرية تسمى « موشا » .. تقع فى زمام مديرية « محافظة » أسيوط « ٢٧٥ كيلو مترا جنوب القاهرة » .. وقد شاعت الأقدار أن يشهد مسقط رأسه - بعد ثلاثة أرباع قرن على ميلاده - تطبيقاً عملياً ، حياً لآخر الأفكار الدينية التى انتهى إليها ، ومات عليها « الجهاد لفرض حاكمية الله ونزع حاكمية البشر » .. شاعت الأقدار أن تكون أسيوط المسرح الدائم ، لعرض هذه الأفكار بالصوت والصورة .. بالخنجر والجنزير .. بالرصاص والقنبلة .. بالعنف والقسوة .

القرية كانت بيئته الأولى .. إليها تمتد جذوره .. عاش ، تعلم ، قرأ ، أحب ، وصدم فيها .. إنها البذرة الأولى التى غرست فى تربته البكر .. المشهد الأول الذى رآه .. الدرس الأول الذى

تعلمه .. ولا بد أن ذلك كله أثر وأثر .. هذا طبيعي جداً .. وطبيعي جداً أن نتخيل قريته ، أو نعرفها دون أن نراها .. فالريف المصرى ، خاصة فى الصعيد لم يتغير كثيراً منذ مئات السنين .. ولن يتغير كثيراً بعد مئات السنين .. هذا قدره ، المكتوب على جبينه .. لكن .. رغم تشابه الريف ، فى الصعيد ، فإن كل قرية فيه لها ملامحها المميزة التى لا يلحظها إلا أهلها .. وقد كانت تلك القرية - كما رآها سيد قطب - « ثرية » بالقياس لغيرها من القرى المجاورة .. لم تكن تعرف الإقطاع ، ولا الملكيات الكبيرة الفاحشة .. أكبر ملكية زراعية كانت ٢٠٠ فدان لذلك فالظلم كان أقل .. ومن النادر أن توجد عائلة لا تملك قطعة أرض .. كبيرة أو صغيرة .. ومن النادر أن توجد أسرة لا تملك بيتها .. ونصف هذه البيوت كان مبنيا بالطوب الأحمر .. وكلها تتألف من أكثر من طابق .. ولا بد أن ذلك دليل على أن مستوى المعيشة كان مرتفعاً .. هذا صحيح فأفقر بيت يذوق اللحم كل أسبوعين .. وأحياناً كل أسبوع .. والفاكهة تدخل البيوت جميعاً مع اختلاف المقادير . إنها ليست قرية معدمة كقرية طه حسين .. لكن .. هذا الثراء - الذى لا يزيد كثيراً على « الستر » - لم ينقذها من تلك الشخصيات المميزة فى كل القرى .. عريف الكتاب .. سيدنا .. حلاق الصحة .. والمجذوب الذى يعامل معاملة أولياء الله الصالحين ..^(١) كمال تمنعها من التعثر فى الخرافات ، والخوف من العفاريت .. وارتكاب الأخطاء والخطايا أيضاً .

مجدوب القرية أكثر الشخصيات غير المعتادة التى استفزت سيد قطب فى طفولته .. اسمه الشيخ « النقيب » .. كان - هو وأقرانه - يخافونه .. يمشون وراءه .. يعتقدون أنه يسمر العفاريت فى أماكنهم .. يسمعون من الكبار أنه يجتمع بياقى « الأولياء » فوق قمة جبل كبير ، بعيد ، ينظرون فى أحوال العالم .. وقد كانت هذه الأساطير تثير خياله أحياناً .. لكنها بالقطع كانت تثير استغرابه دائماً .. فهذا « الولي » الذى ينظر فى أحوال العالم ، يبدو أمامه مجرد رجل .. « مشعث الشعر ، ممزق الثياب ، عار أحياناً من كل ما يستر الجسد ، ينطلق فى شوارع القرية ، وطرقاتها ينال بها كل شيء ، وكل أحد ويرسل مهمة مختلطة ، مخيفة ، أويقهقه فى صوت عال مرهوب » .. ولا يملك من أمر نفسه شيئاً .. لكنه بحكم طفولته البيضاء ، وعمره الذى لم يكن قد تجاوز السادسة ، كان مضطراً أن يصدق الكبار الذين يثقون به .. ويعتمدون فى حياتهم على كثير من بركاته .. بل على كثير من ضربات عصاه التى يتوكأ عليها ، وله فيها مآرب أخرى .. إن تلك العصا لا تزيد على « قطعة من جريد النخل » .. لكن خرافات الجهل ، جعلتها « من شجرة من الجنة » ، وغمستها فى « بئر زمزم » سبع مرات .. وأكدت « أن من نالته منها ضربة فهو السعيد

(١) معظم ما أسجله عن حياة سيد قطب فى قريته مصدره كتاب « طفل القرية » الذى صاغه على طريقة « الأيام » وأهداه فى أول يوليو ١٩٤٥ إلى الدكتور طه حسين .. إلى صاحب كتاب الأيام .. إلى الدكتور طه حسين بك .. إنها ياسيدى كأيامك ، عاشها طفل فى القرية ، فى بعضها من أيامك تشابه ، وفى سائرهما عنها اختلاف ، اختلاف بمقدار ما يكون بين جيل وجيل ، وقرية وقرية ، وحياة وحياة ، بل بمقدار ما يكون بين طبيعة وطبيعة .. واتجاه واتجاه .. ولكنها - بعد ذلك كله - أيام من الأيام ، ورغم أننا سنعرف فيما بعد أن سيد قطب كان خصماً عنيداً للدكتور طه حسين ، فإن هذه الخصومة الأدبية لم تمنعه من الإعجاب بكتاب « الأيام » ، وتقليد أسلوبه الذى اعتبره « أسلوباً سهلاً هيناً ساذجاً - تلك السذاجة الحلوة التى تحتل التقليد .. ولا بد من الاعتراف بأن الفقرات الموضوعة بين علامات التنصيص مأخوذة من سيد قطب نفسه فى « طفل القرية » .

السعيد ، فإنها لا تتناول إلا عضوا « مضرراً » أى مريضاً - ولولم يشعر صاحبه بمرضه - فما إن تمسه هذه العصا حتى يبرأ من كل داء » .. إن مثل هذه الخرافات ، لم يستوعبها سيد قطب إلا فيما بعد .. وكان أن رفضها ، وسخر منها ، ومن أبطالها والمؤمنين بها .. وكان أن اعتبرها أكبر دليل على التخلف واستغلال الدين .. وكان أن دفعته في صدر شبابه إلى رفض هذا الدين ، واعتباره عائقا ، أمام المسلمين لنفض الجهل والتخلف .. وكان في حاجة إلى وقت طويل ليعرف الفرق بين الدين كمحرك « اجتماعي » والدين - على طريقة الدراويش - كمثبت اجتماعي .. أو كمسكن اجتماعي .. لقد استفزه - حتى وهو طفل - أن يقبل الناس - بدعوى الكرامات - ما يرفضونه بالدم والرصاص .. إن الرجل في مثل هذه القرية الصعيدية ، المتزمتة كان لا يتردد في قتل من يחדش حياء امراته .. أو يمسه بنظرة ، أو حركة .. والمرأة كانت تعتبر عرضها مثل النسيم ، يمكن أن تجرحه النسمة الطرية .. لكن .. رغم ذلك قبلوا الشيخ « النقيب » بينهم عاريا معظم الوقت .. « دون غضاضة من رجل أو حياء من امرأة لرؤية الجسد العاري » .. ولابد أن التفسير الذي توصل إليه سيد قطب عندما كبر قليلاً أفزعه .. وأثر فيه كثيراً .

إن الشيخ « النقيب » طارده سنوات ، وسنوات حتى بعد أن ترك القرية .. وكان لابد أن يروى قصته ويكتبها ليتخلص من هذه المطاردة .. لقد كان يشمئز من مجرد التخيل أنه يمكن أن يضافحه ، أو يقترب منه ، فإذا بالظروف تقترح ، وتكاد تفرض عليه أن يبيت - وهو طفل بالقرب منه .. « كان يلعب لعبة تقتضى لى الجسم ، وتحريك العنق إلى الخلف ، فأصبحت مفاصل عنقه بالانحراف ، ومالت رأسه إلى إحدى كتفيه ، فأصبح لا يستطيع أن يحرك رقبتة إلا في اتجاه واحد .. واقتربت امرأة على أمه أن تدعه ليلة للشيخ « النقيب » حتى يبرأ .. فمات في جلده .. ووقف شعر رأسه .. واقشعر بدنه .. وبدأ مستعداً أن يحدث كل شيء إلا هذا الدواء .. وكان أن طارده التخيل سنوات وسنوات .

أفزعه أيضاً أن يسلم الناس أولادهم وأنفسهم لحلاق القرية .. إن هذا الرجل الذي يثق الناس في حكمته ، ووصفاته وعلاجه ، مهما بلغ ضحاياه ، كان تعموجيا في المستشفى الأميرى بالبندر ، وفصل عن العمل .. فأثر أن ينتقم من الذين فصلوه ، ويتحول إلى مستشفى كامل ، يعالج أهل القرية .. إنه لا يختلف كثيراً عن ذلك الرجل الذي أفقد الدكتور طه حسين - بجهله - نعمة البصر ، فكان مثل الذي أراد أن يكحلها .. فأعمأها .

على أن أكثر ما لفت انتباهه أيام القرية .. عسف السلطة الحكومية وقهرها ، وبطشها ، وقسوتها ، وتعاملها مع الناس كما لو كانوا .. « مواشى » .. استغفر الله .. إن الصعيد منذ وصول اختراع البارود بر مصر والرجال فيه يحتفظون بالسلاح .. البندقية هناك مثل الزوجة .. علاقة لابد منها .. ومثل الشرف ، صفة لا يمكن العيش بدونها .. لكن .. الحكومة .. منذ وصول اختراع البارود بر مصر أيضاً ، ترفض أن يحتفظوا بالسلاح .. ويقوم .. بدون تفاهم - بحملات مفاجئة ، وشرسة لجمعه .. ولا يزال هذا يحدث حتى الآن .. وربما بنفس الأسلوب الذي أثار انتباه وبراءة وطفولة سيد قطب .. وربما أسوأ .. لقد جاء إلى القرية ٢٠٠ جندي ، يقودهم ضابط « تعهد للسلطات بجمع السلاح من قرى المديرية جميعاً » .. بالذوق .. بالقهر .. لكنه وجد أن القهر هو

الأفضل .. فقبض على الناس بالعشرات ، كلهم مكتوفو الأيدي بالحبال ، تتلقاهم الأيدي بالصفع ، والأرجل بالركل .. « دون أن يعلموا شيئاً عن حقيقة ما يراد بهم سوى أن الحكومة هنا .. والحكومة تصنع هذا وسواه » .. فكان أن أدرك الناس أن الحكم التركي - الذى انتهى - قد انتقلت أساليبه إلى المصريين .

قبض أيضاً على مشايخ القرية .. وه « لعلع » الرصاص فوق رؤوسهم .. وأمر كل منهم أن يملأ على « الشاويشية » أسماء مائتى رأس أسرة ممن يملكون سلاحاً في البلدة ، وأن يعين نوع قطع السلاح ومواصفاتها .. ثم .. راحت السياط « تطرقع » في الهواء لتتهوى بعد ذلك على أجسادهم وأجساد الفلاحين . فكان « أن بدأ الناس يعترفون بما ليس عندهم ، ويطلبون مهلة لإحضاره من مكانه البعيد .. وفي هذه المهلة ينطلق أبناؤهم وأقاربهم لشراء قطعة سلاح مطابقة للبيانات » ، لإنقاذهم من هذا الجحيم .

إن الجهل . الخرافة . التخلف . الشيخ « النقيب » حلاق القرية . إرهاب السلطة .. أشياء حفرت في داخل سيد قطب الكثير .. وفجرت فيه الكثير .. وغيرت فيه الكثير .. حتى أنه في سنوات متأخرة ، تالية لطفولته ، لم يكن يستطيع أن يسترجع تلك الصور القديمة .. « دون أن يحس في جسده بقشعريرة ، تتخلل عظامه في صمت ، كأنما استحال دمه إلى ماء مثلوج » !

□□

على حد قوله .. نشأ في أسرة « ليست عظيمة الثراء » .. ولكنها « ظاهرة الامتياز » .. ومن الممكن أن نقول إن والده الحاج « قطب إبراهيم » كان ممن يطلق عليهم « أعيان القرية » .. وقد اكتسب هذه الصفة الاجتماعية المتميزة بسبب سلوكه . وشخصه . واستنارته . والجريدة التي كان مشتركاً فيها ، وتصل إليه بانتظام ، ليتجمع الرجال والشباب في بيته يستمعون لما فيها من أخبار وتعليقات وقصائد شعر .. كما أنه كان ميسور الحال وإن لم يسلم من تناقص الثروة والأطيان بسبب تزايد الإنفاق .. إن عائلة الأب كانت في وقت من الأوقات « عظيمة الثروة » ولكنها « توزعت وتضاعلت بالميراث » .. كان نصيبه لا بأس به .. إلا أنه أخذ ينكمش ، ويتضاعل حتى كاد أن يتلاشى .. فالأب صار « عميد الأسرة » المكلف بحفظ اسمها ومركزها .. « عبء كبير ، أكبر من نصيبه المحدود في الميراث .. نفس الأعباء .. نفس تكاليف المظهر في الريف .. لكن بثروة أقل .. راحت بمرور الأيام تقل .

ثم .. إن الأب تزوج أكثر من امرأة .. أنجب من الأولى ابنه الأكبر « محمد قطب » .. وأنجب من الأخرى « سيد » وشقيقتيه « حميدة » وه « أمينة » .. وكانت إحداهما تكبره بثلاث سنوات ، والأخرى تصغره بثلاث سنوات أيضاً . ثم .. إن الأب كان يقدر قيمة التعليم . فقام ببخل في الإنفاق عليهم .. ثم إن بيته كان مفتوحاً لعدد كبير من الخدم ، والفقراء .. يملكون فيه مقابل الطعام ، والكسوة ، والوقود .. ويلقبون « صاحبه » « عمى الحاج » .. ثم إنه جرياً على عادة أثرياء الريف كان يفتح بيته في المواسم والأعياد الدينية وطوال شهر رمضان للفقراء .. يأكلون ويشربون ويسمعون القرآن .. إن ذلك كله كان أكبر من قدرة الأب المالية .. فكان لابد من الاقتراض .. ومع عسر السداد ، بدأت الأفدنة والمواشي التي تمتلكها الأسرة تتطاير .. وكان أن راحت الأم تبكى .. وتتهم

زوجها بالإسراف .. ولم تكن لتمتلك سوى تحذير ابنها من تلك العادة التي أفقدت الأسرة معظم ما تملك !

الأم كانت من أسرة مماثلة لأسرة الأب .. أو « أعرق » ، على حد تعبير سيد قطب .. وقع لها ما وقع لأسرة الأب « حرفاً بحرف » .. و .. « لكن زاد عليها أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا إلى الأزهر في القاهرة ، شأن غالبية الأسر الريفية الثرية فأنشأ في الأسرة نوعاً من الرقى العلمى بجانب الوجاهة الريفية » .. وقد كان هذا يكلف الكثير .. لكنه كان يأتى باحترام وتقدير لا حد له .
إن القاهرة في ذلك الوقت بالنسبة للريفيين ، ليست فقط « أم الدنيا » ، وإنما « نهاية الدنيا » أيضاً .. وكان الذهاب إليها ، ينظر له بعين الاعتبار كالذهاب إلى « الحجاز » .. وقد قضى جد سيد قطب لأمه ، هو وزوجه ، سنوات طويلة من حياته في القاهرة .. عاش أهلها .. تطبع بسلوكها .. وبعد أن عاد إلى القرية ، وجد على أول الطريق أن مكانته قد تضاعفت .. وكان عليه ، وقد جاء من مدينة المدائن .. ألا ينسى ما تعلمه منها وما عاشه فيها .. فشيّد بيتاً كبيرتها .. نظيفاً ، منسقاً ، مميزاً ، تدور الحياة المعيشية فيه على تقاليد ومستوى الناس في القاهرة .. « وساعده المال على تحقيق ما أراد » .

كان من الطبيعى - وسط هذا المناخ - أن يشعر سيد قطب « أنه في وسط آخر غير وسط القرية » .. ويسر له هذا الكثير .. وأعفاه من الكثير .. لكن .. لابد أن نكون قد أدركنا أن ميزات أسرة الأم الإضافية - التي جعلته يصفها بأنها أعرق - قد شدته أكثر إلى أمه .. ولا ننسى أنه كان « وحيداً » .. وأن هذه الصفة لها مغزاها في الأسر المصرية ، الريفية ، الصعيدية ، خاصة في تلك الأيام .. وقد ضاعف قربه من أمه وتأثيرها عليه أنها كانت تعدّه لأن يحقق حلمها الكبير ، ويعيد لأسرته ما ضاع منها من ثروة وتميز .. ولا شك أن هذا الحلم تحول إلى خطة في الذهن بعد أن عاد شقيقاها من الأزهر يحملان شهادة « العالمية » .. ولا شك أن هذه الخطة جعلتها تصر على أن يكمل تعليمه إلى أقصى مرحلة ممكنة .. ومهما كان الثمن .

لم يمنعها هذا الحلم من حلم آخر ، هو أن يحفظ ابنها القرآن .. فقبل أن يدرك الطفل ما حوله ، كانت تجلس وهو معها ، من وراء « الشيش » والقراء يتلون القرآن ، فإذا ما حاول أن يلهو - كالأطفال - ويعبث ، كانت تردّه « بإشارة حازمة ، وهمسة حاسمة ، فینصت معها إلى الترتيل لتشرب نفسه موسيقاه ، وإن لم يفهم - بعد - معناه .. كانت تتمنى أن يفتح الله عليه ، ويحفظ القرآن ، وأن يرزقه الصوت الرخيم فيرتله لها^(٢) .. ويعلو شأنه .. ثم .. تضاعف الحلم بعد افتتاح المدرسة الأولية في القرية .. فتحمست لأن يدخلها ابنها ، فيعرف علوم « الأفنديات » ، ويحفظ القرآن أيضاً !! .. أى أن الحلمين يمكن أن يتحققا معاً .. في مكان واحد .

حدث ذلك عندما ناهز السادسة من عمره .. وأصبح في السن المعتادة التي يبدأ فيها الصغار مشوار التعليم .. وعندما حانت لحظة القرار انقسم الرأى .. « فريق يؤيد ذهابه إلى " الكتاب " ليحفظ القرآن ، ويفوز بالبركة التي يفوز بها من يحملون كتاب الله على قلوبهم » .. وفريق آخر « يؤيد ذهابه إلى المدرسة الأولية لأنها أرقى وأنظف ، والقرآن يعلم فيها كذلك إلى جانب العلوم

(٢) انظر إهداء سيد قطب لأمه في كتاب « التصوير الفنى في القرآن » .

الأخرى ، .. وطال الجدل وهو لا يدري .. وعندما حسم الأمر ، كانت الغلبة من نصيب فريق المدرسة .. الفريق الذى تزعمته الأم .. استقر العزم على المدرسة .. وأبلغوه القرار .. فتلقاه بالقبول .. ولكن بغير حماسة ظاهرة .. فقد كان بالطبع يفضل اللعب فى الدار مع أخته التى تكبره .. والتى سترتبط به - فيما بعد - ارتباطاً قوياً .. وتلعب دوراً لا يستهان به فى توصيل أخباره وأفكاره وكتابات من داخل سجنه إلى من يتلففون عليها فى الخارج .. وكان بالطبع أيضاً يفضل اللهوم مع أقرانه ، واكتشاف سر « العفاريات » التى تمرح بحرية وثقة فى حوارى القرية . إن الطفل الذى يلعب فى الريف طفل مدلل . لأنه لا ينزل « الحقل » ، ولا يجمع « الدودة » .. وقد اعترف بنفسه أنه كان كذلك .. أو « كان مدللًا بعض الشيء » .. ليس السبب يسر أسرته المادى فقط . وإنما لأنه « وحيد أبويه بجانب بنتين هو أوسطهما » أيضاً .. لذلك فالتعليم بالنسبة له مشقة لم يتعودها .. مشقة لا مفر منها .. ولا سيما أنه كان يسمع من الكبار أن الكتاب « يقرض » الأولاد .. « أى يضعف صحتهم ، ويعوق نموهم » .. أما المدرسة « فقد كان يسمع عنها حديثاً آخر لا يجعله آمناً فيها على العموم » .

لم تسض أيام ، حتى هبى للمدرسة .. جىء له بالطربوش بعد أن كان يلبس « الطاقية » .. اشتترى له حذاء جديد بدلاً من حذائه الذى كان « نصف عمر » .. فصل له « قفطان » صغير بدل « الجلابية » .. زى غريب ، مبتكر يجمع بين ما يرتديه المشايخ والأفنديات ، ولا عهد للمدرسة به .. « جىء له به للترغيب والتدليل » .. « وكان لهذا كله أثر حاسم فى اتجاهه للمدرسة ، فبسيبها كان هذا « العز » .. و « التكريم » .

الكتاتيب فى ذلك الوقت ، كانت هى دور العلم الوحيدة فى الريف .. وعندما افتتحت المدرسة لم تؤثر عليها .. فحفظ القرآن كان قيمة .. وكان بداية الطريق للأزهر .. أعلى كيان علمى .. لذلك بقى الكتاب مع وجود المدرسة سنوات طويلة .. بل إن المثير للدهشة أن « سيدنا » ، عريف الكتاب ، انتقل للتدريس فى المدرسة دون أن يوقف نشاطه فى الكتاب ، عملاً بقاعدة « زيادة الخير » .. كما أن المدرسة لم يذهب إليها إلا من فشل فى حفظ القرآن فى الكتاب .. باستثناء سيد قطب الذى دخلها بقناعة أهله .. وقد شاء القدر أن يبدأ عهد التعليم العام ، المدرسى ، العصرى ، فى وقت مناسب جداً بالنسبة لعمر سيد قطب .. حتى أن القول بأنه من الجيل الأول لهذا النوع من التعليم فى الصعيد ، قول لا يجافى الحقيقة .. ولا يبتعد عنها .. ولا بد أن ذلك أثر فى تحويل مجرى حياته .. فلولم تكن المدرسة قد افتتحت فى القرية لكان فى أفضل الأحوال قد حفظ القرآن فى الكتاب ، ثم سافر مثل أخواله للقاهرة ليدرس فى الأزهر ، لينتهى به الأمر شيخاً ، معمماً ، لا يقرب العلوم العصرية - مثل الفلسفة والمنطق وعلوم النفس والجمال والاجتماع - إلا بقدر ما تقتضيه العلوم الدينية !

تقسيم فصول المدرسة كان مرتبطاً بسن الأولاد لا بمستوى الفهم والاستيعاب .. الأطول قامة هم المرشحون للسنة الرابعة . الأصغر والأقصر منهم فى السنة الثالثة .. وهكذا .. ولكن .. هذه القاعدة « لم تكن متبعة مع أبناء الأسر المعروفة ولا الأسر الثرية » ، فقد كان هؤلاء بحكم أسرهم يحتلون مقاعدهم فى الفرق العليا ، ولولم تؤهلهم لذلك أجسامهم .. كانت تلك الفرق من نصيب

سيد قطب بالطبع ، لكن ناظر المدرسة الذي أنس في والده « شيئاً من التنوير والمعرفة » ، تحدث إليه بصراحة .. وبين له أن مصلحة ابنه أن يبدأ من أول السلم .. من السنة التحضيرية .. وقد كان .

في السنة الثانية ، حدثت مفاجأة لم تكن متوقعة .. استغنت المدرسة عن خدمات عريف الكتاب .. لم يكن يحمل شهادة .. ولم يكن يعرف شيئاً من الحساب ولا المواد الأخرى .. واستبدلوه بمعلم متخرج في « كلية المعلمين » .. وكان هذا القرار كالقنبلة « الموقوتة » .. انطلقت الشائعات تهز القرية هذا عنيفا .. « الحكومة تحارب القرآن » .. « الحكومة تريد محو القرآن بعدم تحفيظه في مدارسها » .. وتحولت الشائعات إلى فزع لا يقل خطراً عن فزع الأوبئة .. فراح الناس يخرجون أبناءهم وراء « سيدهم الشيخ أحمد » .. فراراً بدينهم من مدرسة الكفر والضلال التي تسرق الحكومة دينهم فيها .. وهم لا يشعرون !

ولم يصل دوى القنبلة إلى الحاج « قطب إبراهيم » .. حماه تفتحه من الانسياق وراء الشائعات .. فلم يخرج ابنه من المدرسة ، لكنه - ودون أن يدري - قابل « سيدنا » مصادفة ، ودون أن ينتبه وعده بأن ينتقل « سيد » من المدرسة إلى الكتاب .. وثارت الأم .. وغضبت .. وبكت .. وتوسلت .. فيها هي أحلامها الكبرى تجهض وتتحطم قبل أن تبدأ .. إنها كانت - على حد اعتراف سيد قطب نفسه - « مصرة على بقائه في المدرسة لأنها مفتاح تلك الآمال الطوال العراض التي تعلقها على طفلها الصغير » .. لكن .. كل انفعالات الأم طاشت .. تلاشت ، أمام إصرار الأب .. لقد وعد .. « وما يجوز أن يرجع الرجال في وعودهم » .

نفذت مشيئة الأب .. وصباح اليوم التالي ، كان على « سيد » أن يأخذ طريقه إلى الكتاب .. إنه لا يذكر « أن قلبه الصغير قد عرف من قبل مثل هذا الهم الذي عرفه في ذلك اليوم ، ولا أن صدره قد ضاق وخرج واكتأب كالיום أيضاً » .. لقد اعتاد كل صباح - مع الندى والخضرة - أن يستقبل مبنى المدرسة النظيف .. الأنيق .. ذا الحجرات المطلية « بالجير » والفناء المفروش بالرمل .. واعتاد أن يجلس على مقاعد المدرسة وأمامه « قمطره » .. وفيه الكتب والأدوات والكراسات .. ولوحة الإرادواز الأنيق .. إن من المحزن والمؤسف ألا يذهب إلى المدرسة بكل ما فيها .. ومن المحزن والمؤسف أكثر أن يذهب إلى الكتاب .. حيث لا مقاعد « ولا حجرات ولا جرس ولا صفوف ولا كتب ولا أدوات ولا كراسات » .. وإنما هولوح من الصفيح ، يكتب فيه التلاميذ بحبر مصنوع من زهرة الغسيل أو « هباب » المصابيح ، أو من مواد تشبههما .. وهم يحملون الدواة والقلم في أيديهم أينما ذهبوا فإذا « سَمِع » لهم سيدنا « الألواح » ووجدتهم قد حفظوا ، أذن لهم أن يمسحوها وأن يكتبوا آيات أخرى من القرآن فيها .. كانت طريقة المسح قذرة أيضاً .. بل كانت أشد قذارة .. « إذ يبصق التلاميذ فيها ، ثم « يدعونها » بأيديهم ، ويمسحونها بطرف ثيابهم . لذلك تبدو ثيابهم دائماً ملوثة بالحبر » .

إن حب سيد قطب - الذي ظهر بوضوح فيما بعد - للحياة المريحة ، المرفهة ، قد بدأ معه منذ طفولته .. كما أنه - ومنذ الطفولة أيضاً - كان من الرجال الذين يراعون المظاهر ، ويحافظون عليها ، ويعمل لها ألف حساب .. ولعل هذا يفسر لنا سرفزعه من السجن في الخمسينيات والستينيات ، وانعكاس ذلك على الكثير من أفكاره .. وتصرفاته !!

لقد هاله .. في ذلك الصباح .. الذى عاد فيه إلى الكتاب - أن سيدنا حين يصحح الألواح للأولاد بالمداد الأحمر « ويلاحظ فيما كتبوا غلطا ، يبادر بلحس الكلمات المغلوطة بلسانه ، ومسحها بطرف كفه ، ليكتب بدلا منها الكلمة الصحيحة » .

إنه لخص مشاعره في كلمة واحدة موحية : الاشمتزاز !
بعد انتهاء اليوم ، صمم الا يعود إلى الكتاب .. إلى ذلك « المكان القذر » !
وصباح اليوم التالى أخذ طريقه إلى المدرسة !

بعد الظهر « عاد إلى الدار مع زميلين له ، وأقنعوا والده بأن ابنه خسارة في الكتاب ..
كان الزميلان من قرية أخرى مجاورة .. غرباء عنها .. ضيوفا عليها .. فاضطر الأب إلى قبول رجائهما .. واعتذر لسيدنا بهذا العذر حينما جاء يسأل عن « سيد » .. لم يعجبه ذلك العذر ..
« فأنصرف وهو يحوقل ويستعيز من رسل الكفر والضلال » .

إن حجة « الكتاب » الكبرى أنه يعنى بتحفيظ القرآن ، بينما المدرسة تهمله ، ولا تستطيع أن تخرج تلميذا واحدا يحفظه .. وهى حجة كانت قوية بالفعل في بيئة متدينة ، محافظة ، ترفع من يحفظ القرآن إلى مرتبة لا يطولها معظم الناس .. حجة لا يمكن النفاذ منها .. فماذا يفعل ، وهو يريد المدرسة ويرفض الكتاب ، ويخشى أن يتكرر ما حدث ؟ ! .. أرق نفسه وصحته - المراهقة أصلاً - وراح يسهر الليل إلى منتصفه ليحفظ القرآن .. بجانب الدروس الأخرى .. استكمل بنفسه ما ينقص المدرسة .. وما يكاد العام يكتمل حتى يكون « قد حفظ ثلث القرآن ، حفظاً جيداً ، يباهى به من يتحداه » .

في نهاية السنة الرابعة كان قد حفظ القرآن ، وانتهى من دراسته الأولية معا .. كان لا يزال طفلاً .. في نحو العاشرة تقريباً !

لأبد أن نلاحظ هنا أنه شرب من نبعين ، وتعلم في اتجاهين ، وتعرض - دون أن يدري - لما يسمى « الازدواج الثقافى والتعليمى » .. وكان ذلك في سن مبكرة .. على عتبة المراهقة .. وهذا التناقض يجعل من يتعرض له في تناقض حاد .. يفرض عليه التآرجح أحيانا .. والانتقال الحاد من الضد إلى الضد أحيانا أخرى .. وقد حدث له هذا بالفعل - فيما بعد - عندما انتقل من مرحلة « الشك » والتحليق في أفاق الحضارة « الغربية » إلى مرحلة « الكفر » بها والانقضاض عليها ، رافعا في مواجهتها نموذج الإسلامى المتطور .. أو عندما انتقل من مرحلة الإلحاد والإباحية والجدل المطلق إلى مرحلة « حاكمية الله » ورمى المجتمع بالكفر والجاهلية .. إن الانتقال بتطرف على هذا النحو استغرق ٤٠ سنة من حياته : أى حوالى ثلثى عمره .. وهى فترة غير هينة !

إنه كان في حاجة لكل هذه السنوات ليفض الاشتباك الثقافى الذى تعقد في داخله .. كان في حاجة لكل هذه السنوات ليكتشف أن التناقض الذى عاشه ، والتحولات التى تردد بينها ، كان سببها أنه عاش على مصدرين في التلقى .. لقد قال وهو يبرر آخر ما انتهى إليه من أفكار ونظريات :
« إن الذى يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة ، كان عمله الأول فيها القراءة ، والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية .. وما هو من تخصصه ، وما هو من هواياته .. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره ، فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ، ضئيلاً إلى جانب

ذلك الرصيد الضخم - وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك - وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره ، فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها ، وعلى ضآلتها ، وعلى قزامتها .. وعلى جعجعتها وانتفاشها ، وعلى غرورها وادعائها كذلك !!! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقى !^(٣)

جيل سيد قطب كان أول الأجيال المعاصرة التي عانت من تلك المشكلة .. مشكلة ازدواجية التعليم وانقسامه « المدرسة - الجامعة - معاهد وكليات الأزهر » وقد راحت هذه المشكلة تتفاقم وتتفاقم حتى امتدت من المفكرين إلى البشر العاديين .. ومن البشر العاديين إلى المجتمع كله .. فحدث الكثير من التناقض والكثير من الانقسام الثقافي ، والحضارى ، والاقتصادى .. فى الأفكار « العلمانية والشرعية » .. فى الزى « الملابس الأفرنجية والجلباب وملابس الشيوخ » .. فى أساليب فض النزاع « القوانين الوضعية وحدود وقوانين الشريعة الإسلامية » .. فى السلوكيات اليومية « الفرنجة والمحافظه » .. فى صورة الحكم « الديمقراطية الغربية والحكومة الإسلامية » .. فى الاستثمارات « الشركات المساهمة والفردية والشركات التى تحمل الصفة الإسلامية » .. فى كافة نواحي الحياة .. فكان من الطبيعى أن نعرف القلق والاضطراب . التكفير . العنف . الصراع الذى لا يتوقف بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين المجتمع !!

ما حدث لسيد قطب حدث لغيره .. وسيحدث .. فالكثير من المفكرين والأدباء والسياسيين انتقلوا ١٨٠ درجة دفعة واحدة .. كان منهم الملحد الذى أطلق لحيته .. والشيعى الذى تطرف فى إسلامه .. والفاشستى الذى قاتل فى جبهة ثم انتقل للقتال فى الجبهة الأخرى .

إنه ذلك الازدواج الذى حولنا إلى حبات « فشار » نتراقص فى كل الاتجاهات على صفيح تسخنه الظروف والأحداث .. ثم هو ذلك الانقسام الذى يجعل الشاب راديكالياً ، والرجل ليبرالياً ، فإذا ما وصل إلى مرحلة الشيخوخة تصوف أو ظل فى المسجد أطول وقت ممكن . مشكلة حسنها ، قارىء ومفكر ، ومطلع فى أربعين سنة ، فكم من العمر يحتاجه المجتمع الذى ترعى فيه الأمية ، والخرافة ، ليحسها ؟ !

□□

ثلاثة ممن تخرجوا مع سيد قطب فى مدرسة القرية ، قرروا الالتحاق بمدرسة « المعلمين » المتوسطة فى البندر .. « المدينة » .. كانوا أكبر منه بخمس سنوات .. دخلوا المدرسة بعد أن حفظوا القرآن فى الكتاب ، فتخرجوا فى سن لائقة للقبول فى مدرسة « المعلمين » .. اهتزت القرية لهذا الحدث إهتزازاً .. « إذ سيصير هؤلاء بعد سنوات أفنديات كأفنديات المدرسة الذين تخرجوا من تحت أيديهم » .. أما هو فلم يكن يملك إلا أن يحلم بتلك المدرسة التى يتخرج فيها الأفنديات .. كان « يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيرى نفسه فى مثل سنهم فتقبله مدرسة المعلمين ! » .. فقد حال صغر سنه دون قبوله فوراً .. وكان عليه أن يترك المدرسة ليخلى مكانه لقادم جديد .. أحس بالآلم .. فلا هو سيدخل مدرسة المعلمين ، ولا سيستمر فى مدرسة القرية .. فماذا

(٣) سيد قطب - « معالم فى الطريق » - طبعة دار الشروق ١٩٨٠ - ص ١٤٣ وص ١٤٤ .

يفعل ؟ .. بسبب علاقة والده بناظر المدرسة كان الحل الوحيد المناسب أن يعاد قيده في السنة الرابعة مرة أخرى على أنه طالب مستجد !

□□

تمر الأيام ..

ويحضر العلماء وطلاب الأزهر في العطلة إلى القرية .. إنهم منتفشون ، يحسون بالزهو والتميز .. وفي تواضع يكاد يتفجر غروراً ، يتطوع عالم منهم بإلقاء درس من دروس « التفسير » على الفلاحين في أحد مساجد القرية .. يجلس على مقعد .. يلتف حوله الفلاحون الأميون .. يسحب من صدره « ملزمة » من تفسير « الزمخشري » .. ثم .. « يروح يتلوه عليهم » .. وبين أن وآخر يصفق بيده ، ويقول :

— مفهوم ؟ !

فيجيب البعض :

— مفهوم .

ويمضي يصب عليهم « ما في الزمخشري من بلاغة ونحو وصرف وتأويلات لا يدرون منها شيئاً » !

ولأنه كان حريصاً على تقليد الكبار ويريد أن يستعجل الرجولة ، كان يحضر هذه الدروس .. وكان أن سأل الشيخ مرة عن حذف حرف « الباء » من إحدى الكلمات التي قراها في الزمخشري .. رفع الشيخ رأسه بلا اهتمام ، ثم مضى يقول وكأنه يستمر في التلاوة : « ياسيدى حذفت الباء اعتباطاً للتسهيل » .. وكان أن تصور الصغير أن « اعتباطاً للتسهيل » شيء من علم الأزهر لا يصل إليه مستواه في القرية .. ولم يعرف مدى جهل الشيخ إلا بعد أن كبر .

إن تلك المشاهد والمواقف لرجل الدين الذي لا يعرف كيف يمد جسر التفاهم بينه وبين الناس ، جعلته يؤمن — فيما بعد — أن رجل الدين ليس « ببغاء » يكرر ما يحفظه دون أن يعرف مستوى الناس من حوله .. كما أنه لا يجب أن يكون متعالياً ، منتفخاً على من حوله .. كذلك لا يجب أن يقول ما لا يعرفه .. لقد بقيت هذه المشاهد والمواقف محفورة في ذاكرته .. وأثرت فيه كثيراً .. جعلت أسلوبه سهلاً ، مفهوماً ، رغم جماله لا ينفصل عن لغة العصر .. وجعلته يضاعف من اعتقاده بعدم جدوى قراءة كتب الفقه والتراث لأنها شديدة التعقيد .. ولأنها تتحدث عن زمن غير الزمن .. لبشر غير البشر .. ولأنها تجعل رجال الدين يدورون حول العصر ومشاكله . ولا يخترقونه .. فكانوا مثل « سيزيف » الذي كتب عليه أن يرفع حجراً إلى قمة الجبل ، فإذا وصل القمة ، تدرج الحجر إلى السفح .. وعليه أن يرفع الحجر من جديد .. ليسقط الحجر من جديد .. وهكذا .. مجهود هائل .. لكنه ضائع !

لقد خشي سيد قطب أن يكون مثل أولئك المشايخ .. يدور حول نفسه ولا يصل إليها .. يدور حول الناس فلا ينفعهم .. يدور حول المجتمع فلا يقترب منه .. فكان أن رفضهم .. وهاجم أزهريتهم .. وانتقد أسلوبهم .. بل .. إنه حتى رحل عن العالم ، لم يكن يرى أن من الضروري أن يكون لهم زى مختلف .. وهو بهذه المناسبة قال :^(٤) .

(٤) سيد قطب — مقال بعنوان « شبهات حول الإسلام » .

« .. حتى تلك الأزياء الخاصة للمشايخ ، والدراويش .. إنها ليست شيئاً في الدين ، فليس هناك زى إسلامى وزى غير إسلامى ، والإسلام لم يعين للناس لباساً ، فالملبس مسألة إقليمية ، ومجرد عادة تاريخية . ومحمد بن عبد الله لم يلبس جبة وقطانا ، أو قفطاناً ود كاكولة ، وإنما لبس ثيابه العربية التى كان يلبسها قومه وجيله . كذلك لبس المسلمون في فارس ثيابهم الفارسية ، والمسلمون في مصر ثيابهم المصرية . »

.. وفيما بعد .. وهو ينتظر حكم الإعدام .. لم يكن قد خلع ثيابه الأفرنجية .. التى أصبحت بحكم العادة .. مصرية !

□□

قبل أن يغادر مدرسة القرية ، فتحت المدرسة أبوابها للبنات ليتعلمن مع الصبيان .. بعض الآباء قبلوا أن يرسلوا بناتهم إلى المدرسة .. لاسيما وهن بنات صغيرات لا يتجاوزن العاشرة .. كان عددهن في المدرسة سبع بنات .. ورغم أنهن لا يمتزجن بشيء عن بنات القرية .. فإن « وجودهن في المدرسة أشاع جوا غريباً » .. وعطرا خاصاً .. على حد قوله فيما بعد .. إن ذلك الجو « كان مزيجاً من الحساسية الحادة ، والرغبة للكبوتة في محادثة هذا الجنس الغريب في المدرسة . » لم تمنع التقاليد الصارمة ولا عقاب الناظر بعض التلاميذ - لاسيما الكبار منهم - أن يعاكسوا البنات « عند انصرافهن من المدرسة » .. بالكلمة العابرة .. بالكلمات النابية .. بالحركات .. بالأصوات .. كان خجولاً فلم يجرؤ على مجاراة أقرانه .. كان يمتلئ - مثل الآخرين - رغبة في أن تلتفت البنات إليه .. أن ينجذبن نحوه .. مساحة كبيرة بين الرغبة والخجل قطعها ببراعة وبذكاء يتناسبان مع طباعه وتكوينه النفسى .. راح يلعب دور « الفارس » .. « الشهم » الذى يتدخل في الوقت المناسب ليدافع عن كرامة البنات « إذا ما وجه لهن اعتداء » .. فكان أن كسب « الموقعة بلانضال » .. وإذا به يجد البنات السبعة يطرقن باب بيته ، ويسألن عن شقيقته الصغرى .. فأحس « بنشوة لم يشعر بمثله قط » .. بعد أن أدرك أنه المقصود بهذه الزيارة لا أخته الصغيرة !

من بين البنات السبعة اختار قلبه الصغير إحداهن .. كان يميل إلى فتاة وصفها بأنها .. « خميرية اللون . ذات طابع خاص . غير مكررة في الوجوه . لم تكن حسب مقاييس القرية جميلة . فليست بيضاء البشرة . وليس أنفها دقيقاً بالقدر المطلوب . وليس فمها كذلك » خاتم سليمان .. ولكنها هى وحدها « من بين بنات المدرسة ، بل من بين بنات القرية جميعاً التى كانت تبدو في نظره جميلة » .. كان سر جمالها عنده .. « أنها ذات طابع خاص » .. وإن لم يدرك في ذلك الحين معنى « الطابع الخاص » .

فيما بعد .. عندما ترك القرية إلى القاهرة .. لم ينس حبه الأول .. في فوران العاصمة كان وجه الفتاة يصل إليه عبر الخيال .. فينتفض قلبه .. إن مدينة المدن بكل ما فيها من جمال وأنوثة لم تنسه هذا الوجه ، ولم تفرض عليه نموذجاً للجمال غير هذا النموذج .. بعد ثلاث سنوات عاد - في زيارة - إلى القرية .. حياته وثقافته ونظرتة إلى الأمور تغيرت .. لكن حبه - على ما يبدو - لم يتغير .. بعد طول تردد سأل عن الفتاة .. جاءت الإجابة المتوقعة .. تزوجت وتعيش في جهة نائية

عن القرية .. وكان أن انسحب بمفرده واختل بنفسه ، ودون أن يدري رأى عينيه تتغرغران بالدموع !

إن علاقة المفكر والأديب بالمرأة علاقة حيوية .. تكشف لنا الكثير من أفكاره وتكويناته .. إنها تجعلنا نضع أيدينا بسهولة على شخصيته .. وغالباً ما تكون في حياته أكثر من امرأة .. وغالباً ما تولد وتنمو وتموت علاقته بالمرأة في داخله .. والهزيمة العاطفية قد تجعله متطرفاً في التعامل معها .. متعالياً عليها .. مندفعاً لتأكيد ذاته من الناحية الاجتماعية .. فيوصف أحياناً مثل العقاد وتوفيق الحكيم بأنه « عدو المرأة » ، فيسعدده الوصف ، وينفخ ذاته .. وأحياناً يستسلم ويوقع على عقد الزواج .. وأحياناً يفوته القطار فيسعد أكثر لأنه قاوم كثيراً .

ولانعرف الكثير عن حياة سيد قطب العاطفية .. فهل كان مثل صديقه العقاد عدواً للمرأة .. إن هناك من يؤكد أنه عاش سنوات طويلة عاشقاً مهزوماً بعد تجربة اهتز لها كيانه .. وأنه لم يتخلص من قسوة ما عاش إلا بعد أن حول التجربة إلى أدب ، وصاغ ما جرى في رواية لا يكاد يمسه الخيال من بعيد أو قريب أسماها « أشواك » صدرت عام ١٩٤٧ .. فهل كانت تلك التجربة السبب في إضرابه عن الزواج ؟ !

والذي يقرأ - بعد صفحات - ما كتبه عن رحلته إلى أمريكا ، سيجده يصف بإتقان المرأة هناك .. ويتحدث عن خبرتها في إبراز فتنتها .. يتحدث عن « العين الهاتفة » ، والشفة الظامئة .. يتحدث عن « الصدر الناهد » ، والردف المليء ، والفخذ اللقواء والساق الملساء .. يتحدث عن الفتنة الحية الصاعقة ، والضحكة المثيرة ، والحركة الجريئة .. فهل دفعه ما رآه للتطرف في الفضيلة ؟ !

ولابد أنه شيء يثير الدهشة والاستغراب أن يعترف بأنه إنسان له قلب ومشاعر مثل باقي البشر .. يحب ويهزم .. يتأمل ويتوب .. يفعل ويهتز ، ثم يسحب منه تلاميذه ومن ساروا على نهجه هذا الاعتراف .. ويأبون عليه أن يكون مثلنا .. أن يكون بشراً .. ويكتفون بما يفيد فقط صلابته ، وصرامته ، وتجهمه .. وكأن على المفكر المتطرف أن يولد بلا قلب .. والا يحس ، ولا يفعل ، ولا يضعف .. كأن تلك الانفعالات ضد الفكر .. ضد التطرف !

□□

بين الحين والآخر كان « عم صالح » يصل القرية .. وما يكاد يسمع بخبر وصوله ، حتى يقفز من مكانه ، تاركاً كل ما في يده ، ويعدو حتى يصل إليه في السوق .. « عم صالح » هو بائع الكتب المتجول الذي يحمل على كتفه « زكينة تمتلئ بالكتب المنوعة .. يصل عددها أحياناً إلى ثلاثين كتاباً .. قصص أبي زيد الهلالي .. الزير سالم .. الزناتى خليفة .. البردة .. سيرة سيدي إبراهيم الدسوقي .. « السيد البدوي مع بنت بري » .. « إعلام الناس فيما جرى للبرامكة من بنى عباس » ، « الأميرة ذات الهمة » .. « دلائل الخيرات » .. « دعاء نصف شعبان » .. « بدائع الزهور في وقائع الدهور » .. روايات بوليسية تحكى مغامرات شرلوك هولمز .. واللص الشريف أرسين لوبين .

في زكينة عم صالح أيضاً كانت قائمة أخرى من الكتب السرية التي كان يخفيها .. وما خفى كان

أغلى وأكثر إثارة .. « ألف ليلة وليلة .. كتاب « أبى معشر الفلكى فى التنجيم » .. كتاب « شمهورش » فى السحر .. كتاب « الفوائد الطبية » فى الطب .. والطائفة الأخيرة من الكتب لم يكن عم صالح ليكشف عنها إلا للخواص من رباؤه . وقرائه ، ولا يسلمها لهم إلا بعد أن يأخذ عليهم عهد الله ألا يستخدموها فى مضرة الناس .. ولأن كل ممنوع مرغوب .. كان لهذه الكتب « جو سحرى » غامض .. يتم فيه التبادل بنفس الخطورة التى يتم فيها توقيع المعاهدات .

لقد قرا كل ما كانت تحمله « زكية » عم صالح من كتب .. كان ينفق كل مصروفه عليها .. وكان يشتري بعضها ، حتى أصبح يقتنى مكتبة ضخمة ، تملأ « صفيحة » كاملة .. تضم خمسة وعشرين كتابا .. ولا بد أن ما قرأه ، وما اقتناه كان منوعا .. منتميا لأكثر من عصر ، وأكثر من حضارة .. ولا بد أن هذا التنوع زاد - دون أن يدري - من حجم بذور الانفصام الثقافى .. فانتقل « الشرح » من التعليم إلى الثقافة .. من المدرسة وكتاب تحفيظ القرآن إلى « زكية » عم صالح .

□□

بسبب القراءة ، واقتناء الكتب اشتهر سيد قطب فى أوساط المثقفين فى القرية .. ارتفع فى نظرهم .. طالت قامته فى عيونهم .. وتنبا الجميع له بمستقبل زاهر .. وقد كان !

فتحت الكتب نوافذ وعيه الأدبى .. وحسه الثقافى .. وفى دار والده بدأ فهمه السياسى والوطنى .. إن دار الحاج « قطب » ، كانت مقر اجتماعات لجنة الحزب الوطنى « أسسه المحامى الشاب ، الجرىء مصطفى كامل » فى القرية .. وقد كان الحزب « الوطنى » لا يطالب بجلاء « الانجليز فقط » ، وإنما بالعودة إلى الخلافة الإسلامية فى تركيا أيضاً .. لذلك .. كانت ملامحه الوطنية متداخلة - كفن المنعمات - مع ملامحه الدينية .. لذلك أيضاً .. لم يكن غريباً أن يسمع الفتى فى بعض هذه الاجتماعات اسم « أفندينا عباس » لأول مرة .. ولا أن يسمع أسماء أخرى - لم يعرف أصحابها إلا فيما بعد - مثل « الشيخ عبد العزيز البشرى » .. و« محمد فريد » .. و« أنور باشا رستم » !

شعور القرية - فى تلك الأيام - كان متجها إلى تركيا .. دولة الخلافة .. وكان ضد « الحلفاء » الذين يمثلون - فى رأى الفلاحين - « الكفرة » ، الذين « يصارعون دولة الإسلام » .. وكان هذا الشعور يترجم إلى اجتماعات سرية لم يكن مسموحاً له بحضورها .. رجال يتسللون ، وأبواب مغلقة ، وأصوات تجرى همساً .. شئ مثير غامض ، يلقي فى روعه إحساساً لا يدريه ، ولكنه « لذيذ » .. يفرض عليه ترقب شئ ما سيحدث مع الأيام !

شيئاً فشيئاً أخذ يشارك الكبار فيما يخوضون فيه .. إنه الآن قد وصل السنة الرابعة الأولية .. ثم .. إنه يقرأ الكثير من الكتب والأشعار .. ثم .. إنه كثيراً ما يتولى - بدلا عن والده - قراءة الجريدة للجمع الحاشد الذى يحضر لاستماعهم فى منزلهم ، فلماذا لا يشارك فيما يخوض فيه الكبار ؟ !

مرت الأيام ..

انفجرت ثورة ١٩١٩ ..

أغلقت المدرسة لأجل غير مسمى .. وخطب الناظر فى التلاميذ قائلاً : « إنه وزملاؤه ذاهبون للعمل فى الثورة ، فهذا واجب على كل إنسان ! »

لا مدرسة .. وإنما ثورة .. فماذا يعمل في هذه الثورة ؟ !
لم يجد امامه سوى كتابة الخطب الحماسية ، التي راح يلقيها في المساجد والحقول ، وضمنها
« أبياتا من الشعر كان يحسبها موزونة ، وهي متهاكة » !
« لقد نفخت الثورة المقدسة في الجميع ، فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة ولو كان طفلاً
صغيراً مثله لم يتعد العاشرة إلا بقليل » !

.. وفي تلك الايام ، كان الاسم المقدس الجديد هو اسم سعد زغلول !

□□

دائماً .. كان يرى امه تبكى ..
لكنه .. ما يكاد يسألها : « مالك يا أمي ؟ » ، حتى تتكلف البشاشة ، وتجيبه ، وهي تضمه إلى
صدرها في حنان :
— « لا شيء ! لا شيء ! متعبة قليلاً » .
هذه المرة كانت تبكى « بكاء صريحا » .. كان في العاشرة .. وعندما سألها ، لم تتكلف
البشاشة ، ولم تدار الالم ، وراحت دموعها « تنحدر من مآقيها انحدارا » .
طلب منها الا تبكى ..
قالت :

- « لن أبكى يا بنى مادمت تعيش » .. البركة فيك أنت وأبيك .. انتما عندي كفاية .. بالدنيا !
حاول أن يعرف منها ما جرى ..
قالت له :

- أقول لك يا « سيد » وتعدنى أن تكون رجلاً ؟ !
هزته كلمة « رجل » فقال :

- بكل تأكيد !

قالت :

- لقد باع ابوك اليوم قطعة أرض !

تساعل في براءة :

- « ولكن لماذا يبيع أبى هذا الطين ؟ » .

قالت :

- « لأنه كان عليه نقود للناس ، ولا بد أن يردها لهم !

لم يكن الجواب شافيا .. فلماذا يكون عليه نقود للناس ؟ .. وكيف يكون ذلك وهو يرى النقود
دائماً في كيسه الأبيض الطويل ، كثيرة . وهو يشتري كل شيء من هذه النقود » .. أسئلة بريئة ..
مخرجة .. أدركت الأم بعدها أنها أخطأت . وتعجلت ميعاد الاقضاء إلى الطفل الصغير بما هو أكبر
من قدرته على الاستيعاب .. فكان لابد أن تنهى المناقشة .. تصرفه عنها .. لكنه أصر على أن
يعرف .. تبسّطت معه في الشرح .. قالت :

- إن والدك ينفق كل عام أكثر من إيراده .. ولا بد أن يؤدي الفرق يبيع بعض الاطيان !

أفزعته الحقيقة .. أدرك الكارثة .. قال :

- « لا يأمى لن نبيع بيتنا ولا حقلنا ولا بهائمنا .. لن نبيع بقرتنا الكبيرة !! »

كأنما استروحت الأم ربح الأمل في كلمات طفلها الساذجة .. قالت :

- « ربنا يسمع منك يابنى ! »

ضمته إلى صدرها .. أضافت .

- « اسمع يا سيد » . انت عليك أن ترجع ما يفقده أبوك ! »

تعجب :

- كيف ؟

قالت :

- « حين تكبر ستذهب إلى مصر عند خالك ، فتتعلم هناك وتصبح « أفندى » ، ويكون لك مرتب ، وعندئذ تتذكر أن أطياننا في البلد تباع بسبب إسراف أبيك في النفقات ، فتحرص على النقود ، ولا تبذركا أخيك الأكبر أيضاً ، بل تنفق الضرورى فقط ، وعندئذ يكون في جيبك نقود كثيرة فنشتري بها هذه الأطيان التى نفقدها .. » .

اندفعت في أحلامها .. آمالها .. خيالها .. بينما كان هو يسبح بخياله في اتجاه آخر .. سافر بخياله إلى القاهرة .. إلى عالم « الأفنديات » الذى سينتمى إليه .. فلم يسمع منها باقى ما قالت . إن في القاهرة خاله المتخرج في الأزهر .. المعلم .. الصحفى .. الأفندى .. والذى سيقوم معه .. وسيرعاه .. والذى تقيم معه جدته التى « يحبها إلى درجة العبادة » ، ويراهما في فترات بعيدة » !!

□□

بعد سنوات ، وسنوات ، أمسك سيد قطب قلمه ليكمل بأسلوبه العذب ، الموحى ، السهل ، القصة .. قال :

« أن له أن يهجر القرية فما عاد له فيها بقاء ..

إن هناك مهمة تنتظره .. إنه مجند أعد للكفاح .. مجند لهذه المهمة التى أعدته لها أمه ، وأخفتها عنه منذ أول يوم ذهب فيه إلى المدرسة ، ثم كشفت له عنها يوم دخل عليها فراها تبكى .. إن عليه أن يسترجع للأسرة ما تفقده من مركز ومال ..

تلك كانت الكلمات التى سمعها من أمه وهى تعده للرحيل .. للسفر إلى القاهرة ، عند خاله ليتعلم .. فلقد بدأ يراها غادر المدرسة في القرية منذ عامين ، ولولا الثورة ، وانقطاع المواصلات ، واضطراب الأحوال ، لسافر منذ ذلك الحين ، ولكن هاهى ذى الحالة تهدأ ، وتساعده ، وهويشتد ، والمهمة التى جند من أجلها تستعجله .. فليسافر على بركة الله ..

« وسمع نساء القرية يقلن لأمه .. « مبروك يا اختى مبروك » .. إن هذا الصغير هو الذى سيرجع ما ضاع كله ، وسيكون شأنه شأن .. فلان ! »
كان « فلان » ابن رجل في القرية ، أنفق عليه والده بسخاء حتى حصل على شهادة

« العالمية » .. ثم « فتح الله عليه ، فطار صيته ، وحالفه الحظ ، واسترجع ثروة أبيه الضائعة ، وزاد عليها أضعافا » !

□□

حانت لحظة الرحيل ..

كان الترتيب أن يسافر إلى القاهرة مع ذلك الأفندى الذى يتعلم فى الحقوق ، وتربطهم به صلة المصاهرة العائلية ، ليسلمه إلى خاله .

الأم - التى ظلت تستعجل السفر - أحست الآن فقط أن « الفراق الحقيقى شىء غير الفراق فى الخيال » .. الأب ، ظل متماسكاً متجملاً « ما ظل صامتا ، فإذا تحدث اختنقت فى صوته الكلمات » .. أما هو فكان « مختلط الإحساس ، موزع النفس ، شارد الفكر ، لا يدرك أهو مستبشر بالسفر إلى القاهرة التى حلم بها سنوات أم هو أس على فراق عالمه الذى صاحبه سنوات » .

ودعه الأب .. ثم عاد إلى الدار ..

سألته الأم :

- سافر ؟

قال :

- سافر !

ثم .. انفجر يبكى كالأطفال .. وراحت الأم تواسيه .. ثم .. خلت إلى نفسها .. وانفجرت بالبكاء !

صغيرا . قلقا . مضطربا . مشدودا . حالما . سافر سيد قطب إلى القاهرة... أم الدنيا .. آخرها .. مصنع الأفنديات .. وعندما دخلها لم يكن يعلم أن كتيبة كاملة من الأقدار كانت فى انتظاره !

[٢]

وعلى الحنيا .. السلام !

□ الذين عرفوه □ القاهرة في الوقت المناسب □ في كلية
حسن البنا □ فترة الضياع □ أيام الإلحاد □ مع العقاد
ضد الرافعي □ طه حسين مدرسة بلا تلاميذ □ النقد يسبق
الإبداع □ انحياز لشعراء الغزل □ حماس لنجيب
محفوظ □ نداء المجهول □ إلى الحكيم من أمريكا □ كيمياء
بدون فلسفة وميكانيكا بدون أخلاق □ الرحيل الإجباري إلى
الدفء □ بيت حلوان والضباط الأحرار □

« كان لونه يتغير سريعاً عند الانفعال والمفاجآت التي تسره .. أو التي تزعجه ، !
هكذا ...

قال الذين عرفوا سيد قطب عن قرب ..
وهم كثيرون .. أكثر مما نعرف ، ومما نتصور ..

عدد هائل من نجوم الأدب والشعر والصحافة ، الذين نعرفهم ، عرفوه .. بعضهم رحل .. مثل
العقاد . طه حسين . أحمد حسن الزيات . محمد مندور . عزيز أباظة . أحمد شوقي .
الرافعي وبعضهم نحمد الله على أنه لا يزال بيننا .. توفيق الحكيم . يحيى حقي . حسين
فوزي . نجيب محفوظ . إحسان عبد القدوس . مصطفى أمين .. ولأنهم أثروا الصمت ، ولم
يكتبوا عنه ، ولم يتحدثوا عنه ، تخيلنا أنهم لم يعرفوه .. أو حتى سمعوا عنه .. ولأنهم تعاملوا معه
كما لو أنه لم يمر عليهم ، فنحن لا نعرف الكثير عن حياته .

عدد كبير أيضاً من زعماء الأحزاب القديمة عرفوه .. بعضهم على قيد الحياة ، وأغلبهم صعدت
روحه إلى السماء .. لكنهم من شدة الصمت الذي فرض عليهم ، حتى تعودوا عليه لم يفتحوا
ذاكرتهم ، ولا ذكرياتهم .. فلم يذكره من بعيد أو من قريب .. وكأنه ما كان هنا .

حتى رفاق المحنة من الإخوان المسلمين .. رفاق الزنزانة والرطوبة والأيام السوداء لا يتحدثون
عنه كثيراً ... وإذا ما فرض عليهم الحديث عنه ، تحدثوا فقط عن آخر أفكاره .. وكأنها كل
حياته .. أو كأن هذه الأفكار نمت فجأة .. وقفزت فجأة .. كأنها بلا مقدمات .. بلا بيئة وظروف
أفرزتها .. وهم يحترمونه جداً ، ولكن .. مع جزيل الشكر وعظيم الاحترام ينسفون أفكاره ..
لا الأدباء الذين عرفوه حدثونا عن أدبه .. ولا الزعماء الذين اقتربوا منه حدثونا عن موقعه
بينهم .. ولا رفاق المحنة قالوا : لماذا فعل ما فعل ؟ !

والذين قبلوا الحديث عنه اختلفوا حوله .. بعضهم أكد أنه بقدر ما يختلف معه « يحترمه » ..
والبعض الآخر قال : إنه بقدر ما يختلف معه « يحبه » .. أي إنهم جميعاً يختلفون معه ،
ويختلفون عليه .. إلا أنهم أجمعوا أن ما يقولونه لا يجوز أن ينسب لهم بالاسم .. ظروفهم

لا تسمح .. ومواقفهم القديمة أيضاً .. فكان علينا أن نأخذ ما اتفقوا عليه ، وأن نترك ما يشتم منه رائحة خاصة ..

□ □

ليس بجديد أن يقول الذين عرفوه إنه كان فصيح اللسان .. جرىء التعبير .. لا يعمل الجدل .. يمارس فراسته ببراعة .. ويملك حاسة سادسة توجه تصرفاته .. فهذا بديهى .. وهذه صفات معظم الذين القوا بأنفسهم في أتون الثقافة والسياسة .. لكن .. الجديد .. أن يقولوا أنه كان « نادراً ما يخطئ » ، لكن إذا أخطأ يكون خطأ كبيراً » .. أى كان الخطأ عظيماً بحجم موهبته ، وثقافته ، وطموحه ، وتأثيره .

وليس بجديد أن يقول الذين عرفوه أنه كان لا يقبل أى عمل لا يناسبه .. وأنه كان يتقلب مثل الهواء .. نارة يمرح وتارة يكتئب .. تارة يثق في الآخرين وتارة ينفر منهم .. فهذا من طبائع الأدباء والشعراء .. لكن .. الجديد .. أن يقولوا إنه كان « لا ينسى من أساء إليه » .. وه لا يهدأ إلا إذا قال كل ما في قلبه ضد من أساء إليه » .. أى إن إحساسه بذاته يدفعه إلى الثأر .

وايس بجديد أن يقول الذين عرفوه أنه كان من الباحثين عن الحقيقة ، وعن المتاعب مهما كان الثمن .. لا يتلمس مدى صلابة الأرض تحت قدميه ، ولا يحدد كيف ينجو بنفسه قبل أن ينزل المعركة .. فهذا طبيعى جداً .. ومن أبرز خصال النقاد والمفكرين .. لكن .. الجديد .. أن يقولوا إنه كان « لا يقبل النصيحة » حتى من أقرب الناس إليه ، أى إنه كان عنيداً لا يلين إلا من تلقاء نفسه ..

ومن حقنا أن نقبل هذه الصورة .. أو نرفضها !! فهي ملتقطة بعدسة إنسانية لا تعرف الحياد ، وتتأثر بمليون اعتبار !!

لكن . مما لا شك فيه أنه كان جريئاً .. حاد الالفاظ أحياناً .. عباراته عيدان نار .. قلمه سوط .. لا يعتقد من يراه أنه هو نفسه الذي يكتب .. فهو مع الناس أرق من النسمة .. مع الورقة والقلم جحيم لا يبرد .. في الخمسينيات ، كان يلقي محاضرة في قاعة « على مبارك » .. كلية الآداب — جامعة القاهرة .. ولأن الجامعة صورة من صور الحضارة الغربية ، ولأنه — في ذلك الوقت — كان قد كفر بهذه الحضارة .. فإنه لم يتردد في أن يصف « الأساتذة » الذين جلسوا في الصفوف الأولى يستمعون له ، بأنهم « جهل يحمل الدكتوراة » .. ومما لا شك فيه أنه كان أحياناً ، يلخص أصعب الأشياء ، وأكبر الأشياء في كلمة ، أو كلمتين .. فيها براعة ، وابتكار ، واقتدار ، ومن حقه أن تسجل باسمه .. ففي رسائله من كاليفورنيا إلى توفيق الحكيم ، وعباس خضر — سنة ١٩٤٩ — يصف أمريكا بأنها « ورشة العالم » ... أى إنها ماكينات ومخارط وتروس تديرها تروس .. لا بشر .

ومما لا شك فيه أنه كان يبدو شديد التطرف دائماً .. في كل مرحلة من حياته . فقد كان يقفز من الضد إلى الضد دون أن يعبر على جسر الوسط .. أى إنه كان يبدو مثل ظاهرة « التسماسى » في الكيمياء .. ينتقل من الحالة الصلبة إلى الحالة الغازية دون أن يمر بالمرحلة السائلة .. لكن .. هذا

غير صحيح .. فكل تحولاته تمت بهدوء وإن بدت في نهاية الامر أنها تمت بحدة ، فقبل أن تنتهى أى مرحلة ، كانت تتكون بذرة المرحلة التى تليها .. وهكذا .. كما ان كثيراً من التفاعلات كانت تفاعلات داخلية .. فى أعماقه .. فى ذهنه ..

على أنه فى نهاية الامر .. بدا لنا أن تحولاته عنيفة .. متطرفة .. من الانتماء الشديد للحضارة الغربية للهجوم الشديد عليها .. من التطرف فى الإلحاد إلى التطرف فى وصف غيره بالإلحاد .. من الفرق فى بحار العلوم الإنسانية إلى المبالغة فى تكفير من يقربها !!
هكذا .. بدت المحصلة النهائية له ولأفكاره وقفزاته .

وهو يعترف بذلك .. لكنه لا يفسره .. أولم يجد الوقت ليفسره .. مع أن التفسير بين السطور ، أوبين المراحل .. والوصول إليه يحتاج أن نبدأ من وصوله القاهرة .. مودعاً أيام وعالم وأصحاب القرية !

□□

وصل سيد قطب القاهرة فى فترة ثرية .. مناسبة ، كالعادة ...

فها هى ثورة ١٩١٩ - التى تحمس لها - تثمر فاكهة كانت محرمة على المصريين .. الليبرالية .. العلمانية .. الدستور .. الأحزاب .. البرلمان .. الانفتاح الثقافى والحضارى على الغرب .. ازدهار الدراسات الإنسانية .. ترجمات الأدب العالمى .. الإيمان بحريات التعبير والرأى والمعارضة ... إن تلك البذور التى كانت تزرع - لأول مرة وبعد طول كفاح - فى التربة المصرية - التى تخلصت بالكاد من الضغوط التركية - كانت فى حاجة إلى أجيال جديدة .. شابة .. أجيال بيضاء .. متحمسة .. قادرة على رعايتها حتى تثمر .. وتنضج وتصبح فى متناول الجميع .. وكان أن بدت كل هذه الظروف الانقلابية كما لو كانت مهياة خصيصاً لهذا الفتى الذى ينزل العاصمة حاملاً أمل أسرته فى إنقاذها .. وإعادة تراثها إلى القمة من جديد ..

إن سيد قطب كان دائماً على موعد مع القدر .. فالمدرسة تصل القرية فى سن مناسبة .. ووالده يملك أن يشتري له الكتب التى يحملها « عم صالح » .. وأمه تعرف قيمة التعليم فى القاهرة .. وخاله يمكن أن يوفر له الإقامة والرعاية فى القاهرة .. كما أنه كان بحكم اشتغاله بالصحافة وحماسه للوفد كان يمكنه بسهولة الوصول لمراكز الثقل فى المجتمع .. وجدته التى يحبها تعيش معه .. ظروف مناسبة جداً ليسترد بالتعليم الأطلان التى فقدتها الأسرة .. وليعيد فى القاهرة ما ضاع من الأسرة فى الريف .

وها هى القاهرة تعلن أنها فى خدمة « البرجوازية » التى كان سيد قطب واحداً من أبنائها .. ها هى القاهرة تعلن أنها فى حاجة للموهوبين ، الذين يصعدون على « سلم » التعليم إلى مناصب شاغرة ، فى حاجة لمن يشغلها فى الأدب والصحافة .. وباقى فنون الإبداع ..

فى سنة ١٩٢٥ ، دخل سيد قطب كلية « المعلمين » ... كانت فى مستوى المعاهد المتوسطة ... وبعد أن تخرج فيها أمضى عامى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ فى الفصول التمهيدية لكلية « دار العلوم » .. وبعد ٤ سنوات تخرج فيها « ١٩٢٣ » ، وكان عمره ٢٧ سنة .. وكلية « دار العلوم » ، أنشئت سنة

١٨٧٢ لإعداد المعلمين بطريقة حديثة ، لتلافي النقص في التعليم الأزهرى .. وقد تخرج فيها « حسن البنا » ، الذى سار « سيد قطب » في طريقه الوظيفى .. فعمل مثله سنوات طويلة في وزارة « المعارف » العمومية ، التى أصبحت - فيما بعد - وزارة « التربية والتعليم » .. إن سيد قطب استمر في سلك التعليم ١٨ سنة متصلة ، جاب خلالها بعض المديرىات - مثل حسن البنا ايضاً - وقبل أن يقدم استقالته في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٢ ، كان يشغل منصب المراقب المساعد للبحوث الفنية والمشروعات بالوزارة .. ومثل حسن البنا كذلك ، مارس سيد قطب حياته العامة - الفكرية والسياسية - دون أن يترك وظيفته الأساسية التى كان راتبها يسد حاجته ، وحاجات الأسرة .

في نفس عام التخرج ، كون « سيد قطب » مع رفاق الدفعة جماعة « دار العلوم » .. ولعبت تلك الجماعة دوراً بالغ الأثر في الدفاع عن اللغة العربية ، والدين الإسلامى .. وعلى امتداد ١٤ سنة (١٩٣٣ - ١٩٤٧) أصدرت مجلة فصلية ، قدمت - على صفحاتها - عدداً كبيراً من الأدباء والنقاد ... كان على رأسهم « سيد قطب » .

إن « سيد قطب » لم ينشر مقالاته ، ودراساته في تلك المجلة ككاتب مبتدىء .. فقبل أن تصدر بسنوات طويلة ، وقبل أن يتخرج في دار العلوم ، كان قد نزل بقلمه فعلاً إلى ميدان الكتابة .. ويحلو للبعض أن يصف تلك الفترة من حياة « سيد قطب » - (١٩٢٥ - ١٩٢٩) - بفترة « الضياع » .. وهى الفترة ما بين دخوله كلية المعلمين ، وبداية كتاباته في الصحف وبين الانتهاء من بحث « التصوير الفنى في القرآن » الذى حوله - فيما بعد - إلى كتاب يحمل نفس العنوان ... ولا بد أن « سيد قطب » كان أكثر جرأة من هؤلاء ، إذ أنه وصف تلك المرحلة ، بصراحة شديدة بأنها كانت « فترة إلحاد » .. وقد سمع منه الكاتب « سليمان فياض » بأذنه وهو يروى سيرة حياته : « أنه ظل ملحداً أحد عشر عاماً » ^(١) حتى « عثر على الطريق إلى الله » .. وخرج « من حيرة الإلحاد إلى طمأنينة الإيمان » . ^(٢)

لقد « كان هذا الشاب الذى سوف يدخره القدر ليلعب أعظم دور إسلامى ، وليجىء في القعة مع كبار دعاة الإسلام ومفكره في عصرنا الحديث ، غارقاً أيام الطلب « الدراسة » ، وبعد تخرجه ، في المذاهب والتيارات الثقافية الأوربية التى أخذت تتدفق على مصر مع الاحتلال ، والبعثات ، والترجمة ، وتقبل عليها صفوة المثقفين بحسن نية أحياناً ، وفي غفلة أحياناً أخرى ، ويدفعون إليها دفعا في أحيان كثيرة » . ^(٣)

في تلك الفترة ، أصدر د . طه حسين كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » وفيه اعتبر مصر جزءاً من جغرافية ، وثقافة ، وحضارة البحر الأبيض المتوسط ... « وعليها أن تعود إلى الثقافة اللاتينية ، وأن تعطى ظهرها لما عداها » - د . مكى ، المرجع السابق ..

(١) و (٢) سليمان فياض - مقال : « سيد قطب بين النقد الأدبى وجاهلية القرن العشرين » - مجلة « الهلال » - سبتمبر ١٩٨٦ - ص ٥٨ .

(٣) د . الطاهر مكى - مقال : « سيد قطب وثلاث رسائل لم تنشر بعد » - مجلة « الهلال » - عدد أكتوبر ١٩٨٦ - ص ١٢١ .

في تلك الفترة أيضاً كان « العقاد » في مرحلة « الشك » .. وفي عنف معاركه الفكرية مع الكتاب الإسلاميين ، وعلى رأسهم « مصطفى صادق الرافعي » .. ومنهم « محمود محمد شاكر » و« سعيد العريان » .. وقد بدأت أشهر هذه المعارك وأشرسها وأكثرها جراءة وصراحة بين « العقاد » و« الرافعي » قبل تلك الفترة بسنوات قليلة ، عندما أصدر الرافعي كتابه عن إعجاز القرآن .. ولم يعجب الكتاب العقاد .. حتى أنه أنكر هذا الإعجاز .. وغضب الرافعي الذي رد على العقاد في كتاب تال « كتاب على السفود » وصف فيه غضبته بأنها « غضبة لله والقرآن » .. وكتاب الرافعي « على السفود » كان كتاباً في النقد المعاصر ، إلا أن سيد قطب اعتبر هذا التصنيف من باب التجاوز .. إذ أن الكتاب كان مكانه الحقيقي في رأيه هو « فصل الهجاء » .. وكان هذا الوصف - على ما يبدو - امتداداً لقضية إعجاز القرآن ، التي ناصر فيها العقاد .. وعندما وصف موقفه بأنه « مجانية للدين والتقوى والحياة » ، رد قائلاً : « إن الأدب والشعر كالفنون مترجمة عن النفس البشرية وأحاسيسها وأمالها ، ولا دخل للدين فيه .. لانتى أدري من غيرى بحقيقة الدين » .. (٤) .

وكما انحاز « سيد قطب » للعقاد في معركته مع الرافعي ، انحاز له في معاركه مع طه حسين .. بل لا نكون قد تجاوزنا الحقيقة لو قلنا إن جزءاً كبيراً من شهرة « سيد قطب » النقدية ، ترجع لهجومه القاسي على طه حسين .. وقد كان يرى أن « مذهب الدكتور طه حسين : هو (فقط) الدكتور طه حسين نفسه » (٥) .. أي إن الدكتور طه حسين موهبة بلا امتداد .. بلا تلاميذ .. موهبة منفردة محبوسة في حدود صاحبها .. ولا يمكن أن تنقلب إلى « مدرسة » أدبية تحمل اسم وخصائص ومميزات « العميد » ... ورغم أن الدكتور طه حسين له عدد كبير من المريدين ... يحاولون التشبث بخصائصه .. والنسج على منواله .. فإن « واحداً منهم لم يحقق « خصائصه » إلى اليوم على الوجه المطلوب » .. « ومن بين هؤلاء من يبذل جهداً مضنياً يثير الإشفاق ليصبح نسخة أخرى منه ، فتكون قصاراه أن يخرج نسخة « مشلطة » ، كالصورة التي تنطبع على ورق النشاف » .. (٦) .. ولأن مذهب الدكتور طه حسين هو مذهب الاستعراض التصويري .. ولأن الدكتور « في خير حالاته يرسم لوحات متتابعة ، أدواته فيها الكلمات والجمل » فإن « سيد قطب » يرى أن كتابه « على هامش السيرة » يجمع أفضل خصائصه ، وأحسن مزاياه ، وينجوفيه من كل « عيوبه » التي توجد في بعض الكتب الأخرى ، (٧) .. ونستطيع أن نلاحظ أن إعجابه بالدكتور طه حسين ، بدأ يتزايد ، وقسوته في نقد أعماله ، بدأت تقل ، عندما غير اتجاهه ، وراح يكتب مؤلفاته الإسلامية .. مثل « على هامش السيرة » و« الشيخان » و« الوعد الحق » ... الخ .. ولم يكن إعجاب « سيد قطب » - على هذا النحو - إعجاباً إسلامياً .. وإنما كان نقدياً أيضاً ..

كان موقفه من العقاد مختلفاً تماماً .. كان معجباً به .. ونصيراً له .. ومؤيداً لكل مواقفه .. وكان بينهما الكثير من أوجه التشابه .. فكلاهما اعتمد على نفسه في القراءة والثقافة .. وكلاهما

(٤) انظر : الطاهر مكي - مرجع سبقت الإشارة إليه .. وسيد قطب : « كتب وشخصيات » - دار الشروق الطبعة الثالثة - ١٩٨٣ - ص ٥ .

(٥) و (٦) و (٧) سيد قطب - كتب وشخصيات - ص ١٠٥ .

كان وفدياً ثم انقلب على الوفد بعد أن رحل سعد زغلول وجاء مصطفى النحاس .. وكلاهما لم يتزوج .. وكلاهما انقلب من الضد إلى الضد .. في موقفه من الدين .. وقد كان العقاد وراء تقديم سيد قطب إلى معظم الصحف والمجلات التي كان يكتب فيها .. وبعد علاقة قوية استمرت ربع قرن .. انفصلا .. واختلفا ! وكان السبب رفض العقاد أن يكتب مقدمة كتاب له !

وحتى نعرف إلى أي مدى كان سيد قطب معجباً بالعقاد لابد أن نقرأ له بعضاً مما كتبه عنه .. خاصة ما كتبه عن شعره .

فقد قال :

« في وضع النهار يعيش العقاد ، صاحي الحس ، واعى الذهن ، حى الطبع ، لا يهوم إلا نادراً ، ولا يتوه فيما وراء الوعي أبداً .

« ومعالم الإحساس والتصور عند العقاد واضحة ، وهى على رحابتها وانفساحها وعلى عمقها ودقتها ، يحدها إطار من الوعي المتيقظ ، فلا تهيم في وديان مسحورة ، ولا تنطلق في متاهات مجهولة .

« على أن للمجهول حسابه في نفس العقاد ، ولكن هذا المجهول نفسه يحيط به الوعي ، وهوفكرة يدعو إلى فرضها العقل . وليس الإيمان بهذا المجهول توهانا روحياً ، ولا صوفية غامضة ، إنما رحابة نفسية وفكرية .

« ومن هذه الينابيع يتفجر شعر العقاد ، فيكثر فيه تصوير الحالات النفسية ، وتسجيل الخواطر الفكرية ، وإثبات التأملات المنطقية (إذا جاز التعبير) ، بقدر ما تقل فيه السبحات الهائلة ، والانطلاقات التائهة ، والظلال الشائكة ، فكل شيء واضح ، وكل شيء له حدود . (٨) .. لكن ...

رغم ذلك كله ، فإن إعجاب « سيد قطب » بالعقاد كشاعر يقل كثيراً عن إعجابه به كناقذ أدبي ، وكدارس للشخصيات .. حتى أنه يصفه بأنه « دارس الشخصيات الأول إلى اليوم » .. ويضيف : إن أفضل مواهبه « العقاد » تنصرف إلى هذا اللون من الإنتاج الذى يتسع لتجاربه النفسية والفنية على السواء .. « وفصل الشخصيات التى درسها فى أعماله الأدبية هو أبرزها بجانب فصل النقد الأدبي - وهو نوع من هذه الدراسات - وإذا جاز لى أن أمد ببصرى إلى المستقبل قلت : هو أخذها كذلك » (٩) ..

وكان عنده حق !

ويضيف :

إن دور العقاد « فى هذه الدراسات - وفى الدراسات النقدية - هو الاصيل الباقي ، الذى أحسب أن الزمن لن ينقص من قيمته كثيراً ، على حين أن الكثير من أعماله الأخرى قد لا يحتفظ بكل قيمته ، كما أن بعضها سينسى نهائياً ، فلا يذكر إلا فى معرض التاريخ ، بوصفه أعمالاً

(٨) كتب وشخصيات - ص ٨٤ .

(٩) و (١٠) كتب وشخصيات - ص ٢٩٨ .

تمهيدية في مرحلة الانتقال . (١٠) .. وبعد مرور أكثر من أربعين سنة على هذا الكلام ، أثبت التاريخ
- مرة أخرى - أن سيد قطب كان على حق .

□□

وكما كتب « سيد قطب » عن العقاد كتب عن غيره .. وليس من الصعب الآن أن نتعرف عليه
كناقد أدبي .. فكثير من مقالاته ودراساته النقدية محفوظة في أرشيف دوريات « دار الكتب » .. في
دوريات لم تعد تصدر الآن مثل « الرسالة » و« المقتطف » .. وقد جمع البعض منها في كتب ، أعيد
طبعها من جديد .. أبرزها كتاب « النقد الأدبي أصوله ومناهجه » .. وكتاب « كتب
وشخصيات » .. ولا بد أن نذكر بالمناسبة أنه حاول أن يسرد سيرة حياته ، هو وشقيقه وشقيقتيه
في كتاب « الأطياف الأربعة » ، نشر باسمه وأسمائهم .. ثم كان أن أفرد سيرته على طريقة
« الأيام » في كتاب « طفل القرية » .. ثم كان أن حاول تجريب نفسه كروائي في كتاب
« أشواك » .. ثم كان أن حاول أن يجرب نفسه كشاعر .. إلا أنه لم يبرع ، وإن كانت بعض
المجلات المحترمة مثل « الرسالة » قد نشرت بعض قصائده .. لكن أغلب الظن أن النشر كان
بسبب اسمه ومكانته لا بسبب مستوى شعره .. إن قصائده كانت أقرب للخواطر والانفعالات ولم
يكن فيها ما كان يحرص عليه وهو ينقد شعر الآخرين .. الصور البلاغية .. وعندما قرأت بعضها
تسألت : ترى لو أنه تعامل معها كناقد فماذا كان يا ترى يكتب ؟

في قصيدة بعنوان « هتاف الروح » - كتبها سيد قطب « في ليلة دافئة من ليالي كاليفورنيا » كما
ذكرت « الرسالة » في عدد ٢٤ أبريل ١٩٥٠ (ص ٤٧٢ - العدد ٨٧٧) يقول :

في الجو لمصر دفء	يدنني إلى خيالك
وتستجيش حنيني	إلى الليالي هنالك
للامسيات السكاري	نشوى ترف خيالك
ونسمة منك تسرى	ريانة من جمالك
نجواك ملء فؤادي	ترى خطرت ببالك



في النفس يا مصر شوق	لخبرة في ربك
لضجة من ثراك	لنفحة من جواك
لومضة من سمك	لهاتف من رؤاك
لليلة منك أخرى	مع الرفاق هنك
ظمان تهتف روحى	متى ترانى أراك

لقد كتبها وهو في سان فرانسيسكو .. ومن الأفضل أن ننظر إليها من باب خواطر الشوق ،
وأحاسيس الغربة ، لا من باب النقد الشعري .. أو التصوير الفني الذي كان يحكمه كناقد
صارم ، لا يجمال !

ولا بد لمن يقرأ أعمال سيد قطب الأدبية والنقدية أن يجد فيه صورة مختلفة عن الصورة التي

فارقنا عليها .. ولا تزال سائدة في أذهاننا ومسيطرة عليها حتى الآن ... إنه في تلك المرحلة المبكرة من حياته ، كان يلتهم كل ما يقع تحت يده من كتب ، كان يقرأها ، وينتقدها ، ويتأملها ، ويجادل أصحابها في حرية ، ودون تحفظ أو حرج .. بما في ذلك الكتب المقدسة مثل التوراة « العهد القديم » .. والقرآن ..

ففي معرض حديثه عن « الصور والظلال في الفن »^(١١) ، يتعجب من « أن يكون القرآن هو كتاب العرب الأول ، ثم لا يستفيد الأدب العربي من طريقته الأساسية شيئاً بعد نزوله ، وتيسيره للذكر في أيديهم ، إلا فلتات في ديوان كل شاعر ، هي امتداد للتصوير في الأدب الجاهلي ، وعلى طريقته ، لا على طريقة القرآن الرفيعة » .. يبرر ذلك قائلاً : « ولعل مرد ذلك إلى أن الحاسة الفنية عند أولئك الشعراء كانت أقل من أن تتطلع إلى هذا الأفق الرفيع ، فلعلنا أن نكون اليوم أحق بهذا التطلع من جميع من مضوا من شعراء العربية خلال أربعة عشر قرناً » ..

في هذه الدراسة أيضاً ، نجده يختار في إعجاب مقطوعة من نشيد الإنشاد المشهور في التوراة ... والتي تقول فيها بطلته « شوليت » :^(١٢)

« كالتفاح بين شجر الوعر ، كذلك حبيبي بين البنين ، تحت ظله اشتفيت أن أجلس ، وثمرته حلوة بحلقى ، أدخلني إلى بيت الخمر ، وعلمه فوقى محبة ، أسندوني بأقراص الزبيب ، انعشوني بالتفاح فإني مريضة حبا ، شماله تحت رأسي ، ويمينه تعانقني ، أحلفكن يا بنات اورشليم بالظباء ، وبأيائل الحقل : ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء ! »
ويقول حبيبها الراعي في مقطوعة أخرى من النشيد :

« ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة بالذات . قامتك هذه شبيهة بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد . قلت : إنني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها ، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ، ورائحة أنفك كالتفاح ، وضحكك كأجود الخمر السائغة المرققة السائحة على شفاه النائمين » .

ويصف « سيد قطب » هذه الصور الحسية بأنها : « صورة للحب الفطري » .. « كأنما هو قطعة من حب الطبيعة .. يتفتح حين تتفتح ، ويفوح حين تفوح » ... ويعتبرها « أعلى في آفاق الفن على كل دعاء بالغزل على طريقة المعاني الذهنية » التي يلجأ إليها شعراء العذريين .

ويدلل سيد قطب على أن الشعر الأوربي تأثر وانتفع « بكتابتهم المقدس » .. وهو تأثر واضح « في طريقة الإحساس وفي طريقة التعبير على السواء » .. ثم يضيف مستنكراً : « ونحن نجد القرآن بين أيدينا ، وهو يتبع في التعبير طريقة التصوير الحى الذى يزيد مساحة المعنى النفسية ، ويحيله صورة حية » .. فلا ننتفع بها .. إننى أدعو إلى تملى طريقة القرآن في التصوير والتظليل . فهي أعلى طريقة فنية للاداء » .. « فإن نقلها إلى عالم الأدب خلىق بأن يرفع هذا الأدب إلى آفاق رفيعة ، لم نصل إليها حتى الآن » ..^(١٣)

(١١) المرجع السابق ص - ٢٨ .

(١٢) المرجع السابق ص - ٢٧ .

(١٣) المرجع السابق ص - ٤٠ .

ويزداد إحساسه بالصور الحسية (أكثر من المعانى الذهنية) عندما يتعرض إلى غزليات الشاعر الفارسي « حافظ شيرازى » وهى أربعمائة وست وتسعون مقطوعة ، ترجمها إلى اللغة العربية الدكتور « إبراهيم أمين الشواربى » الذى لم يعرف سيد قطب - على حد قوله - كيف يشكره على ذلك .. بعد أن عاش أياماً جميلة مع ما ترجمه ... « فهذه الساعات الحلوة التى أتاحها لى الدكتور لا تقدر بثمن » .. ثم يضيف : « لقد أخذت - مع حافظ إلى الغناء العذب بروح صادقة لا تذكرها شوائب الحياة ، ولا هموم العيش ، ولا أحقاد الناس ، ولا تفسدها كذلك غواشى القلق ولا هموم الفكر ولا الجدل ذهنى العقيم » . (١٤)

ثم .. يختار منها تلك الأبيات : (١٥)

« كأس من الخمر ، ووجه جميل ، ورفاق مسعدون ، وطبيعة باسمه
وعلى الدنيا السلام .. !

« أى شىء أجمل من رفقة الأحباب ، والتمتع باللهو والرياض
والربيع الجميل ؟
« فأين الساقى ؟

« قل له : ما هذا الانتظار الطويل ؟
« واعتبر ما يتها لك من طيب الوقت فرصة غزيرة وغنيمة كبرى ..
« فلا علم لأحد بـ ما تكون عليه نهاية الأمور .

ويختار سيد قطب غزلية أخرى لحافظ شيرازى أكثر حسا .. والتهابا .. غزلية تقول : (١٦) .
« إن شفة الحبيب يا قوته ظمأى إلى الدماء .

« وأنا من أجل رؤيتها أضحى بالروح ، وهذا هو عمل وشغلى الشاغل » .
ويختار غزلية ثالثة تقول : (١٧)

« مبعثر الخصلات ، محمر الوجنات ، ضاحك الأسنان ، تلعب به الخمر ، سكران . ممزق
القميص ، يتغنى بالآلحان فى يده إبريق من بنت الحان ..
« ولقد شربنا ما صبه الساقى فى كؤوسنا .

« سواء كانت خمرة من خمر العريضة أو من خمر الفردوس والجنان ..
ويعلق سيد قطب على هذا الغزل الحسى ، المنافس لغزل عمر الخيام ، فيقول : « إنها لعجبية
مدهشة تلك التى تجعل القارىء يتابع حافظاً فى لذة وارتياح ، فلا يمل ، ولا يسأم ذلك التكرار
الذى لا ينتهى فى الغزليات ، وذلك اللعب بالنكات اللفظية ، والتعبيرية التى تزحم الديوان ، والتى
كانت نظائرها فى شعر البديعيين فى اللغة العربية كفيلاً بإسقاط هذا الشعر ، وكفيلاً كذلك بالسأم ،
والضيق إلى حد الاختناق » (١٨) .

(١٤) المرجع السابق - ص ٦٨ - دراسة بعنوان « نفحات من فارس » .

(١٥) المرجع السابق - ص ٦٨ أيضاً .

(١٦) المرجع السابق - ص ٧٢ .

(١٧) المرجع السابق - ص ٧٤ .

(١٨) المرجع السابق - ص ٧٢ .

ثم يتجراً أكثر ، فيقول : إن كاتب هذا الشعر « مستهتر في عشقه الصوفي أو الغزلي ، نشوان بخمره الإلهية أو النواسية ، وليقل من شاء كيف شاء ، فهو خير عند نفسه وعند الله من المرائين والمنافقين ، ومن الوعاظ الثقلاء » .. (١٩) .

□□

ولابد أن تكون مفاجأة مذهلة أن أكرر أن سيد قطب دعا في تلك المرحلة المبكرة إلى العري التام .. أقول وأكرر ، لأن أول من نشر هذه المعلومة ، عضو الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين « محمود عبد الحليم » .. لقد قرأ الرجل في ذلك الوقت مقالاً لسيد قطب في جريدة « الأهرام » ... « يدعو فيه دعوة صريحة إلى العري التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم » (٢٠) .. كانت بدعة نوادي العراة .. وشواطئ العراة قد انتشرت في أوروبا وأمريكا .. وكان وراءها فلسفة مضادة للتكثيف الحضاري المتزمت الذي تفرضه القواعد الصارمة للرأسمالية .. ويبدو أن سيد قطب قد أعجبت تلك الفلسفة .. وما وراءها .. وكان أن فزع الكثير .. ومنهم « محمود عبد الحليم » فسارع إلى الورقة والقلم وكتب رداً .. إلا أنه قبل أن يرسله إلى « الأهرام » عرضه على الشيخ « حسن البنا » .. لكن حسن البنا رفض أن ينشر الرد .. وكان رأي أن سيد قطب « شاب متأثر بالبيئة » الغربية ود هي التي تغذيه بمثل هذه الأفكار .. وإن هدفه « من كتابة المقال ليس هو مجرد التعبير عما يؤمن به ، وإنما هو محاولة جذب الأنظار » .. ونشر الرد يحقق له ما يريد .. ثم إن نشر الرد سيجعل من لم يقرأ المقال يقرأه .. ثم .. إن الرد نوع من التحدى ، والتحدى يخلق نوعاً من العناد .. « وهذا العناد يجعله يتعصب لرأيه مهما اقتنع بخطئه ، ونكون بذلك قد قطعنا عليه خط الرجعة ، وفي هذا خسارة نحن في غنى عنها » .. ثم .. إن « هذا الكاتب شاب وترك الفرصة أمامه للرجوع إلى الحق خير من إحراجه .. ولعله يفوق من غفلته .. ويفي إلى الصواب ، ويكون ممن تنتفع الدعوة بجهوده في يوم من الأيام » .. وقد كان .

□□

في مرحلة النقد الأدبي ، نجده يتعرض لكتب العمالقة الذين نعرفهم .. « أحلام شهرزاد » و « شجرة البؤس » للدكتور طه حسين ... « بيجماليون » و « الرباط المقدس » لتوفيق الحكيم .. والرواية الشعرية بين أحمد شوقي ، وعزيز أباظة .. وفي تلك المرحلة ، نجده يتحمس لقاص شاب يطرق أبواب الرواية . بعلامح مصرية أصيلة .. هو نجيب محفوظ بعد أن كتب « خان الخليل » .. وقد اعتبرها « خطوة حاسمة في طريقنا إلى أدب قومي واضح السمات متميز المعالم ، ذي روح مصرية خالصة من تأثير الشوائب الأجنبية - مع انتفاعه بها - نستطيع أن نقدمه - مع قوميته الخالصة - على المائدة العالمية ، فلا يندغم فيها ، ولا يفقد طابعه وعنوانه ، في الوقت الذي يؤدي رسالته الإنسانية ، ويحمل الطابع الإنساني العام ، ويساير نظائره في الآداب الأخرى » . (٢١)

(١٩) المرجع السابق - ص ٧٩ .

(٢٠) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون .. أحداث صنعت التاريخ - ج ١ - ص ١٩٠ - الناشر دار الدعوة ١٩٧٩ .

(٢١) « كتب وشخصيات » - مرجع سبقت الإشارة إليه - ص ١٥٩ .

في تلك المرحلة أيضاً ، لا ينكر سيد قطب إعجابه بقصة عادل كامل « ملهم الاكبر » .. وهي من أوائل القصص في الادب العربي التي تتعرض للصراع بين الطبقات « في قالب فني » ، وتمثل بداية ما يمكن أن يوصف بأدب « الوعي الطبقي » الذي كان يدعو إليه جمهور من المفكرين ، في جميع أنحاء العالم ، بعد نجاح الثورة « الروسية » . ويعترف سيد قطب بقيمة هذا الادب ، وإن كان يرفض الغلوفيه والمبالغة في فرضه على جموع الفنانين .

وعندما أصدر د . حسين فوزي كتابه « سندباد عصري » وجدها سيد قطب فرصة ليقدم تفسيراً نفسياً .. ادبياً .. معتقاً .. وشديد العذوبة لأسطورة السندباد .. أولخرافة السندباد .. إن السندباد في رايه « المخلوق الذي يناديه المجهول فيليبه ، ويجذبه الخطر فيستجيب إليه ، ويتعرض للأهوال الشداد الجسام في كل رحلة من رحلاته ، ثم يبلغ مأمنه بعد اليأس ، ويسترد ثروته بعد فقدان ، ولكن المجهول يناديه ، والخطر يجذبه إليه ، فما يلبث أن يودع الأمن ، ويستصغر الثروة ، ويعود إلى المجازفة من جديد ، وراء ذلك المجهول ، المحجوب ، وخلف هذا الخطر المحبوب » . (٢٢) إن « في قرارة كل نفس إنسانية « سندباد » أو شعرة من « السندباد » .. ولولم يطوّف مثله في بحار الأرض ويتعرض في طوافه لشتى الأخطار » .. إن هذا السندباد المستقر في داخلنا - الذي يشير إليه سيد قطب - يدفعنا إلى أرض المجهول .. والمجهول قد يكون فكرة .. رغبة .. مغامرة .. علاقة .. إن هذا السندباد الذي يعيش معنا هو الذي يستجيب إلى ذلك النداء السحري ، الذي لا يقاوم ... نداء المجهول .

وفي الحقيقة لم يكن في داخل سيد قطب شعرة من « السندباد » .. وإنما كان نموذجاً ، عصرياً ، مكتملاً منه .. كان نموذجاً للسندباد « الفكري » ، الذي لم يستطع مقاومة نداء المجهول السحري ، الذي لا يقاوم .. إلى مغامرات فكرية متنوعة .. كلما حطر حاله على واحدة منها ، وبلغ مأمنه بعد اليأس ، جذبه الخطر إليه ، فودع الأمن ، وعاد إلى المجازفة من جديد ، وراء فكرة أخرى مجهولة وهكذا ... حتى دفع حياته في النهاية ثمناً لواحدة منها . وهو نفسه يعترف بهذه الحقيقة .. حينما يقول : « من منالم يجذبه المجهول مرة أو مرات ، ولم يستهوه الخطر لحظة أو لحظات ، ولم يستعذب « المعرفة » ولو كلفته التضحية والتضحيات ؟ » .

إن هذا الأسلوب السلس .. الجذاب ، كان يميز سيد قطب في تلك المرحلة النقدية ، الادبية .. وكان يميزه - أيضاً - إحساسه الشديد بالعدل والتجرد بقدر الإمكان .. وهذا بالقطع إحساس ضروري للناقد .. بدونه يتحول إلى جلال .. أو حامل مبخرة » .. وهذا الإحساس جعله يؤمن بقيمة العقل .. والحجة .. وجعله لا يفرض على الآخرين أفكاره بالقوة .. ولاء بالأمر .. وإنما بالإقناع والمنطق .. وجعله يقبل الاختلاف بين البشر .. ويعتبر الاختلاف من طبائع الأمور .. فهو - مثلاً - لا ينكر إعجابه بأسلوب د . حسين فوزي في « سندباد عصري » ، ولا بعشاعره الإنسانية ، ولا بقدرته على استيعاب المعرفة ، وإن أنكر ، واعترض على إعجابه بحضارة الغرب .

والغريب أن سيد قطب قد ضاعف من هجومه على الغرب .. وعلى حضارته بعد أن سافر إلى

أمريكا .. التي كانت تمثل ذروة تلك الحضارة في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأخيرة .. وقد حدث أن كان هناك ، وأرسل إليه « توفيق الحكيم » نسخة من كتابه « الملك أوديب » .. بإهداء : « إلى سيد قطب .. ممن يذكر دائماً » .. فكان أن تلقف الكتاب .. قائلاً للحكيم في خطاب مفتوح نشرته مجلة « الرسالة » ، (٢٢) : « إن كتابك « شيء عزيز ثمين بالقياس لى هنا في تلك « الورشة » الضخمة ، السخيفة التي يسمونها العالم الجديد » .. ثم .. كان أن وجدها فرصة ليناقد الحكيم - الذي درس في باريس - في ضرورة التخلص من رواسب الحضارة الغربية .. ثم .. قال له : (٢٤) « أه يا صديقي ، ليتك لم تذهب إلى فرنسا ..

ولكنك ما كنت بمستطيع الآن أن تقوم بدورك الأساسي في وضع القالب الفني الصحيح للتمثيلية (المسرحية) العربية إذا لم تذهب هناك ، فدراستك هناك للمسرح الإغريقي هي التي مكنتك من وضع القالب السليم .

« إن الخير لا يمكن تمحيصه والشر لا يخلو من الخير بحال ..

« والآن يا صديقي ، هل أدلك على النبع ؟

« لقد قال لك أستاذك الفرنسي ، كما قلت في « زهرة العمر » ، وأنت تعرض عليه محاولتك باللغة الفرنسية : « اكتب بلغتك لتبدع » .

« هذا هو نفسه ما أقول لك : استوح « ميراثك » لتبدع .. إن هذا الميراث هناك كامن في ضميرك ، تخنقه ثقافتك الفنية الفرنسية . إنك تبعد عنه كلما ذهبت إلى الإغريق ، وغير الإغريق تستلهم أساطيرهم القديمة . إنك مصرى . مصر القديمة الفانية في أعماق التاريخ ، السارية في ضمير الزمن ..

« ما عليك الآن إلا أن تعيش مفتوح القلب والحس والعين في ريف مصر وفي أحيائها العامة ... دعك من « سليمان باشا » ، ود الزمالك ، ود المعادى ، ود الدقى ، هذه رقع مستعارة في الثوب الأصيل . هذه لطمع شوهاء في اللوحة المتناسقة .

« خذ القالب الأوربي ، القالب وحده ، ولكن صور في هذا القالب الضمير المصرى ، بروح مصرية وحاول أن تهتدى إلى عبقرية الشرق الأصيلة ، وهي ليست مجرد عبقرية الذهن التجريدية .

« لقد وجد في عالم القصة والرواية من يستلهم الطبيعة المصرية .. الخالق بروح مصرية خالصة .. وهذا هو الأهم ، فليس من الضروري - في غير الأساطير وما يشبه الأساطير - أن يكون الموضوع مصرياً ، ولكن المهم أن يعالج بروح مصرية .

« والاستطراد يسوقنى إلى « قنديل أم هاشم » ، ليحى حقى ، ود خان الخليلى ، لنجيب محفوظ .. لقد كانا مصريين دما ولحما وعاطفة وشعوراً في هذين العاملين المعجبين .. وذلك هو الطريق !

(٢٢) مجلة « الرسالة » - مقال : « إلى الأستاذ توفيق الحكيم » - العدد ٨٢٧ - الاثنين ٩ مايو ١٩٤٩ .. وقد تضمن المقال - الرسالة بعض انطباعات سيد قطب عن أمريكا ، نؤجلها إلى فصل آخر .

(٢٤) سيد قطب - الجزء الثانى من رسالته إلى الحكيم - مجلة الرسالة ١٦ مايو ١٩٤٩ .

من منتصف العشرينيات (١٩٢٥) إلى قرب نهاية الثلاثينيات (١٩٢٩) كان سيد قطب مثل العقاد ، وطه حسين ، وغيرهما من المثقفين المصريين الذين اغتربوا وشربوا حتى الامتلاء من نبع الحضارة الغربية .. كانوا وقتها مثل الفراشات التي تنجذب إلى ضوءها المبهر « لا أقول نيرانها الحارقة » .. وقد تحول الانجذاب إلى إعجاب .. وتحول الإعجاب إلى عشق .. وتحول العشق إلى إدمان .. ثم كان أن تحول الإدمان إلى صلاة وعبادة وخشوع .. لكن .. ما إن مرت السنوات حتى كفروا بتلك الحضارة ، واستردوا وعيهم « الشرقى » .. وحسموا تناقضهم المحموم بسبب « فيوس » ، الازدواج الثقافي .. وراحوا يحتمون بتراث الإسلام .. ويعيدون صياغته في صور عصرية ، غير بعيدة عما بقى في عقولهم ووجدانهم مما هضموه من الحضارة الأوربية .

وعندما جاء الدور على سيد قطب ، فعل ما فعلوه ، ولكن .. بتطرف أكثر .. كعادته .. لقد كان متطرفاً في إعجابه بالحضارة الغربية « إلى درجة الدعوة للعرى الكامل » .. ثم .. كان متطرفاً في عداوته لها .. وقد عبر عن ذلك - فيما بعد - بوضوح ... حينما قال :

« لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسى ، وهى رواسب أتية من مصادر أجنبية .. غربية على حسى الإسلامى .. وعلى الرغم من اتجاهى الإسلامى الواضح فى ذلك الحين ، إلا أن هذه الرواسب ، كانت تغبش تصورى وتطمسه ! كان تصور « الحضارة » - كما هو فى الفكر الأوربى - يخاليل لى ، ويغبش تصورى ، ويحرمنى الرؤية الواضحة الأصلية ، ثم انجلت الصورة .. المجتمع المسلم هو « المجتمع المتحضر » ، فكلمة « المتحضر » إذن لغو لا يضيف شيئاً جديداً .. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حس القارىء تلك الظلال الأجنبية الغربية ، التى كانت تغبش تصورى ، وتحرمنى الرؤية الواضحة الأصلية ، (٢٥) .

وإذا كان انتقال العقاد وطه حسين من « الغرب » إلى « الشرق » لم يمنعهما من رفض العلوم الإنسانية والفلسفية التى أفرزتها الحضارة الأوربية .. فإن سيد قطب قاطع وخاصم تلك العلوم .. وفى مرحلته الإسلامية الأخيرة .. مرحلة تكفير المجتمع ووصفه بالجاهلية وصل إلى حد تحريمها .. واعتبرها « حرام » .. وليس من الإسلام ، دراستها أوحتى الاقتراب منها .. كأنها مثل الربا والميسر والميتة والدم ولحم الخنزير .. « رجس من عمل الشيطان » ! فالفلسفة أصبحت عنده بجملتها فى الفكر الجاهلى ، غير الإسلامى ، كذلك اتجاهات « تفسير التاريخ الإنسانى » بجملتها ، واتجاهات « علم النفس » بجملتها (عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة) ومباحث « الأخلاق » بجملتها ، واتجاهات دراسة « الأديان المقارنة » بجملتها ، واتجاهات « التفسيرات والمذاهب الاجتماعية » بجملتها (فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة) ... إن هذه الاتجاهات فيما انتهى إليه من آراء « متأثرة - فى رأيه - تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية ، وقائمة على هذه التصورات ، ومعظمها - إن لم يكن كلها - يتضمن فى أصوله المنهجية عداً ظاهراً أو خفياً للتصور الدينى جملة ، وللتصور الإسلامى على وجه خاص » !! (٢٦) .

(٢٥) « معالم فى الطريق » - ص ١١٨ .

(٢٦) « معالم فى الطريق » - ص ١٤٠ .

.. « والامر في هذه الألوان من النشاط الفكري - والعلمى ! - ليس كالامر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والاحياء والطب وما إليها - ما دامت هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية دون أن تجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفى في صورة من صورته » !! (٢٧) .

وهذا يعنى أن نستورد النظريات العلمية ، العملية ، المجردة ، دون أن نستورد معها انعكاسها على الفلسفات الاجتماعية والاخلاقية ... ولا بد أن هذا الفصل إذا لم يكن مستحيلاً ، فهو صعب .. فالعلوم المجردة تعبر عن حاجة المجتمع .. وفلسفته .. وأهدافه .. ومذهبه .. ونظامه الخاص .. ثم إن هذه العلوم تخلق من جانبها واقعاً مادياً يؤثر على الطبقات والأخلاق والانفعالات والفلسفات أيضاً .. إن « السيارة » مثلاً وهى نتاج علوم عملية مجردة ، ليست مجرد « موتور » و« مقاعد » و« كشافات » و« عجلة قيادة » .. إنها أيضاً نتاج علوم إنسانية وفلسفات اجتماعية ، تعبر عن « الذوق » و« الطبقة » ومفهوم « الاستهلاك » .. إن تلك السيارة لم تصنعها علوم الميكانيكا والكهرباء فقط ، وإنما صنعتها علوم النفس والاجتماع أيضاً .. ولا يمكن استيراد تكنولوجيا معينة دون تلافى آثارها النفسية والاجتماعية والسياسية .. هذه حقيقة تعاني منها الدول النامية الآن .. وهى حقيقة كان من الغريب أن تقوت على مفكر مثقف مثل سيد قطب .. أو .. هو حماسه الغاضب لفكرة الجاهلية والحاكمية الذى جعله ينظر في اتجاه واحد .. ربما !

وفيما بعد أمكن بتحليل موقف سيد قطب من العلوم العملية والعلوم الإنسانية ، إيجاد تفسير إضافي لظهور الجماعات والتنظيمات الإسلامية « المتطرفة » التى تمشى على منهجه وطريقه في الكليات العملية مثل الطب والهندسة والعلوم والصيدلة .. إن أعضاءها من الطلبة ينفذون قدر استطاعتهم ما قاله « الاستاذ » و« المعلم » ..

نفس الموقف اتخذه سيد قطب من الفنون بما في ذلك فن الطرب .. الذى كان متحمساً له ، ومعجباً به ، إلى حد أن وصف أم كلثوم ، ومحمد عبد الوهاب بأنهما « من الظواهر الكونية التى لا تتكرر » . (٢٨) ... ولعل تحريمه للفنون والموسيقى فيما بعد ، يفسر أيضاً موقف أغلب الجماعات الإسلامية منها الآن !

□ □

رغم كل ما كتبه سيد قطب في صحافة تلك الايام من نقد ودراسات أدبية ، فإنه لم يتفرغ لمهنة الكتابة ، ورغم أن نجمه بدأ يلمع على الورق ، فإنه لم يترك حرفة التدريس ولا عمله في وزارة « المعارف » .. وانتهى به المقام في ضاحية « حلوان » مع أسرته « والدته وشقيقه وشقيقتيه » ... وكان جو حلوان يناسبه .. فقد كان يعاني من متاعب مزمنة في صدره .. وأغلب الظن أنه كان يعيش ويتنفس برئة واحدة .. لذلك كان في حاجة إلى طقس مشمس ، جاف ، لا يضاعف من متاعبه الصحية .

إن المتاعب الصحية كانت تقف له بالمرصاد منذ طفولته .. وأيامه الأولى في القرية .. وبين الحين

(٢٧) « معالم في الطريق » - ص ١٤٠ .

(٢٨) سليمان فياض - مرجع سبقت الإشارة إليه .

والآخر كان يقعده المرض ، ويفرض عليه البقاء في الفراش .. وينغص عليه الكثير من متع الحياة .. وقد حدث ذلك أثناء رحلته في أمريكا .. حيث ضاعت بعض الأيام في أحد مستشفيات « سان فرانسيسكو » للعلاج .. وبسبب تلك الازمة غادر « سان فرانسيسكو » .. « برياحها الرطبة المتغيرة » كما وصفها بنفسه في خطاب إلى صديقه الناقد والأديب « عباس خضر » إلى مدينة صغيرة مشمسة ، تسمى « بول التو » .. شم فيها رائحة شمس مصر .. فتعافى . (٢٩) .. لقد كان المرض يفرض عليه دائماً الرحيل إلى الدفء والجفاف .. لقد كان نحيف القوام .. أسمر اللون .. يحمل عينين واسعتين .. غافيتين ابداً .. وأضاف له المرض الشحوب وبياض الوجه .. (٣٠) ويعتقد البعض أن متاعبه الصحية ، وخوفه الدائم من المرض ، كانا من أسباب الانطواء والعزلة والشرد والإغراق في التأمل أحياناً .. أو من أسباب الاكتئاب والشعور بالقلق أحياناً أخرى .. ولابد أن ذلك كله كان له تأثير كبير .. واضح عليه .

إن في العالم الآن عشرات الكتب العلمية ، الجادة ، التي تفسر تاريخ الزعماء والقادة والمفكرين ، وتفسر تصرفاتهم وقراراتهم تفسيراً صحيحاً .. يمر عبر الأمراض التي أصيبوا بها ، والأدوية التي ابتلعوها .. ودروشتات ، العلاج التي صرفت لهم ... ويعتمد هذا التفسير على مدى الاعتراف بتأثير الأمراض العضوية على الانفعالات النفسية ، والتقديرات العقلية .. مثلاً .. التهاب الشرايين يؤدي عند حد معين إلى تأثير واضح على القوة العقلية .. ومثلاً .. مرض السكر إذا لم يعالج في وقت مناسب ، يصيب المريض بعجز في الجهاز العصبي المركزي ، يعقبه شعور بالعطش الدائم .. ترى هل أثر مرض سيد قطب عليه ؟ !

لا نريد التورط كثيراً في مثل هذه النظريات على صحتها .. لكن .. من المؤكد أن متاعب سيد قطب الصحية كان لها بعض الآثار النفسية عليه .. فقد كان يخشى البرد .. والرياح .. والرطوبة .. والزكام والزحام .. وفي كثير من الأحيان كان يجد نفسه أكثر بعداً عن الناس .. وفي بعض الأوقات كان إذا جلس إلى الآخرين يكون « غائب حاضراً » أو « حاضراً غائباً » على حد تعبير « سليمان فياض » بعد زيارة له ، كان فيها مريضاً .. لذلك فضل أن يعيش في « حلوان » .. وكانت في ذلك الوقت ضاحية شبه ريفية ، معزولة ، لا تغرى سكان القاهرة بالسكن فيها .. وحتى رحل عن الدنيا كان يفضل قضاء الصيف في « رأس البر » .

البيت الذي عاش فيه كان يملكه مأذون « حلوان » وقد اشتراه منه بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه هي كل ما كان يملك .. حديقة البيت واسعة ، تمتد مساحتها إلى نصف فدان ، وفيها كان يفضل قضاء الليل وحيداً ، أو مع بعض الشعراء والأصدقاء المقربين .. كما اختار أن تكون حجرة مكتبه بالقرب منها ، تطل نافذتها عليها .. وفيما بعد ، كان عدد من « الضباط الأحرار » يعقدون بعض اجتماعاتهم معه ، فيها ... وفي أرشيفه الخاص ، وجدت أسرته صوراً له مع بعضهم ، يتصدرها أحياناً « جمال عبد الناصر » .. ولا نستطيع بالقطع أن نتنبأ بمصير تلك الصور الآن ! ولا أحد يستطيع أيضاً !

(٢٩) عباس خضر - مجلة « الرسالة » - ٣ يوليو ١٩٥٠ .

(٣٠) سليمان فياض - المرجع السابق .

[٣]

لقد وجدت .. القرآن !

□ الإسلام من أجمل أبوابه □ إلى فتية لمحهم في خياله □
المنتج الأيديولوجي الوحيد للإخوان □ العدالة الاجتماعية
في الإسلام □ الرأسمالية ثم الشيوعية فالإسلام □ أمة
إسلامية لا عربية □ لا . لكتب الفقه القديمة □ صفحة
جديدة مع الاجتهاد □ أربعة احتمالات قبل الوصول إلى
المجتمع الإسلامي □ دكتور يوسف القرضاوى يرد □
الشريعة لا توجد إلا داخل الفقه □

« لقد وجدت القرآن » !

هكذا ...

هتف سيد قطب على طريقة أرشميدس الشهيرة .. « وجدتتها » .. « وجدتتها » .

وهكذا ...

بدأت مرحلة جديدة في حياته !

إن من المؤكد أن سيد قطب هو ابن مجتمعه وظروفه .. ومن المؤكد أن أفكاره وتحولاته (لا أقول تحوله) كانت انعكاسا لما حوله .. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها ، أو التجاوز عنها .. في سنوات العشرينيات والثلاثينيات كان المجتمع من حوله يعمج بالتيارات والدوامات والمعارك الأدبية .. فكان أن نزل الساحة يحمل سيف النقد وقلمه .. في تلك السنوات كانت أوروبا هي رمز « الحضارة » وكانت مصر تتلقف كل ما تصدره لها دون مناقشة .. وكأنها أرض عطشى لا تملك أن تتدلل في اختيار نوع الحياة .. فإذا جاء الإلحاد فهو ملحد .. وإذا كان الدين هو التخلف فهو غير متدين .. وإذا دعت أوروبا للعري .. فلنخلع كل ثيابنا في مصر ونستقبله .. ثم إنها سنوات الشباب ، الراضين باستعلاء لواقعهم ، الباحث باستمرار عن نموذج للخلاص من خارجه .. ثم إنه الاحتلال العسكري والاقتصادي والنفسى والفكرى .. نحاربه ونقلده .. نلعنه ونتطلع إليه .. نقاتله ونذوب في هواه .

في الأربعينيات .. بدأت المذاهب والعقائد تتبلور وتعبّر عن نفسها بوضوح ، وتمتد يدها - عبر المشاكل والهموم - عارضة على الناس حلولها وأساليبها في الإنقاذ .. محرضة على الثورة والتغيير .. فكان أن نزل الساحة كمفكر .. إن سنوات ما بعد الحرب العالمية الأخيرة (انتهت ١٩٤٥) شهدت غزوا ثقافيا مختلفا عن الطراز الأوربي .. وصلت « القاهرة » .. عبر بيروت - ترجمات « جوركي » و « تشيكوف » و « تولستوى » .. وأطلت روسيا براسها مؤكدة أن على الجانب الآخر من النهر تجربة اجتماعية مختلفة تستحق الانتباه .. وبدأت أمريكا غزوها الثقافي بأساليب أخطر وأقوى وأسهل ، وراحت تمول صحافة جديدة تبشر بالحلم الأمريكي - الذى ضاعفت أفلام « هوليوود » وزجاجات « المياه الغازية » واختراع « البلاستيك » والالبان

المجففة - من بريقه .. وعلى الجانب المصرى برز ناقد أدبى جديد هو الدكتور « محمد مندور » وهو يبشر بوظيفة الأدب والفنون فى التغيير الاجتماعى ، وعلى نفس الجانب بدا أن الإخوان والشيوعيين اتجاهاً لا ثالث لهما للمستقبل .. وبدأت التنظيمات الراديكالية أعلى صوتاً ، وأكثر قدرة على سحب « الشهيقي » وإطلاق « الزفير » من الأحزاب الليبرالية .. التى عجزت من شدة الترهل عن الحركة .

فى ذلك الوقت والمناخ نزل سيد قطب الساحة بنظريته الإسلامية !
نزل يواجه المذاهب المتفجرة حيوية .. والمستعدة للحركة ، بأفكاره عن العدالة الاجتماعية فى الإسلام .. والتى راحت تنمو ، وتنمو ، متأثرة بالظروف من حولها ، حتى انتهت بعد ١٠ سنوات تقريباً إلى تكفير المجتمع ، والدعوة إلى تخليصه من الجاهلية التى تحكمه !!
ولابد أنك - مثلى - يمكن أن تتساءل : ألم يكن من الممكن أن يتجاوز سيد قطب أفكاره الأخيرة لو تغيرت الظروف ؟ ... ألم يكن من الممكن أن يحدث تحول جديد فى فكره لو امتد به العمر ولم يمت مخنوقاً على المشنقة !! .. إن عنصر « الزمن » .. وامتداد « العمر » ، غير الكثير من المواقف والآراء لعدد كبير من الزعماء والمفكرين .. فلو لم يمتد العمر بونستون تشرشل ليخرج منتصراً فى الحرب العالمية الأخيرة ، لمات كقائد فاشل ، مهزوم ، منكسر ، بعد ما جرى له سنة ١٩١٧ .. ولو لم يمتد العمر بالمفكر الإسلامى « أبو الأعلى المودودى » ، الذى تأثر به سيد قطب فى سنواته الأخيرة ، لما عرفنا أنه تراجع عن كثير من أفكاره ومعتقداته .. بل .. لو تصورنا أن سيد قطب نفسه قد مات فى الثلاثينيات .. ألن يكون فى مثل هذه الحالة مثل أى ناقد آخر قال كلمته .. ومضى !!

□□

اكتشف سيد قطب الإسلام بمنظار النقد الأدبى .

لقد أخضع لهذا المنظار كل ما قرأه .. دواوين الشعر .. أدب الرحلات .. السير ودراسات الشخصية .. والتوراة .. وقد كان كناقذ وأديب ، يفتش دائماً عن « التصوير الفنى » ولا يعتقد بمتانة أسلوب يخلو من الصور والظلال الحسية .. فالتعبير الذى يلقى المعنى مجرداً يخاطب الذهن وحده وهو أقرب إلى العلوم .. وهذا مرفوض عنده .. لأن مكانه المعمل وكتب الهندسة والكيمياء .. و « التعبير الذى يرسم للمعنى صورة أو ظلاً يخاطب الحس والوجدان ، ويطبغ فى النفس صورة من صنع الخيال » وهذا هو الفن^(١) .

بحثاً عن الصور والظلال التى تخاطب الحس والوجدان ، أعاد قراءة القرآن .. لقد قرأ القرآن وهو طفل صغير لا ترقى مداركه إلى أفاق معانيه .. ولكنه كان يجد فى نفسه « منه شيئاً » على حد تعبيره^(٢) .. وكان خياله الساذج الصغير ، يجسم له بعض الصور من خلال تعبير القرآن .. « وإنها لصور ساذجة » ولكنها كانت تشوق نفسى وتلذضى فأظل فترة غير قصيرة أتملاها ، وأنا بها فرح ونشط » - كما أضاف^(٣) .

مرت أيام .. تلتها أيام .. وقرأ تفسير القرآن فى كتب التفسير .. لكنه لم يجد فيما قرأ أو سمع

(١) سيد قطب « كتب وشخصيات » - ص ٢٨ .

(٢) و (٣) سيد قطب - « التصوير الفنى فى القرآن » - الطبعة السادسة - ١٩٨٠ - دار الشروق - ص ٧ .

« ذلك القرآن اللذيذ ، الذي كان يجده في طفولته وصباه .. وكان ان قال : « واسفاه ! لقد طمست كل معالم الجمال فيه وخلص اللذة والتشويق » .. وكان ان عاد إلى القرآن يقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير .. وكان ان عاد ووجد « قرأني الجميل الحبيب ! وأجد صوري المشوقة اللذيذة . إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك . لقد تغير فهمي لها ، فعدت إليها الآن أجد مراميها وأغراضها ، وأعرف أنها مثل يضرب لا حادث يقع » .. ولكن « سحرها ما يزال . وجاذبيتها ماتزال » .. « الحمد لله .. لقد وجدت القرآن » ! ... هكذا أضاف بنفسه .
وهكذا ...

بدأت دراساته الإسلامية وتحولاته الإسلامية .

كان ذلك سنة ١٩٢٩ عندما نشر في مجلة « المقتطف » بحثاً بعنوان « التصوير الفني في القرآن » .. كشف فيه ما في القرآن « من جمال فني » ، وبين « القدرة القادرة التي تصور بالالفاظ المجردة ، ما تعجز عن تصويره الريشة الملونة ، والعدسة المشخصة » كما قال ... وأضاف في نهاية ما نشره في « المقتطف » : « إن هذا البحث يصلح أن يكون موضوعاً لرسالة جامعية » .. ومرت السنوات ، وصور القرآن تخايل له ، فكان يعود إلى المصحف بين الحين ، والحين حتى انتهى من الكتاب الذي يحمل نفس عنوان البحث ، وأهداه إلى أمه ، ونشره سنة ١٩٤٥ ، مع كتاب آخر يخضع لنفس الرؤية ، هو « مشاهد القيامة في القرآن » .

مما لا شك فيه أن من يقرأ القرآن بحثاً عن صورته وظلاله الفنية لا بد الا يكتفى بالسباحة بالقرب من الشاطئ .. ولا بد أن يحفظه .. ويتشربه .. ويتأمله .. ويعرف معاني آياته وكلماته .. وسحره .. وإعجازه .. ولا بد أن يقترب من حكمته .. وتفسيره .. ولا بد في النهاية أن يخضع لسلطان القرآن .. وقد حدث هذا بالضبط معه .. إن سحر القرآن القاهر قد أخضع عمر بن الخطاب وجعله يسلم بالإسلام .. كذلك فعل هذا السحر بسيد قطب ، فجاء به من الشك إلى الدين .. وكانت نهاية هذا البحث بداية جديدة له .. بداية قال عنها : « وجدتني أشهد في نفسي مولد القرآن من جديد . لقد وجدته كما لم أعده من قبل أبداً . لقد كان القرآن جميلاً في نفسي .. نعم . ولكن جماله كان أجزاءً وتفاريق . أما اليوم فهو عندي جملة موحدة ، تقوم على قاعدة خالصة ، قاعدة فيها التناسق العجيب ، ما لم أكن أحلم من قبل به ، وما لا أظن أحداً تصوره » !

□□

عاد سيد قطب إلى الإسلام من أوسع أبوابه !

وكان أن راحت باقي الأبواب تفتح أمامه من تلقاء نفسها !

إن فهمه للقرآن تخطى الآن حد الصور والظلال ، تخطى هدفه الأدبي والبلاغي إلى ما هو مختلف عن هذا الهدف .. تخطاه إلى الواقع الاجتماعي والاقتصادي ، المزروع - في تلك الفترة - بأشجار مذهبية وعقائدية مختلفة ، على وشك أن تثمر .. فكان أن وجد نفسه ينظر إليها على أنها أعمدة خرسانية ، لا روح فيها ولا نبض ، ثم راح يحطمها بما توصل إليه .. وصاغه في أول دراساته الإسلامية ، الاجتماعية ، والاقتصادية ، والتي صدرت في كتابه الشهير « العدالة

الاجتماعية في الإسلام ، .. صدر الكتاب سنة ١٩٤٩ (عن دار المعارف) .. وهذا يعنى أنه كتبه بعد ٤ سنوات من نشره التصوير الفنى في القرآن ، ، وهذا يعنى أيضاً ، أن انتقاله من البلاغة (الدينية) إلى النظرية الإسلامية لم يستغرق وقتاً طويلاً .. وخلال هذا الوقت يمكن أن نقول إنه تحول من كاتب إلى مفكر !

كان إهداء الكتاب : « إلى الفتية الذين المحم في خيالى قادمين يردون هذا الدين جديدا كما بدا ، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم » .

فهم البعض أنه يقصد بهؤلاء الفتية « شباب » الإخوان المسلمين .. وفهم شباب الإخوان المسلمين ذلك أيضاً .. فهموا أنهم المعنيون بالإهداء .. ولم يكن الأمر كذلك ، كما اعترف سيد قطب بنفسه فيما بعد في الإقرار الذى كتبه بخط يده في قضية ١٩٦٥ .

وقد أضاف سيد قطب : إن الإخوان المسلمين اعتبروه صديقا ، « وبدأوا يهتمون بأمره » .. ولما سافر أمريكا (١٩٤٨) وعاد (١٩٥٠) بدأ بعض شبابهم يزورونه ، ويتحدثون معه عن الكتاب .. وبدأت علاقة قوية بينه وبين الجماعة .

وهناك شبه إجماع بين المفكرين المعاصرين (حتى الذين يختلفون تماما معه) على أن الكتاب كان المرة الأولى التى يتجرب فيها كاتب . مثقف . مسلم ، ويطرح نظرية إسلامية ، اجتماعية جديدة ، تأخذ في الاعتبار ظروف العصر بما فيه ، ويقارن بين الإسلام والمذاهب الوضعية المعروفة من الرأسمالية إلى الشيوعية ... لذلك لقي الكتاب رواجاً هائلاً .. وأعيد طبعه على فترات قصيرة متلاحقة .. واعترف بعض « الضباط الأحرار » أنه « كان من الكتب الهامة التى حرصوا على قراءتها قبل الثورة »^(٤) ... وفيما بعد ، اعتبر الدكتور « سمير أمين » سيد قطب بعد هذا الكتاب « المنتج الأيدلوجى » الوحيد للإخوان المسلمين ، .. لأن الكتاب كان « بمثابة نظرية عامة سبقت إعادة ظهور التيار السلفى في عهدنا »^(٥) .. فلا أحد من منظري السلفية الذين نقرأ لهم الآن زاد شيئاً عما قدمه سيد قطب « هذا المفكر الباكر »^(٦) .. إن كل مصادر السلفية في أيامنا .. الكتب .. المجلات .. الندوات .. المنشورات .. برامج التليفزيون الدينية .. خطب آيات الله في إيران .. لا تزيد على ما قال .. كلها صورة أخرى مما هو موجود « في كتاب الأستاذ » .

الكتاب ينقسم إلى نصفين : نصف يعالج مشاكل تاريخ الإسلام والغرب .. وهو نصف لم يتوقف عنده أحد كثيراً .. ونصف يعالج مفهوم الإسلام للعدالة والسلطة ، وهو النصف الذى بقى إلى الآن .. والذى سنقترب منه قدر الإمكان .. إن سر نجاح النموذج الإسلامى - في رؤية - « تحرير الإنسان » .. تحريره من الخوف ، لأن ليس لمخلوق على مخلوق سلطان .. فهذا السلطان لله وحده .. وليس بين الإنسان والله توسط .. ولا إمام .. والسلطة لذلك للامة لا للحاكم .. فالحاكم لا يبتكر من عنده القوانين ، فهى مفروضة من الله .. وتحكم كافة جوانب الحياة اليومية .. العائلة . الزواج . النسل . الوراثة . السلطة . الضرائب . الملكية . العقود . والحريات العامة والخاصة .. ولو كانت القوانين الإلهية « الشريعة » تتطلب التفسير والتكييف ..

(٤) د . الطاهر مكي - مرجع سابق .

(٥) و (٦) د . سمير أمين - « أزمة المجتمع العربى » - دار المستقبل - ١٩٨٥ - ص ٩٢ وما بعدها .

فهذه مهمة الحكومة الإسلامية .. « ولكن ، بما أن المبادئ معلنه ، فإن مسئولية الحكومة تكون إدارتها فقط . »

هذه النظرة ترفض الفصل بين الدين والدولة .. والإسلام - كما يقول - « ليس عقيدة وإيماناً فقط بل أيضاً نظام اجتماعي » .. وبما أن الشريعة موجودة ، فقاعدة الحكم المطلوبة بسيطة « جداً » .. « حكومة عادلة ومحكومون مطيعون » .. لكن هذه القاعدة الأولية على بساطتها لم تطبق في تاريخ القرون الأربعة عشر للشعوب الإسلامية إلا ٣٠ سنة .. فترة حكم الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والشهور القليلة التي حكم فيها الحسن بن علي رضي الله عنه قبل أن يتنازل عن الحكم لبنى أمية حقناً لدماء المسلمين .. فبعد تلك السنوات ، يقول سيد قطب ، « بدأ الانحراف عن سنة الإسلام الرفيعة » .. ولعل السبب - في رأيه - كان « سرعة إسلام شعوب المنطقة » التي أدت إلى « عدم جدية إسلامهم » إذ أنهم لم يتحرروا من بقايا عقائدهم السابقة . »

وإذا كان الإسلام - مثل أي واقع اجتماعي - عنصر توحيد ، فإن « اختيار القومية » بعناصرها المختلفة (اللغة والثقافة) واقع اجتماعي أيضاً .. وعنصر من عناصر التوحيد رغم الاختلافات الدينية .. لكن سيد قطب يقبل الواقع الأول ويرفض الواقع الثاني .. فيتحدث عن « الأمة » الإسلامية .. ولا يهتم بغيرها .. وينكر « الأمة » العربية (وإن كانت إسلامية أيضاً) ويثور ضد كاتب إسلامي ليبرالي مثل د . محمد حسين هيكل ، لأنه يهتم بدراسة واقع الدول العربية ، التي لا يعترف بها سيد قطب .

وأغلب الظن أن الذين يرفضون القومية العربية الآن ، ويصرّون على استبدالها بالأمة الإسلامية ، قد استمدوا حماسهم من غضبة سيد قطب وانفعالاته في تلك القضية التي أثرت مع العصر الاستعماري للمنطقة في بداية القرن الماضي : ثم خمدت .. حتى نفخ فيها من جديد سيد قطب .

كما أنه كان عنصر جذب قوى للحرفيين الإسلاميين ، الذين يعتبرون القرآن والسنة المصدر الوحيد الممكن التعامل معه .. إنهم لا يقبلون التعامل مع واسطة كتب الفقه ، ويعتبرون مجادلات الفلسفة الإسلامية إنكاراً للدين .. وهذا الاعتقاد امتداد لما قاله سيد قطب ، الذي اعتبر « التفكير ، مكروهاً .. والإصلاح الديني ، وتحديث الأزهر انحرافاً بالإسلام !! » لكن ..

إذا كان هذا مثار خلاف بين سيد قطب ومن تبعه ، وفصائل أخرى من الإسلاميين (داخل الإخوان وخارجهم) فإن هناك اتفاقاً بينهم .. أوبين أغلبهم وسيد قطب في أن المساواة في الإسلام تشمل المساواة بين الجنسين ، كما تشمل الشعوب من الذميين ، وحتى عابدي الأصنام ، الذين تحالفت الأمة الإسلامية معهم .. كذلك ما قاله سيد قطب عن سبب خفض نصيب المرأة من الإرث إلى نصف نصيب الرجل (السبب أن الرجل عليه أعباء العائلة المادية) فهذا معروف ولا خلاف عليه ، مثله مثل تفسيره لضعف شهادة المرأة (المرأة عاطفية وشهادتها ليست قوية مثلاً : شهادة

الرجل) .. ومثل قوله عن احترام الإسلام للملكية الفردية (التي يعتبرها شرطاً من شروط الطبيعة الإنسانية) .. ومع استدراكه بأن احترام مصالح الأمة يتطلب استعمالاً غير مفرط للملكية ، مع ضرورة وجود ملكية عامة (النار والماء والكلأ) .. ومنع الاحتكار (أي ضرورة تداول الثروة) .. وتنظيم الأجر (لأن العمل هو المصدر الرئيسي للملكية) .. وتنظيم مالية الدولة (الزكاة والجزية) .

ولأن هذه المبادئ عامة .. ويكاد يكون متفقاً عليها .. فإن سيد قطب حولها إلى برنامج إصلاحى ، بدأ مناسباً لظروف مصر في سنة ١٩٤٩ :

١ - إعادة توزيع الملكية .. أى الإصلاح الزراعى .

٢ - تأمين الخدمات العامة .. وإن لم يحددها .

٣ - وضع حد أدنى للأجور .

لا شك أن سيد قطب كان صادقاً ومخلصاً وهو يقدم برنامجاً .. لكن .. ترجمته - على هذا النحو - من المفاهيم الإسلامية إلى المفاهيم الاجتماعية .. جعل البرنامج لا يختلف كثيراً عن برامج ومطالب تيارات وأحزاب سياسية أخرى .. غير إسلامية .. فالوفد ، والأحرار الدستوريون ، والسعديون ، طالبوا بالأخذ بأسلوب « الضرائب التصاعدية » .. لتحقيق العدالة الاجتماعية .. والإخوان المسلمون والحزب الاشتراكي ، وحزب الفلاح ، طالبوا بتحديد الملكية .. لتحقيق العدالة الاجتماعية .. بل إننا سنجد الكتاب المحافظين قد طالبوا أيضاً بتحديد الملكية .. وذلك حتى لا تقوم ثورة تعصف بكل شيء .. فمصطفى أمين مثلاً كتب في « أخبار اليوم » يوم ٢٠ يونيو ١٩٤٥ ، يطالب بالاستقلال الاجتماعى ، ويهيب بالأغنياء « أن يعرفوا أن العالم اتجه اليوم إلى العدالة الاجتماعية » .. وأنه « خير لنا أن نعقد معاهدة شريفة بين الذين يملكون كل شيء ، والذين لا يملكون شيئاً ، بدلاً من أن نترك الريح تعصف بأولئك الذين يفضلون أن يفقدوا كل شيء على أن يعطوا المحروم جزءاً من كل شيء » ..

إن تعبيرات « العدالة الاجتماعية » .. و « تحديد الملكية » .. و « إعادة توزيع جزء من الثروة » ، كانت في ذلك الوقت تعبيرات شائعة في الشارع المصرى .. أعطاهما كل مذهب أو تيار ثوبه الخاص .. وكان أن فعل سيد قطب نفس الشيء ووضع على ظهرها العبادة .. وفي يدها المسبحة .. ولا يقلل هذا بالطبع من تفسيراته واجتهاداته .. ولا يقلل من مستوى حماسه ووعيه الاجتماعى .. إذ أنه - فيما بعد - بعد أن اكتشف أن « الباشوات » .. أصحاب « الكروش » يتحدثون بأنفسهم عن « العدالة الاجتماعية » سخر منهم ، وراح يحاول فضحهم .. فقال : « وهم يتحدثون بين الحين والحين عن .. العدالة الاجتماعية ! أى والله عن العدالة الاجتماعية .. وعن الطبقات المحرومة ، وعن ضرورة تحسين الأحوال . وكثيرهم « الباشوات » الذين يطلقون للعدالة الاجتماعية البخور في هذه الأيام ، إذ كان ذلك الطف مخدر للجماهير الكادحة ، يهدى أعصابها ، ويسيل لعابها ، ويمنيها بالعدل الاجتماعى الذى لا تكافح من أجله وحدها . بل يكافح معها « الباشوات » العظام ! فما عليها إلا أن تستريح ، وتستبشر ، وتنام ! ولكن شيئاً من ذلك كله

لن يجدى فتىلا ، فالطبيعة والحياة والدين والحضارة الإنسانية والاقتصاد والعقل ضدها جميعا إنما هي تعلات فارغة ، ذاهبة مع الريح والهواء ، (٧) .

في تلك الفترة أيضاً ، بدا أن الولايات المتحدة الأمريكية من المعجبين بنفمة « العدالة الاجتماعية » .. إنها استعدت لأن تراث الامبراطوريات الاستعمارية القديمة (النفط . حماية إسرائيل . مواجهة الشيوعية) ولا يمكن أن تعد بصرها ويدها إلى مصر .. ولأن مصر كانت تغلى بالثورة .. ولأن الفقر كان الوقود الذي يغذيها ، فإنه من الممكن أن يقود الثورة .. الشيوعيون .. وتصبغ مصر باللون الأحمر .. إذن لابد من إجراءات إصلاحية .. تجمل صورة الظلم الاجتماعي .. وتهديء من غضبة الجوع .. وتشطب على هذه الثورة المتوقعة .. وكان أن ساهم الأمريكان في العزف على نفمة الإصلاح الزراعي ، والعدالة الاجتماعية .. والضرائب التصاعدية ، وانضموا إلى « جوقه » العازفين .. فاختلط الحابل بالنابل !! ولم يعد أحد يميز بين صوت الباشوات ، وصوت الأمريكان ، ولا بين صوت الإخوان المسلمين ، وصوت سيد قطب !! على أن ما قاله سيد قطب في « العدالة الاجتماعية في الإسلام » لم يمت ، رغم « الشوشرة » عليه ، و « تشويش » ظروف تلك الأيام .. فقد بقي الكتاب بمثابة « دستور » للسلفية الإسلامية « الهادئة » - إذا جاز التعبير - والتي نشطت فيما بعد .. وإذا كان سيد قطب - فيما بعد أيضاً - قد رفض هذا الدستور ... وتجاوزه .. بكتاب « معالم في الطريق » الذي أصبح هو الآخر دستوراً للسلفية الراديكالية - فإن هناك من بقي محتفظاً به .. مهتدياً بمصاييح أفكاره .. مكرراً نفس عباراته .

□□

كان هذا الكتاب بداية مرحلة انتفاضة على المذاهب الوضعية .. وكان بمثابة تمهيد الطريق « نحو مجتمع إسلامي » (٨) يكون فيه « المستقبل لهذا الدين » (٩) ... لقد حدد في الكتاب أصول النظرية الاجتماعية في الإسلام .. ثم . كان عليه من باب التدليل والترويج أن يثبت أنها أفضل من غيرها .. وذلك بفضح عورات غيرها ... ثم . كان عليه أن يحدد كيف يمكن أن نطبقها ؟ .. وكيف يمكن أن نبعثها من جديد بعد كل هذه القرون !؟ .

بدا الهجوم بمقولة الفيلسوف البريطاني « برتراند راسل » الشهيرة ، التي تنبأ فيها بنهاية عصر الرجل الأبيض لأن حضارته قد استنفدت أغراضها . ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من مبادئ ، وأفكار ، تسمح للحياة بنمو جديد ، وازدهار جديد ؛ وكل حضارة إنما تعيش بمقدار ما تملك أن تعطى البشرية من رصيد في إدراك الحياة ، وبمقدار ما يسمح هذا الرصيد للحياة بالامتداد والنمو والرقى .

و « لقد انتهت الحضارة الأوربية الأمريكية إلى أن تقصر همها على نتاج المصانع أما في حقل

(٧) سيد قطب « معركة الإسلام والراسمالية » - الطبعة الثامنة - دار الشروق - ١٩٨٧ - ص ٢٣ .

(٨) اسم كتاب لسيد قطب - نشرت طبعته الثالثة (١٩٧٨) دار الشروق .

(٩) اسم كتاب لسيد قطب - نشر طبعته السادسة (١٩٨٦) الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية .

الراسمالية ستنتهى مع نهاية القرن العشرين .. الذى لن يكتمل إلا وتكون الشيوعية قد سيطرت على عالم الحضارة الغربية بما فى ذلك أمريكا ... أما أقصى مدى تصويره للمد الشيوعى فكان لا يتجاوز جيله وأوائل الجيل الذى يليه .. وعلى ما يبدو .. لم يكن ما جرى فى العالم .. مؤيدا لتقديراته !

□□

كيف نصل إلى المجتمع الإسلامى ؟!
كيف نستوحى الإسلام ؟! (١٧) .

فى تلك المرحلة ، فرق سيد قطب بين الشريعة والفقه .. الشريعة من صنع الله ، ومصدرها القرآن والسنة .. والفقه من صنع البشر استمدوه من فهمهم وتفسيرهم للشريعة .. الشريعة ثابتة والفقه متغير .. لا بد من التمسك بالشريعة ، ويمكن التجاوز عن الفقه .
هذه حقيقة .

الحقيقة الأخرى التى يقدمها قبل الدخول فى التفاصيل .. « أن الصور التاريخية للمجتمع الإسلامى ليست الصور النهائية لهذا المجتمع ؛ بل هنالك صور متجددة أبدا ، .. فالحياة متغيرة .. تندفع إلى الأمام .. تتجدد حاجاتها .. تتغير علاقات الناس فيها .. كذلك وسائل العمل وطرق الإنتاج .. تبرز للوجود أوضاعا جديدة .. مشاعر جديدة .. وأهدافا جديدة .. فكيف إذن يمكن لفكرة ثابتة أن تواجه حاجات وأحوالاً متجددة ؟ وكيف يمكن لهذه الحاجات والأحوال أن تتحرك وتنمو فى ظل فكرة ثابتة ؟ ! » .

سؤال وجيه .. حيوى .. لا يزال مطروحا حتى الآن !

يقول : إن الشريعة جاءت فى صورة مبادئ كلية ، وقواعد عامة ، يمكن أن تنبثق منها عشرات الصور الاجتماعية الحية .. ولا تعارض بينها وبين التطور الدائم ، .. وحتى نأخذ من المبادئ العامة ونرسم الصور الاجتماعية الحية لا بد من الفقه .. فتشريعات الفقه كانت تلبية لحاجات زمنها .. وأى نقل منها من زمن لفرضها على زمن آخر ليس من شرع الله ولا من عمل رسول الله ﷺ ، .. فهى لا تصلح إلا للاسترشاد والاستشهاد بها فى الحالات المشابهة التى تشهدها الأجيال المتجددة .. ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق ؛ لأنه مجرد رأى بشرى فى شريعة الله ، ليس جزءاً من الشريعة الثابتة الصادرة من الله ، ... هذا فيما يتعلق بالشريعة والفقه .. « أما فيما يتعلق بالمجتمع وأطواره .. فإن الصورة التاريخية للمجتمع الإسلامى ، لا تحدد ولا تستوعب كل الصور الممكنة للمجتمع الإسلامى ، ولكل جيل أن يبدع نظمه الاجتماعية فى حدود المبادئ الإسلامية ، وأن يلبي حاجات زمانه باجتهادات فقهية قائمة على الأصول الكلية للشريعة ، .

ويضيف : وفيما يختص بالتطبيقات التى يحتاج إليها المجتمع لمسايرة الحاجات الزمنية المتجددة ، لا يخرج الأمر عن أربعة احتمالات :

(١٧) إجابة سيد قطب على السؤال . كما عرضناها مصدرها المرجع السابق ص ٤٦ - ٦١ .

المبادئ فإنها ظلت تجتر مبادئ الثورة الفرنسية (الحرية ، الإخاء ، المساواة) التي فقدت مدلولاتها^(١٠) . فالحرية الشخصية تحولت إلى حرية استغلال رأس المال للطبقات العاملة .. أو تحولت إلى حرية « الشهوة الغريزية » .. والإخاء في الإنسانية تحول - بفضل الاستعمار الأوربي - إلى استنزاف للشعوب المقهورة ، المغلوبة على أمرها .. والمساواة القانونية لا يمكن تحقيقها « في عالم مادي حين تختل الموازين الاقتصادية ، وحين ينقسم الناس إلى ملاك ورأسماليين في جانب ، وعمال ضعفاء في جانب آخر »^(١١) .

ومن هنا برزت - في رأيه - الفكرة الشيوعية ... « لأنها تحتل في عالم المبادئ مساحة أوسع من المساحة التي انتهت إليها مبادئ الثورة الفرنسية في العالم الغربي »^(١٢) .. « إن الشيوعية هي النهاية الطبيعية لحضارة خالية من الروح ، خاوية من المثل ، مجردة من الأحلام »^(١٣) .. و « الإنسان الغربي يجد اليوم في الشيوعية من غذاء الروح ما لا يجده في مخلفات حضارة استنفدت أغراضها »^(١٤) .. لكن ما إن « يتم الخلاص من قبضة الرأسمالية الاستعمارية » حتى تجد الشيوعية نفسها في ورطة هي الأخرى .. إذ أن الإنسان بعد أن يسد « جوعة الجسد » سيجد نفسه في حاجة إلى هدف إنساني أكبر من الملمات ، وإلى صلة بالكون أشمل من البيئة ، وإلى عقيدة في قوة أكبر من البشرية ، إلى مستقبل دائم النمو لا يقف عند حد محدود^(١٥) ومن هنا لا بد أن يأتي دور الإسلام ، الذي لا يشك سيد قطب في « أن قيادة البشرية صائرة إليه ، لأنه لو لم يكن موجود البحث عنه الإنسانية ولا بدعت نظاما يشبهه بعد انحسار الموجتين السابقتين اللتين كانتا على طرفي نقيض »^(١٦) . ويحتاج هذا التحليل المكتوب بصياغة تبدو جازمة ، إلى كثير من الجدل والنقاش .. على الأقل في خلطه بين النظريات والتطبيق .. وفي تجاهله لإمكانات التأثيرين النماذج التي أشار إليها ، بحكم أشياء كثيرة لم يضعها في حساباته ، مثل ثورة المواصلات ، وتكنولوجيا التليفزيون ، واختلاط المذاهب .. إلخ .. لكن .. هذا الحوار لا نعتقد أننا في حاجة إليه الآن !!

باختصار ... يمكن تصور نظريته في تطور المذاهب - في تلك المرحلة الذهنية من حياته - على أن أزمة الرأسمالية المادية والحضارية ستحل بالشيوعية .. التي سترضى البشرية ماديا ، لكنها ستعجز عن ذلك معنويا .. فتكون أزمته هي الأخرى التي لن تحل إلا بالإسلام .. ولا تخلو النظرية من أسلوب تفكير جدلي (دياكتيكي) مع الوصول إلى محطة أبعد (الإسلام) أبعد من التي وصل إليها الماديون (الشيوعية) !!

ويبدو سيد قطب متأكدا من نظريته إلى الحد الذي يحدد برنامجا زمنيا لمراحلها .. فهو يرى أن

(١٠) سيد قطب « نحو مجتمع إسلامي » - ص ٢١ - ٢٢ .

(١١) المرجع السابق - ص ٢٠ .

(١٢) المرجع السابق - ص ٢٢ .

(١٣) المرجع السابق - ص ٢٥ .

(١٤) المرجع السابق - ص ٢٥ .

(١٥) المرجع السابق - ص ٢٩ .

(١٦) المرجع السابق - ص ٢٣ .

١ - أن تكون الشريعة قد نصت على حكم معين نصا صريحا فهو إذن واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل ، لأنه في هذه الحالة إما أن يكون متعلقا بركن أساسي من أركان المجتمع الإسلامي التي أريد لها الدوام ، وإما أن يكون متعلقا بسمة أساسية من سمات هذا المجتمع أريد تثبيتها والمحافظة عليها للمحافظة على هدف دائم في كل زمان ومكان .

٢ - أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص أو نصوص قابلة للتأويل فيكون حينئذ قابلا للاجتهاد ترجيحا ، أو توفيقا بين النصوص المختلفة إن كانت ، أو بين النص الواحد ، والحالة المراد تطبيقها عليها ، وذلك مع الاسترشاد بالتطبيقات العملية في صدر الإسلام إن وجدت ، والاستعانة بأقوال الفقهاء ، ولكن دون التزام كامل بتلك الأقوال التي لم تكن إلا تلبية مباشرة لحاجات العصر الموقوتة .

٣ - أن تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام ، تدخل هذه المسألة الخاصة فيه ضمنا ، ولكنه لا ينص عليها صراحة ، وعندئذ يكون الأمر موضع اجتهاد في تطبيق المبدأ العام على الجزئية المعروضة مع الاسترشاد بالسوابق التاريخية ، والأحكام الفقهية .. مجرد استرشاد .

٤ - أن تكون الشريعة قد سكنت عن هذا الأمر ، فهو متروك إذن للاجتهاد المطلق ، على ألا يصدم الحكم الذي يصل إليه ، مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية ، ولا أصلا من أصوله التشريعية .

إن هذا - في رأيه - يحفظ للفكر الإسلامي « مرونته » .. وللنظام الإسلامي « تجده » .. ويخلص المسلمين كذلك من التعقيدات الفقهية التي جاءت في العصور المتأخرة ، والتي تشيع اليأس في رواد الشريعة الإسلامية عن طريق هذا الفقه المعقد ، لأنهم يحسبون أصلا من أصول الشريعة لا تتاح لإنسان معرفة الإسلام إلا بدراسته .

ثم ... « لقد استمر نمو الفقه الإسلامي ، وتطوره إلى نحو القرن الثامن بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .. وكان في نموه وتطوره متابعا لنمو المجتمع الإسلامي وتطوره كذلك . وملبيا لحاجاته المتجددة بسبب بروز تلك الحاجات ، .. ثم توقف أو كاد في شق المعاملات .. وإن كان تضخم في شق العبادات .. لقد ركز الفقه تبعاً لركود المجتمع الإسلامي ذاته ، « بحيث لم يعد يجد فيه من التغيرات والحاجات ما يستدعي اجتهادا فقهيا ذا بال .. حتى إذا قفزت الحياة قفزاتها الواسعة في القرون الثلاثة الأخيرة ، وتجدد المجتمع الإسلامي طفرة ، لم يكن الفقه الإسلامي على استعداد لمسايرة الحياة المتوثبة ، وبذلك وجدت فجوة تاريخية ضخمة في تسلسل هذا الفقه ومسايرته للحياة الجديدة وحاجاتها التي تضاعفت أضعافا كثيرة » .

ماذا نفعل إذن ؟

يرد : أمامنا طريقان اثنان :

١ - أن نتابع خطوات الفقه الإسلامي من حيث وقفت لكي نستجد من البحوث ما يملأ هذه الفجوة الواسعة العميقة ، ولكي تكون هذه التنمية طبيعية لا مصطنعة ، فإنه يجب أن نتتبع

الأحوال الاجتماعية ، والحاجات اليومية ، التي برزت ، وتسلسلت في خلال القرون الثلاثة الأخيرة .. وهذا أمر صعب .. لا نأمن الزلل فيه .. كما أن المحاولة ستكون اصطناعية .

٢ - أن نرجع مباشرة إلى الشريعة الإسلامية ، إلى مبادئها العامة ، وتشريعاتها الكلية ، نستلهمها حلولاً تطبيقية لمشكلاتنا العصرية ، كما فعل من قبلنا من فقهاء الإسلام حينما دعيتهم حاجات زمانهم إلى استلهم تلك الشريعة . مسترشدين مع هذا بطريقتهم في التطبيق . ومستعينين بما وصلوا إليه من أحكام .
وكان ...

الطريق الثاني في رايه ونظره .. هو « الطريق المعقول » .. إن لم يكن « هو الطريق الوحيد » !
وكان .. أن فتح باب الحوار حول ما استقر عليه .. لأنه « على وشك أن يجعل هذا الرأي هو قاعدته في تصور المجتمع الإسلامي الحديث » .. ولم يغير الحوار من رايه !!

وكان أن رفض عدد من علماء الأزهر ما انتهى إليه من رفض الفقه الإسلامي الذي كان .. واعتبروا السبب صعوبة تلك الكتب « المعقدة » عليه .. كما أنهم أضافوا أن ثقافته وطبيعته لم تفرض عليه الصمود حتى تلين له تلك الكتب .

ولا يزال هذا النقد يوجه إليه إلى الآن !

فبعد أكثر من عشرين سنة على رحيله ، قال الشيخ - الدكتور يوسف القرضاوي :

« إنني أحسب الشهيد سيد قطب - رحمه الله - لو أتيح له دراسة الفقه الإسلامي ، والعيش في كتبه ومراجعته زمنًا ، لغير رايه هذا ، فقد كان - فيما أعلم - رجاءاً إلى الحق ، ولكن تخصصه ولون ثقافته لم يتيح له هذه الفرصة ، وبخاصة أن مراجع الفقه بطريقتها وأسلوبها لا تلائم ذوقه الفني الرفيع - وقد حدثنا الشهيد عبد القادر عودة^(١٨) عما عاناه (عودة لا قطب) في فهم الكتب الفقهية حتى أن له جانبها ، وسكن له قيادها ،^(١٩) .
ثم إنه أضاف :

١ - لو أهملنا الفقه لأنه فقه ، لترتب على ذلك إهمال ما نسميه « الشريعة » نفسها لأنها لا توجد إلا داخله .

٢ - النظريات والفروع والمسائل والصور والشروح والتعليقات التي قام الفقهاء بتقديمها - على توالي العصور - ليست شيئاً هيئاً يتصور الاستغناء عنه بسهولة .

٣ - كما أنها ليست كلها مما فصل على قد زمن معين وبيئة معينة ولم يعد يصلح لعصرنا ، فمعظم هذه الثروة الفقهية الضخمة صالحة للتطبيق في زماننا وبيئتنا والقليل منها هو الذي كان نتيجة بيئته وعصره .

(١٨) من زعماء الإخوان المسلمين الذين أعدموا بعد حادث « المنشية » ، - ١٩٥٤ .

(١٩) الشيخ د . يوسف القرضاوي - ملاحظات وتعقيبات على آراء الشهيد سيد قطب - جريدة « الشعب » ، - ١٨ نوفمبر ١٩٨٦ - ص ٦ .

لم ينته حتى الآن الجدل الذى أثاره سيد قطب هنا ..
ثم كان أن اُضيف له جدلا أكبر .. حول الجاهلية التى يعيش فيها المسلمون الآن .
وهكذا .. راحت الانفجارات تتوالى !

[٤]

أمريكا .. القى رأيت !

□ في حمى المسليح والعمائم □ إلى أمريكا لماذا ؟ □
دكتوراة في غسل الاطباق □ مس فيور ، الصديقة
الحسنة □ الباشوات والكروش □ الثراء المادي والفقر
الروحي □ الموت يثير السخرية □ عضوية نوادي
الكنائس □ ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج ، □
موسيقى الزنوج □ في السينما □ قهوة بالملح ولحمة
بالسكر □ ، لقد ولدت من جديد عام ١٩٥١ ، □

نحن الآن في سنة ١٩٤٨ .

إن تلك السنة من السنوات « الانقلابية » الحادة في تاريخ العرب ... وفي حياة سيد قطب أيضا !

في تلك السنة ، وقعت « نكبة » فلسطين .. وتحولت إسرائيل من « عصابة » إلى « دولة » ، راحت ترنوبمطامعها نحو التوسع ، وراحت تمد أنيابها وترشق أظافرها في عنق من حولها .. وكان أن ضمنت وجودها وشراستها وشراستها الولايات المتحدة الأمريكية ، التي أضافت هذا « الضمان » لباقي أهدافها الحيوية ، التي سعت لتحقيقها في « الشرق الأوسط » وهي تزيج إمبراطوريات « الاستعمار القديم » لتحل محلها .

ولابد أن السيطرة على أبار « النفط » كانت على رأس أهدافها .. لذلك ليست صدفة أن تتمكن « الشركات الأمريكية » بدعم من الحكومة ، من كسر طوق الإحتكار البريطاني للنفط الشرق أوسطى الذي بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، .. وأن تتحقق هذه الخطوة « الجبارة » سنة ١٩٤٨^(١) .. ولابد أن الحرب الباردة ضد « الشيوعية » كانت هدفا على جانب كبير من الأهمية .. لذلك ليست صدفة أن يعترف رجل « المخابرات المركزية » الذي كانت المنطقة - في ذلك الوقت - جزءا من مسئوليته « ويلبركرين ايفلاند » في كتابه « حبال من رمال » .. أن الأمريكان استثمروا فهم الشيوعية على أنها نقيض للإسلام في مواجهة المد الشيوعي .. ويضيف : إن هذا الفهم الذي توصل إليه العرب « بسبب قلة اطلاعهم عليها » .. يقصد على الشيوعية ، كان فرصة ذهبية لتحريك المنطقة في الاتجاه الأمريكي .. وللإقتراب من التنظيمات الدينية بحذر ، لأنها إذا ما بدأت بالحرب على الشيوعية ، فإنها ستمد الحرب في النهاية إلى الرأسمالية أيضا .. وكان « هذا المناخ هو الذي سمح لبعض رجال الدين بأن يصدرُوا فتاوى لصالح شركات أمريكية عملاقة ، بدأت تدخل إلى السوق المصرية وأرادت أن تفتح الطريق لمنتجاتها في حمى المسابح والعمائم »^(٢) .

(١) ويلبركرين ايفلاند - « حبال من رمال » ترجمة علي حداد - دار المروج - بيروت

(٢) محمد حسنين هيكل « ملفات السويس » مؤسسة « الأهرام » ١٩٨٦ - ص ٧٢ .

السنة ، حلت جماعة الإخوان المسلمين ... وعاش أعضاؤها وزعمائها ماسمى بالحنة
.. وى .. إن الحكومة اتهمت الجماعة أنها كانت وراء أحداث العنف التى جرت وقتها .. وتجرا
« النقراشى » باشا على إصدار قرار الحل .. وفتحت المعتقلات لطوابير من الإخوان .. وقبل أن
تنتهى السنة بأيام اغتيل « النقراشى » برصاصات شاب من الجماعة هو عبد المجيد أحمد
حسن !

وفى تلك السنة أيضا .. سافر سيد قطب فى بعثة مفتوحة إلى أمريكا !

□□

كان سيد قطب وقتها فى « ديوان » وزارة المعارف .. وكان قد قدم كثيراً من البحوث والمقترحات
لإصلاح نظام التعليم ، لعدد من الوزراء من بينهم نجيب الهلالي ، وطه حسين .. لكن .. مصيرها
دائماً كان الإهمال ... فكان مثيراً للدهشة والاستغراب أن يقبلوا سفره فى بعثة إلى أمريكا ،
لدراسة أصول التربية والمناهج .. وقد كانت البعثة مفتوحة .. أى زيارات .. ولقاءات ، بطول
البلاد وعرضها .. لا مجرد دراسة معينة فى مكان محدد ، لمدة محددة ، كما هو الحال فى البعثات
العلمية التقليدية فى الجامعات الأوروبية ... لذلك فالأقرب للدقة أن نقول : إنها « زيارة » ...
لا « بعثة » .

إن أمر هذه الزيارة يثير الحيرة ، والقلق ، ويرسم الكثير من علامات الاستفهام والتعجب ...
فقد جاءت فى وقت كان يهاجم فيه النظام الملكى ، وكاد هذا الهجوم - الذى أخذ شكل مقالات
نارية - أن يوقعه فى الحبس ، لولا صلواته الوفدية القديمة التى أنقذته .. وبدلاً من الحبس ، سافر
إلى أمريكا ... وهذه البعثة لم يعلن عنها كالمعتاد .. كما أنه وقتها (٤٢ سنة) كان قد تجاوز السن
المناسبة للبعثات .. كذلك فإنه قبل البعثة بوقت قصير ، نقل إلى منصب فى مكتب الوزير يؤهله
لها ... ثم .. لابد من سؤال هام : لماذا الولايات المتحدة بالذات فى تلك الفترة ؟! .. ثم .. لابد من
سؤال أهم : لماذا الولايات المتحدة ، وبريطانيا أولى وأقرب ويذهب إليها كل من يريد التعرف على
أساليب المناهج والتربية الغربية ؟!

لا أحد - حتى سيد قطب نفسه - أشار إلى هذه الألفاظ التى صاحبت البعثة .. الأمر الذى
جعل البعض يشير إلى أنها كانت « وليدة تخطيط أمريكى خفى » .. وإن « كان سيد قطب بعيداً
عنها » (٣) .. أى أن اختياره - دون أن يدري - كان جزءاً من الرهان الأمريكى ، على بعض
الوجوه ، قدر لها - إذا استجابت - أن تلعب بعض الأدوار ... وقفزاً على الأحداث والوقائع ،
تؤكد أن سيد قطب عاد من أمريكا ساخطاً عليها ، ومهاجماً حضارتها .. بل أكثر عداء لها مما كان
عليه قبل السفر .. وإن لم ينف هذا أنه هاجم - بنفس القدر - الشيوعية ، والشيوعيين أيضاً !
فيما بعد ... اعترف سيد قطب لرفيقه فى السجن « سيد سالم » : « أنه وقع تحت إغراء
الأوساط الأمريكية ، بكل الوسائل ، ولكنه لم يسقط فى شباك أى منها » (٤) ولم يحدد سيد قطب
طبيعة هذا الإغراء .. ولا مداه .. وكان أن فضل الذين وقفوا إلى جواره ، تفسير « الإغراء »

(٣) و (٤) د . الطاهر مكي - مجلة الهلال - مرجع سبقت الإشارة إليه

تفسيراً جنسياً لا سياسياً .. دللوا عليه بأحداث عديدة بدأت على سطح السفينة التي حملته إلى « نيويورك » .. حيث صدمته امرأة ذهببت الخمر بعقلها ، وهى نصف عارية ، فراودته عن نفسه .. لكنه استعاذ بالله ، وقهر الشيطان ، وأغلق الباب فى وجه الفتنة .. ولا بد أنه راح - فى نفسه - يلعنها .

□□

إذا كان من الصعب أن نعرف لماذا سافر سيد قطب إلى أمريكا ؟ فإن من السهل أن نعرف كيف كانت سنواته هناك ؟ .. فقد كان نشيطاً فى كتابة الخطابات لعدد من الأصدقاء الذين احتفظوا بها .. أو نشروا بعضها فى مجلة « الرسالة » قبل أن يعود إلى مصر .. من هؤلاء شقيقه الناقد والكاتب « محمد قطب » ، وزميل دفعة التخرج فى كلية « دار العلوم » محمد جبر ، والأديب عباس خضر الذى كان يحرر باب المتابعات الثقافية فى « الرسالة » .. والشاعر « محمود أبو الوفا » .. وأيضاً .. توفيق الحكيم أحياناً .

ولا بد أن تكون صدمة ماراه أحد أسباب الكتابة .. فقد كانت المرة الأولى فى حياته التى يسافر فيها خارج مصر .. أى أنه انتقل فجأة من مصر إلى أمريكا .. ولا بد أن تكون طبيعته الانطوائية السبب الثانى .. ولا بد أن تكون قدرته الفائقة على النقد السبب الثالث ... وربما كانت هناك أسباب أخرى .. إن تلك الرسائل جزء من التراث الأدبى والفكرى لسيد قطب ، وهى تحمل الكثير من انطباعاته وأفكاره فى مرحلة كان يتحول فيها .

والذى يقرأ ماتيسر من تلك الرسائل سيلاحظ أنه كان يفتقد العلاقات الإنسانية التى تعود عليها فى مصر .. كما كان يفتقد الجدل الفكرى الذى تعود أن يخوض فيه .. حتى أننا سنجدده وهو فى أمريكا يقرأ وينقد الكتب المصرية ، ويرسل بنقده إلى المجلات الأدبية (نشر نقداً لكتاب « الملك أوديب » فى مجلة « الرسالة » - ٦ مايو ١٩٤٩) .. وسيلاحظ أنه أصيب بأزمات صحية متعددة ، اقتضت دخوله المستشفى أحياناً .. أى أن المرض حال بينه وبين رؤية المجتمع من حوله أحياناً .. وسيلاحظ أن إحساسه بالغربة ، وخوفه من البرد والرياح ، وبحثه عن الدفء والشمس والجفاف ، جعله يعيش بحنين دائم لمصر ، فرض عليه كتابة الشعر فيها .. وسيلاحظ أن لغته الانجليزية لم تكن على مستوى يؤهله لفهم المجتمع فهماً واضحاً .. ورغم أنه دخل أحد معاهد تعليم اللغة هناك ، فإن لهجة الأمريكان الخاصة ، وقفت فى بعض الأحيان عقبة فى وجهه هناك .. وسيلاحظ أنه فى رسائله كان يكتب الأسماء .. أسماء المدن والأشخاص بالحروف اللاتينية .

بالإضافة إلى هذه الرسائل ، كتب سيد قطب - بعد عودته - ثلاث مقالات فى مجلة الرسالة تحت عنوان : « أمريكا التى رايت - فى ميزان القيم الإنسانية » ، نشرت فى الأعداد ٩٥٧ ، ٩٥٩ ، ٩٦١ ، وكان من المقرر أن يستكملها فى كتاب يصدر عن سلسلة « اقرأ » بنفس العنوان ، لكنه لم يفعل .. وقد عبثت أيدٍ بهذه المقالات فى نسخة « الرسالة » المتداولة فى « دار الكتب » ومزقت أغلب صفحاتها .. وبصعوبة شديدة ، حصلت عليها !!

إن الرسائل والمقالات تقدم لنا الكثير ... عن سيد قطب فى أمريكا .

ثم .. إن قراءتها بنصها .. متعة أدبية .. وتاريخية .

□□

أهدى توفيق الحكيم نسخة من « الملك أوديب » إلى سيد قطب وهو في أمريكا ، فاعتبرها « شيء عزيز ثمين بالقياس إلى هنا في تلك « الورشة » الضخمة ، السخيفة التي يسمونها : « العالم الجديد »^(٥) .. ثم أضاف :

عزيزى توفيق الحكيم :

إن شيئاً واحداً ينقص هؤلاء الأمريكيين ، على حين تذخر أمريكا بكل شيء .. شيء واحد لا قيمة له عندهم .. الروح !

بحث يقدم للدكتوراه في إحدى جامعاتهم - وقد قدم فعلاً - عن « أفضل الطرق لغسل الأطباق » أحب إليهم ألف مرة وأهم من رسالة عن « الإنجيل » إن لم يكن أهم من ذات الإنجيل ، وأمامى وأنا أكتب إليك هذه الكلمات من مطعم ، شاب أمريكى يثبت على صدره « سبع » ويجثم على ظهره « فيل » . لا تُرغ ! فذلك السبع إنما هو رسم يملأ فراغ رباط عنقه ، وهذا الفيل إنما هو رسم كذلك يملأ فراغ صدريته ! لقد رسم السبع باللون البرتقالى الفاقع على أرضية « أخضر زرعى » ورسم الفيل باللون الكحلى على أرضية « كرنبى » وهذا السبع مع رباط الرقبة مدلى فوق الصدرية لا تحتها حسب مزاج « التقاليع » .

والموسيقى .. ولكن مالى وهذا كله ! إن ذلك حديث آخر ليس وقته الآن .

أردت فقط أن أقول لك : كيف كانت هديتك في « العالم الجديد » .

سيد قطب

□□

أخى عباس^(٦)

صحت نبوءتك ، فتعافيت ، لا بفضل Miss Fero (ميس فيرو) صديقتك الحسنة ، ولكن بفضل انتقالى من سان فرانسيسكو برياحها الرطبة المتغيرة إلى مدينة صغيرة في وسط الوادى تسمى Pala alto (بالا التو) وقد شملت فيها رائحة مصر فتعافيت .

أذكر أنك كتبت مرة عن الربيع وشعراء الربيع في مصر ، أنا أوافقك على الشطر الثانى ، أوافقك على أن شعراء الربيع في مصر « عرة » أما إنحاؤك على جو مصر وترابه وعفاره .. إلخ . فأؤكد لك أنه « بطر » بنعمة الله .. هنا أمريكا التى ينشرون دعوة طويلة عريضة عن جوها ، وبخاصة جو كاليفورنيا لا تقاس بشيء إلى مصر ولا تسمع ما يقوله بعض الرقعاء عن جو فرنسا ، فبين يدي الآن رسالة من شاب مصرى غير مخدوع ، يعيش في فرنسا ، مفتوح العينين ، يحدثنى عن التقلبات والأنواء ويتمنى نسمة مصرية وهذا هو ما أتمناه أنا كذلك !

(٥) مجلة « الرسالة » العدد ٨٢٧ - ٩ مايو ١٩٤٩ .

(٦) المقصود عباس خضر .. وقد نشر الخطاب في مجلة « الرسالة » الأسبوعية - العدد ٨٨٧ (السنة - ١٨) -

٢ يوليو ١٩٥٠ - ص ٧٥٦ .

إننا ننقص من قدر أنفسنا حتى في الطبيعة ، أما الأجانب فيعرفون كيف يقومون بالدعاية لبلادهم ليجلبوا إليها الناس بغرض مادي هو الحصول على نقد أجنبي وإن كان الذين زاروا مصر منهم يخجلون أن يقيسوا بلادهم إليها .

إننا نملك أشياء كثيرة ولكننا لا ننتفع بها ولا نستغلها ..

هذه هي المسألة ، فإذا أنحنينا باللائمة فلننتج لا على بلادنا ولكن على تلك الحفنة الجاهلة المريضة الانانية التي تتولى أقدارها ، ولا تؤدي لها خدمة ما ولا تستغل كنوزها سواء كنوز الطبيعة الأرضية أو كنوز الطبيعة البشرية .

إننا نملك طاقات - من الذكاء الخارق - حين نقارن شعبنا إلى شعب كالأمريكان ، ولكننا نهمل هذه الكنوز بالجهل والامية والفقر المدقع القاتل لكل موهبة وذلك لتستمتع حفنة من الباشوات و « الكروش » بترف لا تعرفه القرون الوسطى .

هذا هو عيبنا ، أما طبيعة بلادنا وطبيعة شعبنا فهي فوق مستوى الشبهات .

قولوا أيها الكتاب للشعب حين تكتبون إن المتحكمين فيكم يقبرون نبوغكم ، ويدفنون مواردكم ، وأنتم لا تملكون ما لا يملك شعب آخر في الوجود .

وتحياتي إليك وإلى اللقاء .

أخى - بعد أن كتبت لك هذا وقرأته رأيت يصلح للنشر والتعليق ، فإذا رأيت أن تجعله موضوع تعليقك ، فأنت في حل من نشره .

سيد قطب

□□

نشر عباس خضر الرسالة .. بالفعل .. وعلق عليها أيضاً ..

قال :

أسارع أولاً فأبين مسألة صديقتي الحسنة مسز فرو .. لأنها تمس السياسة الداخلية في بيتي .. المسألة أن إحدى رسائل إلى الصديق الذي أوحشنا وصلت إليه وهو في المستشفى فلفت نظر الممرضة الحسنة - كما يقول - ما عليها من طوابع مصرية مختلفة الألوان : أحمر وأخضر وأصفر فأعجبت بهذه المجموعة العجيبة ، ولعلها أعجبت أيضاً بخطى الرديء المكتوب على الغلاف فاحتفظت به .. ومالي في ذلك يدان !!

ليست هذه الرسالة الوحيدة من رسائل الأستاذ سيد قطب التي تضمنت بعض الموضوعات العامة ، فقد كتب مرة يقول :

تصلح أمريكا أن تكون « ورشة العالم » فتؤدي وظيفتها على خير ما يكون أما أن يكون العالم كله كأمريكا فتلك هي كارثة الإنسانية بكل تأكيد .

فكتبت إليه فيما كتبت :

إنى يا أخى لا أرى لدينا روحية محبوبة ، فنحن ماديون كالأمريكيين وكل ما بيننا من فرق أن ماديتهم منظمة ونحن في فوضى ، فجاء رده :

لمحت في رسالتك إلى أنك « قرفان » من مصر ولهذا لا تستريح إلى ما أكتبه عن أمريكا .. إننى حين أكتب عن أمريكا ما أحسه من حقائق لا أعنى أننى راض عن الحياة في الشرق وما فيها ولكن هناك شيئاً واحداً لا يصح أن نغفله ، أن أمريكا تستخدم كل رصيدها الممكن وأننا نهمل رصيدنا فنبدو مفلسين ! إن الحاضر الواقع في بلادنا لا يرضى أحداً ولكن الممكنات أمامها كثيرة لو وثقنا في أنفسنا وفي رصيدنا المكتون ، وهذا هو مفرق الطريق ولو أنك عشت في أمريكا بعض الوقت كما عشت لحمدت للشرق روحه رغم هذا الخمول الذى يعانيه ..

.....

وأنا أوافق الصديق الكريم على ممتلكاتنا ومكتوناتنا وأومن معه بشعبنا ومواهبه المقبورة ولكننى أرى أن تلك المكنونات قد أصبحت كمحتويات دار الآثار ، نتحدث عنها ونطيل الحديث ولا شئ وراء ذلك أما المواهب المقبورة أو كنوز الطبيعة البشرية المهملة في مصرفاً مرها ظاهراً وداًوها يبدو معضلاً وإذا كانت حفنة « الباشوات » و « الكروش » تتحكم وتستغل فإن « حنات » من الوصوليين يتخذون الأسباب المختلفة إلى أولئك ، يسيرون في ركابهم ويصهرون إليهم وغير ذلك من أساليب ، فيكتالون ويستوفون وهناك مئات من ذوى الكفايات يقعد بهم الحياء وتحتجنهم الكرامة .

.....

والأحظ أن الصديق الكريم يختلج به حنين شديد إلى الوطن فهو يتمنى نسمة مصرية وهو يتعافى حين يشم جواً كجو مصر ولعل لذلك الحنين دخلاً في إشادته بجو مصر ، ولعل شوقه إلى حلوان الدافئة الجميلة المهملة هو الذى أثاره على كاليفورنيا ولعل بعده عن مصر في هذا العام الذى كثرت فيه التقلبات الجوية عندنا هو الذى جعله يظن أن سان فرانسيسكو هى ذات الرياح الرطبة المتغيرة أبداً .

السلام عليك أيها الصديق وإلى اللقاء في قدومك القريب .

عباس خضر

□□

أخى عباس ... (٧)

أسف أن أكون في حديثي إليك عن miss (ميس) لا Mrs Froiro (مسز فرورو) (٤) من فضلك ! قد مسست سياستك الداخلية في بيتك ، فأنت الذى جعلتنى أتحدث لك عنها باهتمامك الظاهر بها وبأخبارها وبتفاصيلات اهتمامها بخطك ... إلخ والآن بينى وبينها حوالى ٥٠٠ ميل ،

(٧) المقصود عباس خضر أيضاً - مجلة الرسالة - ٢١ يوليو ١٩٥٠ .

(٨) واضح أن عباس خضر لى رده استخدم تعبير مسز (أي سيدة) بدلاً من مس (أنسة) فبدأ سيد قطب هذه الرسالة بالتصحيح .

ولم يشفنى حسننا ولا حسن ترميضها بقدر ما شفتنى نسمات فيها من نسمات مصر مشابه
ودائع !

وافرغ من هذا إلى تعليقك على رسالتى إليك .. عن تلك الحفنة من « الباشوات » و « الكروش »
وعن تلك « الحفئات » التى تحدثت عنها من الوصوليين الذين يسيرون فى ركابهم ، ويصهرون
إليهم وغير ذلك من أساليب ، فيكتالون ، ويستوفون وهناك مئات من ذوى الكفايات يقعد بهم
الحياء وتحتجنهم الكرامة فيهملون .. وبذلك تحرم البلاد من خير أبنائها وأوفرهم حياء وكرامة ،
ويحرمونهم مما تلغ فيه « الكلاب » كما تقول .. أنا لا أومن بهذا « الحياء » الذى يقعد بأصحاب
الكفايات عن بلوغ حقهم وترك « الكلاب » تلغ فى الاستثناءات وغير الاستثناءات .

بل أنا أشك فى « كفاية » هذه الكفايات التى ترى حقوقها تؤخذ وتعطى للكلاب من الوصوليين
ثم تتقبل ذلك راضية !

لو أن كل هذه الجموع من الموظفين وغير الموظفين التى لا تملك صهراً إلى وزير أو كبير ولا تملك
الوسائل الأخرى التى لا يرضاها الرجل الشريف والتى تقفز بأصحابها فوق الأمناء الشرفاء ،
أقول لو أن هذه الجموع كانت لها كفايات حقيقية لما سكنت على هذا الفساد ولما تركت هذه الوسائل
الملتوية تعمل عملها فى داخل الدواوين وخارجها ..

إن الذى يسكت على حقه - خوفاً من غضب وزير أو رئيس - ويدع « الكلاب » تقفز فوق رأسه
بالاستثناء أو بأية وسيلة أخرى تنقصه أهم أنواع « الكفايات » وهى تلك الشجاعة الأدبية .

لو أن كل صاحب حق من هؤلاء أسمع الوزير أو الكبير صوت غضبه لتخطيه لما جرو وزير أو كبير
على أن يمضى فى طريقه إلى حد التبجح أحياناً بالمحسوبيات والاستثناءات .

لست أنكر أن كثيراً من هؤلاء الموظفين الأمناء الشرفاء المتواضعين الذين تقفز على رؤوسهم
الكلاب يضطلعون بأعباء عائلية ويخشون نقمة الوزير والرئيس ويخافون على لقمة الخبز أن تؤخذ
من أفواه أطفالهم ومن يعولون من آباء وأمهات وأقرباء ذلك حق ولكنه لا يبرر السكوت .

ماذا يملك الوزير الذى يرقى مائة فى وزارته بالاستثناء لو أن مئات الموظفين الآخرين أسمعوه
صوت غضبهم على تصرفه المعيب ؟ إنه لا يملك أن يرقبهم جميعاً بالاستثناء ، ولا يملك كذلك أن
يطردهم جميعاً من وزارته ، ولكنه يملك أن يتعلم أن هؤلاء الموظفين فى وزارته ليسوا « عبيداً » فى
ضيعة ، أعنى أنه يملك أن يكون أكثر « أدباً » ولو أنه وزير .

إننى لا أملك أن أسمى سياسة القفز بالوصوليين والمحاسيب والأصهار إلا سوء أدب منشؤه
أن التربية السياسية للشعب لم تنضج بعد ليستطيع أن يربى أصحاب السلطة فيه كما ينبغى أن
يكون . وهكذا ترى أن هؤلاء الأمناء الشرفاء من الموظفين مسئولون عما يناله الوصوليون
المحظوظون فليجربوا مرة أن « يؤدبوا » ذلك الرئيس الذى يتخطاهم ولن يكلفهم هذا إلا أن يبلغوه
صوتهم متضامنين !

وتقول « من حقى أن أكون قرفان » من جانب حالتنا التى لا تسر . لست أحاول أن أمنعك من

القرف ولكن أحب أن يستحيل هذا القرف سخطاً ، نحن في حاجة إلى السخط على أوضاعنا الحاضرة ، لا إلى القرف منها ، فالسخط معناه أن ننفض أيدينا من الأمر يائسين .

وإذا أمنا بأن لنا رصيماً من كنوز الطبيعة الأرضية ومن كنوز الطبيعة البشرية على السواء وأن حفنة من « الباشوات » و « الكروش » هي التي تهمل ذلك كله ، وتقبله ، فإنه يكون أمامنا أن نصنع شيئاً ، أن نجمع كل العناصر الساخطة ، المتبقطة لتنشئ سياسة جديدة ، وليس من الضروري أن تنتظر الحلول الجاهزة من « موسكو » كما يحاول أحياناً بعض المخدوعين في « موسكو » إن حلولنا يجب أن تنبت من بيئتنا وظروفنا .. يجب أن ندرس أولاً واقعنا ثم نجد الحلول المحلية التي تناسبنا ..

وأنا أؤكد لك ما أنا واثق به إلى حد العقيدة .. إننا نملك حلولاً أهدأ وأقوم من الحلول الواردة من لندن أو واشنطن على السواء . إننا نملك « العدالة الاجتماعية في الإسلام » وهي كفيلة بأن تنشئ لنا مجتمعاً آخر غير هذا الذي نعيش فيه ، مجتمعاً إسلامياً متحضراً يؤمن بالسماء ، ويؤمن بالأرض ، لا كما يحسب الجاهلون أن الدين تزهد وتكشف وتخل عن شئون الأرض للمفسدين .

سان دييجو - كاليفورنيا

سيد قطب

□□

أخي الأستاذ جبر (٩) :

أبطأت في الرد عليك . إنها زحمة العمل ، وسوء طريقة الدراسة ، فليس أبعد عن الإفادة من الجهد في تعلم اللغة الإنجليزية من الطريقة الأمريكية ! ولكنك كمدرس تملك بجهدك الخاص أن تتلافى عيوب الطريقة . وقد انقلبت وظيفتي في « المركز الدولي لتعليم اللغات » من مجرد طالب يتعلم اللغة إلى مدرس يعلمهم كيف يدرسون اللغة ! وقد أفلحت طريقتي ونجحت شيئاً ما في تعديل طريقتهم في كثير من الأحيان !

إن أمريكا هي أكبر أكذوبة عرفها العالم !

نستطيع أن نفيد من أمريكا في البعثات العلمية البحتة : الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والزراعة .. وما إليها . فأما حين نحاول أن نستفيد من أمريكا في الدراسات النظرية ومنها طرق التدريس فأحسب أننا نخطئ أشد الخطأ ، وننساق وراء الطريقة الأمريكية في الإعلان ، ومع هذا فلا أحب أن أتعجل فقد تكون هناك أشياء لم أعلمها بعد . وإن كان المفروض أن طريقة هذا المركز الدولي هي أنجح الطرق الأمريكية !

لقد تقدمت فعلاً في اللغة الإنجليزية تقدماً ملحوظاً ، ولكن ذلك بجهدى الخاص ، وبتعديل الطريقة الأمريكية وتلقيحها . وأحسبني لو كنت أبذل عشر هذا الجهد في مصر لبلغت ما بلغت إليه فعلاً باستثناء المراتبة على الحديث فهي أحسن بطبيعة الحال .

(٩) المقصود الأستاذ محمد جبر دفعته في « دار العلوم » والرسالة نشرها د. الطاهر مكي - مرجع سبقت الإشارة إليه

أما أولئك الذين يتحدثون عن أمريكا كما يتحدثون عن الأعاجيب السبع (فهم) يحاولون أن يستمدوا قيمة جديدة لأنفسهم من وراء هذا التهويل !

أتعرف أولئك البحارة القدامى الذين كانوا يجوبون البحار ، ثم يتحدثون عن أهوال البحر وعن المردة والعمالقة والعجائب المثيرة .. إنهم كانوا يصنعون ما يصنعه المتأمركون اليوم . ولا أدري ماذا في أوروبا ولكن قياساً على ما كنا نسمعه عن أمريكا وعما رأيته فعلاً أستطيع أن آخذ صورة عن المبالغة والتهويل ..

تجد الإجابة على أسئلتك على جناحي الخطاب .

١٢/٢/١٩٤٩

سيد قطب

١ - لا أملك أن أكتب لك بالتفصيل عن الحياة الأمريكية فهذا يتطلب وقتاً وجهداً لست أملكهما اليوم وسيكون هذا موضوع كتيب في سلسلة « اقرأ » ، ولكن أحسبني الخصها لك حين أقول : إنها حياة عمادها اللذة والنجاح العملي . وأنه لا حساب فيها لأى خلق من الأخلاق التى تعتر بها الإنسانية ، وإن كل القيم الخلقية هى موضع السخرية عند الأمريكان !!

٢ - مستوى المعيشة هنا مرتفع وغال ولكنه ليس بالصورة الموهلة التى يتحدثون بها في مصر . فالطالب العادى يستطيع أن يعيش في حدود ١٨٠ دولاراً عيشة راضية ، أما أنا شخصياً فأضطر إلى إنفاق ما يقرب من ٢٥٠ - ٢٨٠ وذلك بسبب اضطرارى إلى حياة مريحة كل الراحة وإلى قيمة غذائية مرتفعة كذلك وإلى شئ من المظهر في بعض الأوساط لرجل زائر لا طالب .

٣ - نفقات السفر إلى هنا في الدرجة الثانية حوالى ٦٠ - ٦٦ جنيهاً ، أما أنا فقد سافرت في الدرجة الأولى حسب درجتى في الكادر !

٤ - أحسبني الآن في مستوى السنة الثانية الثانوية ، أما في الحديث فقد أكون في مستوى « الثقافة » - (١٠)

٥ - وجودى في واشنطن بالذات سهل لى كثيراً من الصعاب لانى بجوار المكتب وكلهم أصدقائى .

أكتب إلى بالتفصيل عن أحوالكم وأخباركم وموقفكم في الوزارة فإنه يهمنى أن أكون على تمام الصلة بالإخوان وبحركتهم أولاً بأول مدة وجودى هنا . ولا يهكم أن تتأخر رسائل فى بعض الأحيان .

سيد قطب

□□

حصلت بصعوبة على نسخة مما كتبه سيد قطب بعد عودته ، عن أمريكا .. إن ما كتبه بخطيده

(١٠) يتحدث عن مستواه في اللغة الإنجليزية .

كان بمثابة ما انتهى إليه من رأى في بلاد العم سام .. (١١) !!

١ - أمريكا .. الدنيا الجديدة .. ذلك العالم المترامى الأطراف الذى يشغل من أذهان الناس وتصوراتهم أكثر مما تشغل من الأرض رقعته الفسيحة ، وترف عليه أخيلتهم وأحلامهم بالآوهام والاعاجيب ، وتهوى إليه الافئدة من كل فج ، شتى الأجناس والألوان ، شتى المسالك والغايات ، شتى المذاهب والآهواء .

أمريكا .. تلك المساحات الشاسعة من الأرض بين الأطلنطى والباسيفيكي . تلك الموارد التى لا تنضب من المواد والحامات ، ومن القوى والرجال . ذلك النتاج الهائل الذى يعيا به العدد والإحصاء ، تلك المعاهد والمعامل والمتاحف المبتوثة في كل مكان ، عبقرية الإدارة ، والتنظيم التى تثير العجب والإعجاب . ذلك الرخاء السابغ كأحلام الجنة الموعودة . ذلك الجمال الساحر فى الطبيعة والوجوه والأجسام .. تلك اللذائذ الحرة المطلقة من كل قيد أو عرف . تلك الأحلام المجسمة فى حيز من الزمان والمكان .

أمريكا هذه كلها .. ما الذى تساويه فى ميزان القيم الإنسانية وما الذى أضافته إلى رصيد البشرية من القيم ، أو يبدو أنها ستضيفه إليه فى نهاية المطاف ؟

أخشى ألا يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية فى أمريكا ، وعظمة « الإنسان » الذى ينشئ هذه الحضارة ، وأخشى أن تمضى عجلة الحياة ، ويطوى سجل الزمن ، وأمريكا لم تضيف شيئاً - أولم تضيف إلا اليسير الزهيد - إلى رصيد الإنسانية من تلك القيم ، التى تميز بين الإنسان والشيء ، ثم بين الإنسان والحيوان .

.....

وإنه ل يبدو أن العبقرية الأمريكية كلها قد تجمعت وتبلورت فى حقل العمل والإنتاج ، بحيث لم تبق فيها بقية تنتج شيئاً فى حقل القيم الإنسانية الأخرى . ولقد بلغت فى ذلك الحقل ما لم تبلغه أمة ، وجاءت فيه بالمعجزات التى أحالت الحياة الواقعية إلى مستوى فوق التصور ووراء التصديق لمن لم يشهد ما عياناً .

ولكن الإنسان لم يحفظ توازنه أمام الآلة ، حتى ليكاد هو ذاته يستحيل آلة ؛ ولم يستطع أن يحمل عبء العمل المنهك ثم يمضى قدماً فى طريق الإنسانية ؛ عندئذ أطلق للحيوان الكامن العنان ؛ ضعفاً عن أن يحمل عبء العمل وعبء الإنسان !

وإن الباحث فى حياة الشعب الأمريكى ليقف فى أول الأمر حائراً أمام ظاهرة عجيبة ، قد لا يراها فى شعب من شعوب الأرض جميعاً : شعب يبلغ فى عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء ، بينما فى عالم الشعور والسلوك بدائى لم يفارق مدارج البشرية الأولى ؛ بل أقل من بدائى فى بعض نواحي الشعور والسلوك !

(١١) نشرت نص ما كتبه سيد قطب بعد أن حذفت بعض الفقرات ، التى أرى فيها نوعاً من الاسترسال ، وذلك من باب التركيز ، وعدم التكرار ، وخاصة أن ما كتبه كان مشروع كتيب ولم ينفذ حتى الآن .

ولكن هذه الحيرة تنزل بعد النظرة الفاحصة في ماضى هذا الشعب وحاضره ، وفي الاسباب التى جمعت فيه بين قمة الحضارة وسفح البدائية !

في العالم القديم آمن الإنسان بقوى الطبيعة المجهولة وصاغ حولها الخرافات والاساطير ، وآمن بالدين ، وغمرت روحه أضواؤه ورؤاه ، وآمن بالفن ، وتجسمت أشواقه الوائى والحائى وأوزاناً .. ثم آمن بالعلم أخيراً ، بعد ما انقسمت نفسه لأنماط الإيمان ، واللوان من المشاعر ، وأشكال من صور الحياة وتهاويل الخيال ، بعد ما تهذبت روحه بالدين وتهذب حسه بالفن ، وتهذب سلوكه بالاجتماع ، بعد ما صيغت مثله ومبادئه من واقعية التاريخ ، ومن أشواقه الطليقة .

.....

أما فى أمريكا فقد ولد الإنسان على مولد العلم ، فأمن به وحده ، بل آمن بتنوع خاص منه ، هو العلم التطبيقى !

.....

ويحسن ألا ننسى الحالة النفسية التى وفد بها الأمريكى إلى هذه الأرض فوجاً بعد فوج ، وجيلاً بعد جيل ، فهى مزيج من السخط على الحياة فى العالم القديم ، والرغبة فى التحرر من قيوده وتقاليده ، ومن هذه القيود والتقاليد الثقيل الفاسد والضرورى السليم ، ومن الرغبة الملحة فى الثراء بأى جهد وبأية وسيلة ؛ والحصول على أكبر قسط من المتاع تعويضاً عما يبذله من الجهد فى الثراء .

ويحسن ألا ننسى كذلك الحالة الاجتماعية والفكرية لغالبية هذه الأفواج الأولى التى تألفت منها نواة هذا الشعب الجديد . فهذه الأفواج هى مجموعات من المغامرين ، ومجموعات من المجرمين ؛ فالمغامرون جاءوا طلاب ثراء ومتاع ومغامرات ؛ والمجرمون جئء بهم من بلاد الامبراطورية الانجليزية لتشغيلهم فى البناء والإنتاج .

.....

وقد يدهش الإنسان وهو يقرأ قصص الجماعات الأولى التى هاجرت إلى أمريكا فى أيامها الأولى ، ويتصور كفافها الطويل العجيب مع الطبيعة الجامحة ..

.....

... لقد يدهش الإنسان كيف لم يترك هذا كله ظلاله على الروح الأمريكية إيماناً بعظمة الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ليفتح لها منافذ أوسع من المادة وعالم المادة ..

ولكن هذه الدهشة تنزل حين يتذكر ذلك المزيج من الملابس ، وذلك المزيج من الأفواج ، لقد قابلوا الطبيعة بسلاح العلم وقوة العضل ، فلم تثر فيهم إلا قوة الذهن الجاف ، وقوة الحس العارم ، ولم تفتح لهم منافذ الروح والقلب والشعور ، كما فتحتها فى روح البشرية الأولى ، التى احتفظت بالكثير منها فى عصر العلم ، وأضافت به إلى رصيدها من القيم الإنسانية الباقية على الزمان ..

وحين تغلق البشرية على نفسها منافذ الإيمان بالدين ، والإيمان بالفن ، والإيمان بالقيم الروحية جميعاً ، لا يبقى هنالك متصرف لنشاطها إلا في العلم التطبيقي والعمل ، وإلا في لذة الحس والمتاع . وهذا هو الذى انتهت إليه أمريكا بعد أربعمئة عام .

سيد قطب

٥ نوفمبر ١٩٥١

.....

٢ - يبدو الأمريكى - على الرغم من العلم المتقدم والعمل المتقن - بدائياً في نظرتة إلى الحياة ، ومقوماتها الإنسانية الأخرى بشكل يدعو إلى الدهشة ، ولعل لهذا التناقض الواضح اثره في ظهور الأمريكان بمظهر الشعب غريب الأطوار في نظر الأجانب ، الذين يراقبون حياة الشعب من بعيد .. ويعجزهم التوفيق بين هذه الحضارة الصناعية الفائقة وذلك النظام الدقيق في إدارة الأعمال ، وإدارة الحياة .. وبين هذه البدائية في الشعور والسلوك ، تلك البدائية التى تذكر بعهود الغابات والكهوف ^{١١}

يبدو الأمريكى بدائياً في الإعجاب بالقوة العضلية ، والقوى المادية بوجه عام ، بقدر ما يستهين بالمثل والمبادئ والأخلاق ، في حياته الفردية ، وفي حياته العائلية ، وفي حياته الاجتماعية - فيما عدا دائرة العمل بأنواعه ، وعلاقات الاقتصاد والمال - ومنظر الجماهير وهى تتتبع مباريات كرة القدم ، على الطريقة الأمريكية الخشنة التى ليس لها من اسمها « كرة القدم » ، أى نصيب ، إذ أن « القدم » لا تشترك في اللعب ، إنما يحاول كل لاعب أن يخطف الكرة بين يديه ويجرى بها ليقذف بها إلى الهدف ، بينما يحاول لاعبو الفريق الآخر أن يعوقوه بكل وسيلة بما في ذلك : الضرب في البطن ، وتهشيم الأذرع والسيقان ، بكل عنف وكل شراسة ^(١٢) .. منظر الجماهير وهى تتتبع هذه اللعبة ، أو تشاهد حفلات الملاكمة والمصارعة الوحشية الدامية .. منظرها في هياجها الحيوانى ، المنبعث من إعجابها بالعنف القاسى ، وعدم التفاتها إلى قواعد اللعب وأصوله ، بقدر ما هى مأخوذة بالدم السائل والأوصال المهشمة ، وصراخها هاتفة كل يشجع فريقه : حطم رأسه . دق عنقه . هشم أضلاعه . اعجنه عجنأ .. هذا المنظر لا يدع مجالاً للشك في بدائية الشعور التى تفتن بالقوة العضلية .

وبمثل هذه الروح يتابع الجمهور الأمريكى صراع الجماعات والطوائف ، وصراع الأمم والشعوب . ولست أدري كيف راجت في العالم - وبخاصة في الشرق - تلك الخرافة العجيبة . خرافة أن الشعب الأمريكى شعب محب للسلام !

.....

إن الحيوية المادية عند الأمريكى مقدسة ، والضعف - أيا كانت أسبابه - جريمة ، جريمة لا يغتفرها شيء . ولا تستحق عطفاً ولا عوناً . وحكاية المبادئ والحقوق خرافة في ضمير

(١٢) أدهشنى أن يتابع سيد قطب مباريات الكرة .. لكن فاتة أن تلك اللعبة لا تسمى في أمريكا كرة القدم . فوت بول ، إنما تسمى « بيسبول » وهى لعبة أمريكية خاصة .. لها شهرة كرة القدم في بلاد العالم الأخرى .

الأمريكي لا يتذوق لها طعماً . كن قويا ولك كل شيء . أو كن ضعيفاً فلا يسعفك مبدأ ، ولا يكون لك مكان في مجال الحياة الفسيح . أما الذي يموت فيرتكب بالطبع جريمة الموت ! ويفقد كل حق له في الاهتمام أو الاحترام اليس هو قد مات ؟

كنت في مستشفى « جورج واشنطن » في واشنطن العاصمة ، وكان الوقت مساء حينما غمرت جوه موجة من الاضطراب ، غير معهودة ، وبدت فيه حركة غير عادية تستلفت النظر . وأخذ المرضى القادرون على الحركة يغادرون أسرتهن ، وحجراتهم إلى الممشى والأبهاء يستطلعون ؛ ثم جعلوا يتحلقون متسائلين عن سر تلك الظاهرة في حياة المستشفى الهادئة . وعرفنا بعد فترة أن أحد موظفي المستشفى قد أصيب في حادث مصعد ، وأنه في حالة خطيرة بل في دور الاحتضار . وذهب أحد المرضى الأمريكيان ليرى بنفسه ، ثم عاد يقص على المتحلقين في الممشى ما رأى .. وحين يخيم شبح الموت على مكان ، لا تكون له رهبة ، ولا يكون للموت خشوعه ، كما يكون في مستشفى .. ولكن هذا الأمريكي أخذ يضحك ويقهقه ، وهو يمثل هيئة المصاب المحتضر ، وقد دق المصعد عنقه ، وهشم رأسه ، وتدلّى لسانه من فمه على جانب وجهه ! وانتظرت أن أسمع أو أرى علائم الامتناع والاستنكار من المستمعين ، ولكن كثرتهم الغالبة جعلت تضحك متفككة ، بهذا التمثيل البغيض !

.....

وما يقال عن الشعور بالموت يقال عن الشعور بالدين .

ليس أكثر من الأمريكيان تشييداً للكنائس ، حتى لقد أحصيت في بلدة واحدة لا يزيد سكانها على عشرة آلاف أكثر من عشرين كنيسة ! وليس أكثر منهم ذهاباً إلى الكنائس في ليالات الأحد وأيامه ، وفي الأعياد العامة ، وأعياد القديسين المحليين ، وهم أكثر من « الأولياء » عند عوام المسلمين ! .. وبعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد من الأمريكي عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته ، وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكي وشعوره وسلوكه !

وإذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة في العالم المسيحي كله ، فإنها في أمريكا مكان لكل شيء إلا العبادة ، وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أي مكان آخر معد للهو والتسلية أو ما يسمونه بلغتهم الـ « FUN » ومعظم قصاصها إنما يعدونها تقليداً اجتماعياً ضرورياً ، ومكاناً للقاء والانس ، ولتمضية وقت طيب ، وليس هذا شعور الجمهور وحده ، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعاتها ..

.....

وهذه مثلاً محتويات إعلان عن حفلة كنيسة ، كان ملصقاً في قاعة اجتماع الطلبة في إحدى الكليات :

« يوم الأحد أول أكتوبر - في الساعة السادسة مساء - عشاء خفيف . ألعاب سحرية . الغاز . مسابقات .. تسلية ... » !

.....

كنت ليلة في إحدى الكنائس ببلدة جربلي بولاية كولورادو- فقد كنت عضواً في ناديتها كما كنت عضواً في عدة نواد كنسية في كل جهة عشت فيها ، إذ كانت هذه ناحية هامة من نواحي المجتمع تستحق الدراسة عن كُتب ومن الداخل - وبعد أن انتهت الخدمة الدينية في الكنيسة ، واشترك في التراتيل فنية وفتيات من الأعضاء ، وأدى الآخرون الصلاة ، دلفنا من باب جانبي إلى ساحة الرقص ، الملاصقة لقاعة الصلاة ، يصل بينهما الباب ، وصعد « الأب » إلى مكتبه ، وأخذ كل فتى بيد فتاة ، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتي ، كانوا وكن ، يقومون بالترتيل ويقمن ! وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء ، والصفراء ، والزرقاء ، وبقليل من المصابيح البيض .. وحمل الرقص على أنغام « الجراموفون » وسالت الساحة بالأقدام والسيقان الفاتنة ، والتفت الأذرع بالخصور ، والتقت الشفاه والصدور ... وكان الجو كله غراماً حينما هبط « الأب » من مكتبه ، وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن في المكان ..

.....

واختار .. اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها : **« But baby it is cold outside »** - (ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج) وهي تتضمن حواراً بين فتى وفتاة عاندين من سهرتهما وقد احتجزها الفتى في داره ، وهي تدعوه أن يطلق سراحها لتعود إلى دارها فقد أمسى الوقت ، وأما تنتظر .. وكلما تذرعت إليه بحجة أجابها بتلك اللازمة : « ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج ! » ..

وانتظر الأب حتى رأى خطوات بناته وبنيه ، على موسيقى تلك الأغنية المثيرة ؛ وبدأ راضياً مغتبطاً ، وغادر ساحة الرقص إلى داره ، تاركاً لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة ... البريئة !

.....

والأمريكي بدائي في حياته الجنسية ، وفي علاقات الزواج والأسرة

.....

إن كل ما تعبت الحياة البشرية الطويلة في خلقه وصيانتها من آداب الجنس ، وكل ما صاغته حول هذه العلاقات من عواطف ومشاعر ، وكل ما جاهدت من غلاظة الحس ، وجهامة الغريزة لتطلقه إشعاعات مرفرفة ، وهالات مجنحة ، وأشواقاً طليقة ، وكل الروابط الوثيقة حول تلك العلاقات في شعور الفرد ، وفي حياة الأسرة ، وفي محيط الجماعة ...

إن هذا كله ، قد تجردت منه الحياة في أمريكا مرة واحدة وتجلت عارية عاطلة من كل تجمل « ذكراً وأنثى ، كما خلقهم أول مرة . جسداً لجسد ، وأنثى لذكر . على أساس مطالب الجسد ودوافعه ، تقوم العلاقات وتتحدد الصلات ، ومنها تستمد قواعد السلوك ، وآداب المجتمع ، وروابط الأسرة والأفراد .

بفتنة الجسد وحدها ، عارية من كل ستار ، مجردة من كل حياء ، تلقى الفتاة الفتى ، ومن قوة الجسد وضلاعه يستمد الفتى إعجاب الفتاة . ويستمد الزوج حقوقه - هذه الحقوق التي تسقط جميعها في عرف الجميع ، يوم يعجز الرجل عن الوفاء بها لسبب من الأسباب .

والفتاة الأمريكية ، تعرف جيداً موضع فتنتها الجسدية ، تعرفها في الوجه : في العين الهاتفة والشفة الظامئة ، وتعرفها في الجسم : في الصدر الناهد ، والردف المليء ، وفي الفخذ اللغاء والساق الملساء - وهي تبدى هذا كله ولا تخفيه - وتعرفها في اللباس : في اللون الزاهي توقظ به الحس البدائي ، وفي التفصيل الكاشف عن مفاتن الجسد - وهوبذاته في الأمريكية فتنة حية صاعقة في بعض الأحيان - ثم تضيف إلى كل هذا الضحكة المثيرة ، والنظرة الجاهرة ، والحركة الجريئة ، ولا تغفل عن ذلك لحظة ، أو تنساه !

والفتى الأمريكى يعرف جيداً أن الصدر العريض ، والعضل المقتول ، هما الشفاعة التي لا ترد عند كل فتاة ، وأن أحلامها لا ترف على أحد كما ترف على « رعاة البقر » ، — Cow boys —

.....

وبعضهم يسمى هذا تحرراً من الرياء ومواجهة للحقائق ، ولكن هنالك فارقاً أساسياً بين التحرر من الرياء ، والتحرر من المقومات الإنسانية التي تفرق بين الإنسان والحيوان . والإنسانية في تاريخها الطويل لم تكن تجهل أن الميول الجنسية ميول طبيعية وحقيقية ، ولكنها - عن وعى أو غير وعى - كانت تجاهد لتتحكم فيها ، فرارا من العبودية لها ، وبعدا عن مدارجها الأولى : إنها ضرورة نعم ! ولكن لماذا تخجل الإنسانية من إبداء ضروراتها ؟ لأنها تحس بالفطرة أن التحكم في هذه الضرورات هو شهادة الخلاص من الرق ، وأولى مدارج الإنسانية في الطريق وأن العودة إلى حرية الغابة عبودية مقنعة ، ونكسة إلى مدارج البدائية الأولى .

سيد قطب

١٩ نوفمبر ١٩٥١

٢ - الأمريكى بدائى في ذوقه الفنى ، سواء في ذلك تذوقه للفن أو أعماله الفنية .

موسيقى « الجاز » هي موسيقاه المختارة . وهي تلك الموسيقى التي ابتدعها الزنوج لإرضاء ميولهم البدائية ، ورغبتهم في الضجيج ^(١٢) من ناحية ، ولإستثارة النوازع الحيوية من ناحية أخرى . ولا تتم نشوة الأمريكى تمامها بموسيقى « الجاز » حتى يصاحبها غناء مثلها صارخ غليظ . وكلما علا ضجيج الآلات والأصوات ، وطن في الأذان إلى درجة لا تطاق .. زاد هياج الجمهور ، وعلت أصوات الاستحسان ، وارتفعت الأكف بالتصفيق الحاد المتواصل الذي يكاد يصم الأذان .

ولكن الجمهور الأمريكى مع هذا يقبل على الأوبرا ، ويصفى إلى السيمفونيات ، ويتزاحم على « الباليه » ، ويشاهد التمثيلية ^(١٤) « الكلاسيك » ، حتى لا تكاد تجد مقعداً خالياً ، ويقع في بعض الأحيان إلا تجد مكاناً إذا أنت لم تحجز مقعدك قبلها بأيام ، على غلاء الأسعار في هذه الحفلات .

(١٢) لم يهتم سيد قطب على ما يبدو بتاريخ ولا مشكلة الزنوج التي كانت صارخة في ذلك الوقت ، لكن هذا لا يبرر

تكراره لاتهامهم بالبدائية . وخاصة أنه من الذين قرأوا كثيراً في مشاكل الحضارات !

(١٤) يقصد المسرحية .

ولقد خدعتنى هذه الظاهرة في أول الأمر ، بل لقد فرحت بها في داخل نفسي ، فقد كنت دائم الشعور « باستخسار » هذا الشعب الذي يصنع المعجزات في عالم الصناعة والعلم والبحث الا يكون له رصيد من القيم الإنسانية الأخرى ، وأنا شديد الإشفاق على الإنسانية أن تؤل قيادتها إلى هذا الشعب ، وهو فقير من تلك القيم جميعاً .

.....

إن الشقة ما تزال بعيدة بين روح هذا الفن الإنساني وروح الأمريكان . إن مشاعرهم عنها محجبة إلا في النادر ، وإنهم إنما ينظرون إلى المسألة من زاوية اجتماعية بحتة . فالمثقف الأمريكي لا بد أن يكون شهد هذه الألوان وذهب إلى تلك الأماكن ، حتى إذا دار الحديث عنها في مجتمع ، شارك في الحديث . فالعيب الأكبر في أمريكا ألا يشارك الإنسان في الحديث ، وبخاصة بالنسبة للفتيات ، إذ المطلوب منهن أن يجدن دائماً موضوعات للحديث ، فإذا ارتدن هذه الأماكن فإنهن يضيفن موضوعات جديدة إلى الموضوعات الأمريكية الخالدة وهي : مسابقات الكرة وأسماء الأفلام والممثلين والممثلات وحوادث الطلاق والزواج وماركات وأسعار السيارات .

.....

الفن الوحيد الذي يتقنه الأمريكان - وإن يكن سواهم لا يزال يفوقهم في الناحية الفنية فيه - هو فن السينما . وهذا طبيعي ومنطقي مع تلك الظاهرة التي ينفرد بها الأمريكي : ذروة الإتقان الصناعي ، وبدائية الشعور الفني وفي السينما تبدو هذه الظاهرة واضحة إلى حد كبير .

.....

والسينما فن الجماهير الشعبي ، فهو فن المهارة والإتقان والتجسيم والتقريب ، وهو بطبيعته يعتمد على المهارة أكثر من اعتماده على الروح الفنية .. ويمكن أن تبذل فيه العبقرية الأمريكية .. ومع هذا فما يزال الفيلم الإنجليزي والفرنسي والروسي والإيطالي أرقى من الفيلم الأمريكي وإن كان أقل صناعة ومهارة .

.....

هناك فن آخر برع فيه الأمريكان ، لأن ما فيه من مهارة في الصناعة والإنتاج ، أكثر مما فيه من الفن العالي ، الأصل .. ذلك هو فن تمثيل المناظر الطبيعية بالألوان ، كأنها فوتوغرافية صادقة دقيقة ، ويبدو هذا في متاحف الأحياء المائية والبرية إذ تعرض هذه الأحياء أو أجسادها المحنطة في مثل مواطنها الطبيعية كأنها حقيقة ، وتبرع ريشة الرسام في تصوير هذا الموطن ، مشتركة مع التصميم الفني للمنظر ، وتبلغ حد الإبداع .

.....

ثم ندع تلك الآفاق العليا في الفن والشعور ، لنهبط إلى ألوان الملابس وإلى مذاق الأطعمة . إن بدائية الذوق لا تتجلى في شيء كما تتجلى في تلك الألوان الصارخة الزاهية ، وفي تلك التقاسيم المبرقشة الكبيرة ، وبخاصة ملابس الرجال ... ذلك السبع أو النمر الواثب على صدر الصدرية .. وذلك الفيل أو الثور الوحشي الجاثم على ظهرها . تلك الفتاة العارية الممددة على رباط العنق من أعلى إلى أسفل ، أو تلك النخلة الصاعدة فيه من أسفل إلى أعلى

.....
أما الطعوم فشأنها هو الآخر عجيب .

إنك تلتفت النظر ، وتثير الدهشة ، حين تطلب قطعة أخرى من السكر لكوب الشاي أو القهوة تشربه في أمريكا . ذلك أن السكر محتفظ به للمخلل « والسلطة » ! كما أن الملح يا سيدي محتفظ به للتفاح والبطيخ !

وفي صحيفة طعامك ، تجتمع قطعة اللحم المملحة ، إلى كمية من الذرة المسلوقة ، وكمية من البازلاء المسكرة ، وبعض المربى الحلوة ... وفوق ذلك كله الـ Gropy المؤلف أحياناً من السمن والخل والدقيق وورقة العجل والتفاح ، الملح والفلفل والسكر .. والماء !

كنا على المائدة في مطعم ملحق بالجامعة حينما رأيت بعض الأمريكان يضعون الملح على البطيخ ، وكنت قد اعتدت رؤية هذه « التقاليع » واعتدت كذلك أن اتفكه عليهم في بعض الأحيان . وقلت متجاهلاً : أراكم ترشون الملح على البطيخ ؟ قال أحدهم : أجل ! ألا تصنعون ذلك في مصر ؟ قلت : كلا ! إنما نرش الفلفل ! قالت واحدة في دهشة واستفسار : أو يكون مستساغاً ؟ قلت : يمكنك أن تجربى ! جربت ، وذاقت . وقالت في استحسان : كم هو لذيذ ! وكذلك فعل الآخرون .

وفي يوم أخرجاء فيه البطيخ ، ومعظم من يأكلون على المائدة هم هم ، قلت : وبعضنا في مصر يستخدم السكر أحياناً لا الفلفل . وبدأ أحدهم ففعل ، وقال : كم هو لذيذ ! وكذلك الآخرون ! وباختصار فكل ما يحتاج إلى قسط من الذوق فالأمريكي ليس له فيه حتى الحلاقة ! وما من مرة حلقت شعري هناك إلّا وعدت إلى البيت لأسوى بيدي ما شعث الحلاق ، وأصلح ما أفسده بذوقه الغليظ !

.....
إن لأمريكا دورها الرئيسي في هذا العالم ، في مجال العلم التطبيقي ، وفي مجال البحوث العلمية ، وفي مجال التنظيم والتحسين ، والإنتاج والإدارة .. كل ما يحتاج إلى ذهن وعقل ، فهنا تبرز العبقرية الأمريكية . وكل ما يحتاج إلى روح وشعور فهنا تبدو البدائية الساذجة .

وإن البشرية لتملك أن تنتفع بالعبقرية الأمريكية في مجالها ، فتضيف قوة ضخمة إلى قواها ، ولكن هذه البشرية تخطئ أشنع خطأ ، وتعرض رصيدها من القيم الإنسانية للضياع ، إذا هي جعلت المثل الأمريكي مثلها في الشعور والسلوك ..

إن ذلك لا يعنى أن الأمريكان شعب بلا فضائل ، وإلا لما أمكنه أن يعيش ، ولكنه يعنى أن فضائله هي فضائل الإنتاج والنظام ، لا فضائل القيادة الإنسانية والاجتماعية : فضل الذهن واليد ، لا فضائل الذوق والشعور .

سيد قطب

٣ ديسمبر ١٩٥١

□ □

أثناء وجوده في أمريكا ، اغتيل المرشد العام للإخوان (فبراير ١٩٤٩) الإمام حسن البنا .. لم يكن سيد قطب وقتها يعرف الكثير عن الإخوان المسلمين ، إلا أنه لفت نظره بشدة « ما أبدته الصحف الأمريكية ، وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أمريكا من اهتمام بالغ بالإخوان ، ومن شماته وراحة واضحة في حل جماعتهم وضربها ، وفي قتل مرشدها » كما قال سيد قطب فيما بعد .. وقد أضاف : أنه قرأ الكثير « عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب في المنطقة وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها ، وصدرت كتب بهذا المعنى سنة ١٩٥٠ ، أذكر منها كتاباً لجيمس هيوارد دن ، بعنوان : « التيارات السياسية والدينية في مصر الحديثة » .. كل هذا لفت نظري إلى أهمية هذه الجماعة عند الصهيونية ، والاستعمار الغربي ، وكان أن عاد إلى مصر ، ليجد شباب الإخوان قد جاء يناقشه في كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » .. بعد أن اعتبره صديقاً ، وبعد أن تصور أن إهداء الكتاب كان له .. وكان أن بدأت علاقته بالجماعة وإن لم ينضم إليها .. (١٥) ..

عاد سيد قطب إلى مصر في صيف ١٩٥١ .. كان عمره وقتها ٤٥ سنة .. ويبدو أن اتصالاته المتعددة والقوية بجماعة الإخوان ، جعلت البعض يعتقد أنه انضم إليها بعد فترة وجيزة من عودته .. وينقل « جيلس كييل » في كتابه « النبي والفرعون - التطرف الإسلامي في مصر » عن شهود أحياء من الإخوان (١٦) أن صالح عشاوي (صاحب مجلة الدعوة ومؤسسها) هو الذي أقنعه بالانضمام إلى الجماعة .. وأن ذلك كان بالنسبة له أحد تحولاته الكبرى .. لأنه قبل أخيراً الدخول في تنظيم ، بعد أن استمر أكثر من ربع قرن يرفض قيود التنظيمات والأحزاب .. وأنه قال بعد انضمامه إلى الإخوان :

« لقد ولدت من جديد عام ١٩٥١ » !

وفي رواية أخرى :

« أنا ولدت الآن فقط عام ١٩٥١ » !

لكن ...

سيد قطب ينفي مثل هذه الروايات في مذكرة اعترافه التي كتبها بعد أحداث ١٩٦٥ ... والتي قال فيها : (١٧) ..

« استغرقت أنا عام ١٩٥١ في صراع شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة : الإقطاع والراسمالية (١٨) وأصدرت كتابين في الموضوع غير مئات المقالات في صحف الحزب الوطني الجديد والحزب الاشتراكي ومجلة الدعوة التي أصدرها الأستاذ صالح عشاوي

(١٥) سيد قطب - « لماذا أعدموني » - كتاب « الشرق الأوسط » - ص ١١ .

(١٦) جيلس كييل - مترجم من الفرنسية إلى الإنجليزية - الناشر دار الساقي - لندن .

(١٧) سيد قطب - « لماذا أعدموني » - ص ١٢ .

(١٨) سنعرض لذلك بالتفصيل الفصل القادم

ومجلة الرسالة وكل جريدة أو مجلة قبلت أن تنشر لى ، بلا انضمام لحزب أو جماعة معينة وظل الحال كذلك إلى أن قامت ثورة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

وحسب ما أضاف ، انضم سيد قطب إلى جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٣ .
وسواء كان ارتباطه بالإخوان معنويا سنة ١٩٥١ ، أو تنظيميا سنة ١٩٥٣ ، فإن هذا الارتباط كان مرحلة جديدة فى حياته .

[٥]

ظلام فى نهاية النفق !

□ صورة تذكارية مع جمال عبد الناصر □ هجوم على علماء
الازهر □ مكتب في مبنى قيادة الثورة □ نشيد وطني في
كتاب مطالعة □ الديكتاتور العدل □ منشورات ضد
الثورة □ صحيفة تحت الأرض □ جسر مع الشيوعيين □
انحياز للمرشد العام للإخوان □ رأى في الدفاع
المشترك □ إحاسيس الأديب وحكمة السيلسي □ شهادته
وشهادة عبد الناصر في حادث المنشية □

قبل أن تقوم الثورة بشهور تعرف سيد قطب على جمال عبد الناصر ..

وتعرف أيضاً على عدد من الضباط الأحرار !

وليس من الصعب تخيل ذلك ، فقد كان جمال عبد الناصر على علاقة قوية بجماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة بحوالى ١٢ سنة ، كما كان عضواً في إحدى خلاياها في مطلع عام ١٩٤٤ .

ولابد أن جمال عبد الناصر - الذى كان في مرحلة يبلور فيها أفكاره وآراءه - قد شد إلى سيد قطب .. إلى ذلك الرجل النحيل ، خفيض الصوت ، شارد العينين ، الممتلئ ثقافة ، ولباقة ، وحماساً لا نتصور أن يفتر إلا بالموت .. فكانت حوارات الحديقة في بيته في حلوان .. وكانت مشاعر الود ، وكانت لحظات التفاؤل والمرح التى كانت تنتهى - أحياناً - بضوء « فلاش » يلمع وسط الظلام ثم يتلاشى بعد أن يكون أقنع عدسة « كاميرا » صغيرة بالنقاط صورة « تذكارية » .. ثم صورة أخرى .. فصورة ثالثة ، تظهر فيها شخصيات قدر لها أن تغير التاريخ فيما بعد ... وعلى وجه تلك الشخصيات كانت ابتسامة حلوة !

في هذه الصور كان سيد قطب وبعض الضباط الأحرار ... بينهم جمال عبد الناصر ، وقد شاء القدر - قبل مرور أقل من ثلاث سنوات على التقاطها - أن يتحول أبطال الصور - من رفاق إلى خصوم .. شاء القدر أن ينقسموا إلى فريقين .. فريق خارج القفص ، وفوق منصة القضاء وفريق آخر داخل القفص محاصر بأخطر الاتهامات .. كان عبد الناصر على رأس الفريق الأول .. وكان سيد قطب في قلب الفريق الآخر .. شاء القدر أن تلتقط صور « تذكارية » أخرى .. يختفى فيها الود ، والتفاؤل ، والمرح .. ويسيطر عليها الغيظ ، والموت والاعتقال .. وبين النقطتين ، كان على سيد قطب أن يرى ، ويعيش ، ويتفعل ، ويتغير ، ويضيف لخبرته الإنسانية الكثير .

بعد الثورة .. في حديقة بيته ، قال للكاتب سليمان فياض :

« هنا ، تحت هذه الشجرة ، كان الضباط الأحرار يعقدون اجتماعاتهم معي ، في فترة التمهيد للثورة » .

ثم .. وهو يقلب مجموعة الصور القديمة ، أشار إلى جمال عبد الناصر وقال :

— هذا هو قائد الثورة الحقيقي ، يتوارى الآن ، وراء نجيب ، وغدا سيكون له شأن آخر !
وقد كان !

□□

في تلك الأيام ، كانت مصر « حبلى » بالثورة .. وعلى وشك أن تضع حملها .. وكان النظام « الملكى » لا يملك مبررا واحدا للصمود والبقاء والاستمرار .. وكان الإخوان المسلمون يراهنون على تنظيم « الضباط الأحرار » بعد أن استقر في يقينهم أنه لا خلاص بدون الجيش ... ومن ناحيته راح سيد قطب - الذى علينا أن نلاحظ تحوله الآن من الأدب إلى السياسة - يسدد ضربات موجعة - على صفحات الجرائد والمجلات - لما تبقى من النظام .. إنه الآن يعلن يأسسه من الليبرالية والديمقراطية والأحزاب وعدالة « الباشوات » و « الكروش » الاجتماعية . وتقاعس المشايخ ورجال الدين عن أداء دورهم الحقيقي ، وتحالفهم - أحيانا - مع السلطة .. حتى أنه بصريح العبارة قال : « إن هذا الوضع الاجتماعى السيء الذى تعانى به الجماهير فى مصر .. غير قابل للبقاء والاستمرار » .. و « لا يحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء » .. « إن صوتا سيرتفع بعد ذلك كله ، ولن يمكن إسكاته أبداً .. صوت المعدات الخاوية ، التى تملأ جنبات هذا الوادى . صوت الملايين التى تبذل العرق والدماء ، ولا تنال مقابلها لقمة الخبز جافة ، ولا خرقة الكساء متواضعة » (١) .

ويستفزه بيان صادر من « هيئة كبار العلماء » .. إن البيان يأخذ صورة « عريضة » مرفوعة إلى رئيس الحكومة ، تتحدث عن فزع كبار العلماء من الفجور والمجون واستهانة الناس بأوامر الدين ونواهيه ، وجنوحهم إلى ما يخالف تقاليد الإسلام .. « من حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها الرجال والنساء » .. « إلى أندية يباح فيها القمار » .. « إلى ملاعب للسباق والمراهنات » .. « إلى مسابقات للجمال » .. « هى معارض للفسق والإثم » .. « إلى شواطئ فى الصيف يخلع فيها العذار ، ويطفئ فيها الأشرار » .. ولم يقترب « البيان - العريضة » من الظلم الاجتماعى الصارخ .. ولا من الفقر المدقع .. ولا من فساد الحكم .. وهذا بالتحديد ما استفز سيد قطب ، الذى علق قائلا : « وى ! وى ! أو هذا هكذا أيها العلماء الأجلاء ؟ ياسبحان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! حقا إن الأمر جلل يوجب النعمة ويستوجب اللعنة ... ولكن ! وقد قدر لشفاكم الشريفة أن تنفجر عن كلام فى المجتمع ، أفما كانت هناك كلمة واحدة تقال عن المظالم الاجتماعية الفاشية ، وعن رأى الإسلام فى الحكم ، ورأيه فى المال ، ورأيه فى الفوارق الاجتماعية التى لا تطاق ، ... وما الذى كنتم تنتظرونه أيها السادة الأجلاء من أوضاعنا الاجتماعية التى تجد منكم السند والنصير ، والتى يصيبكم البكم فلا تشيرون إليها عارضة من قريب أو من بعيد ، لأن السكوت عليها من ذهب : ذهب إبريز » (٢) .

إن سيد قطب الذى كان - حتى ذلك الوقت - يؤمن أن الأخلاق صورة للنشاط الاقتصادى

(١) سيد قطب - مقال « صيحة نذير » - كتاب « معركة الإسلام والراسمالية » - ص ٥ .

(٢) سيد قطب - مقال « إنى اتهم » - المرجع السابق - ص ١٦ .

والاجتماعى ، لا يتردد فى أن يقسو فى نقده على رجال الدين .. الذين يحافظون على الأوضاع الاجتماعية .. ثم .. يكتفون - من باب أداء الواجب بمطالبة الناس بالاحتشام . إن رجل الدين فى رايه لا يمكن أن يكتفى بالمواظ . وإنما عليه - قبل أى شئ - أن يلعب دورا اجتماعيا فى اتجاه التنوير .. والتغيير .

إلى هذا الحد كان ينظر إلى الأمور !

لذلك .. نجده يقترب من كل المشاكل التى كان يعانى منها الناس ، مثل مشكلة « عمال التراحيل » .. وحرمان خدام المنازل وموظفى الحكومة من « حق تكوين النقابات » .. والفقر المدقع « الذى دفع أعدادا متزايدة من الناس إلى التسول ، والبحث عن الفتات فى صناديق القمامة » .. و « الخرافة التى تتحدث عن « الأمة مصدر السلطات » وعن حق الانتخاب وحق الاختيار » فى مجتمع ، الملايين فيه جائعة هزيلة ، جاهلة ، مستغفلة ، مشغولة نهارها وليلها بالبحث عن اللقمة . .

واقترب من قضايا الذخيرة الفاسدة فى الجيش .. وتهريب التموين إلى إسرائيل .. والاختلاسات فى الأموال العامة .. وخرافة تكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون فى مثل هذه الظروف .. « أما حرية القول وحرية الفكر فيسأل عنها القلم السياسى ، وتسأل عنها المعتقلات والسجون ، وتسأل عنها حوادث التعذيب فى كل قضية سياسية فى تاريخ مصر الحديث » (٣) . ولم ينس - وسط كل هذا - أن يحذر من أن يكون البديل هو الشيوعية .. عملا - على حد قوله - بالمثل العامى الذى يقول « ضربوا الأعور على عينه قال : خسرانة خسرانة » ... ذلك أنه كان يدعو - على ما يبدو - لإزالة الفوارق الاجتماعية السحيقة ، ليس لرفع الظلم الاجتماعى عن الفقراء فقط ، وإنما لإغلاق الأبواب أمام الشيوعية أيضاً .. فهذه البيئة السوداء هى البيئة المناسبة لنمو وازدهار الشيوعية كما قال .. ولا بد أن نذكر بالمناسبة أن هذه الدعوة الإصلاحية بدت مشابهة إلى حد بعيد للأسلوب الذى اقترحتة الولايات المتحدة لإنقاذ مصر فى ذلك الوقت (حتى ولو لم يكن هناك تدبير أو اتفاق) .. ويمكن تلخيص هذا الأسلوب فى أن الإصلاح الاجتماعى عند حد معين يمنع الشيوعية .. والتغيير إلى درجة معينة يمنع تحول الغليان إلى انفجار .. إلى ثورة دموية ! (٤) . يمكننا الآن أن نحدد ما انتهى إليه سيد قطب فى تلك الفترة من حياته وأفكاره وتحولاته .. قبيل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى نقاط محددة .. متصلة .. رغم انفصالها الظاهر :

١ - عدااء واضح للشيوعية .. وتحذير لا ينتهى منها .

٢ - إعجاب غير خفى بالعبرية الأمريكية فى الإدارة والإنتاج والتكنولوجيا .. مع « استخسار » ذلك كله لبدائية المشاعر والذوق والسلوك عند الأمريكين .

(٢) المرجع السابق - ص ٢١ .

(٤) يعترف حسين محمد أحمد حمودة ، وهو من الضباط الأحرار ، ومن الإخوان أنه بعد الثورة سافر إلى أمريكا فى زيارة رسمية للقوات الأمريكية ، وهناك لفت نظره دراسة فى كلية الحرب هناك عن « الحزام الممعدى » كشف فيها الأمريكان عن أملهم فى عمل حلف إسلامى عسكرى أمريكى لمقاومة الإلحاد والشيوعية - انظر كتابه « أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمين » - ص ٩٠ .

٢ - رفض الليبرالية - والديمقراطية الحزبية والبرلمانية بسبب ظاهر على الأقل ، هو ما انتهت إليه الأوضاع الاجتماعية في مصر .

٤ - الدعوة إلى الإسلام كنظام اجتماعي ، اقتصادي بديل ، من خلال برنامج إصلاحى يعالج سوء توزيع الملكيات ، الثروات .. ومشكلة العمل والاجور .. وعدم تكافؤ الفرص .. وفساد جهاز العمل وضعف الإنتاج .. إلا أنه لم يحدد كيف يكون شكل نظام الحكم ولا طبيعته في ظل نظريته الإسلامية المتطورة .

يضاف إلى ذلك ..

تأييده للعمل الفدائي المضاد للاحتلال البريطاني في منطقة قناة السويس .. ورفضه اخضاع « كتائب الفدائيين التي تريد الحكومة تطويقها - لسيطرتها » .. وكان أن طالب الحكومة أن تفكر بعقلية أخرى غير عقليتها .. فهي تفكر « بعقلية السلم في إبان المعركة ، وتشتغل بوسائل الدبلوماسية ودماء المصريين وأعراضهم تفتك في كل مكان » .. وفي مقال نشره بجريدة « الدعوة »^(٥) اضاف : « وأنا لا أطلب الوزارة أن تعلن الحرب ، ولا أن تدفع بالجيش إلى المعركة في هذه الظروف ، ولكن أطلب إليها أن تدع الشعب يؤدي واجبه ، وإلا فسيؤدي واجبه سواء رضيت هذه الوزارة أم كرهت . سيؤدي الشعب واجبه سواء كانت هذه الوزارة معه أم عليه . وعليها هي أن تحتل تبعة الحرب الأهلية التي تثيرها لو شاعت أن تقف في طريق الشعب وأن تحل بينه وبين واجبه المقدس في أخرج الظروف » .

□□

قامت الثورة - التي سميت في بدايتها - بحركة الجيش ...
و ... نجحت !

منذ اللحظة الأولى ، أيدها الإخوان المسلمون .. اعتبروها ثورتهم .. قامت لحسابهم .. فوصفوها بالحركة « المباركة » .. وظهر والد حسن البنا - في المركز العام - لأول مرة منذ اغتيال ابنه ، وشق صفوف المصلين ، ثم بعد أن صعد المنبر استدار إليهم قائلاً : « أيها الإخوان ، اليوم تحققت رسالتكم ، إنه فجر جديد بالنسبة لكم .. ويوم جديد للأمة ، فاستبقوا الفجر أيها الإخوان » .. وبسبب ارتباطهم الشائع بتنظيم الضباط الأحرار ، أيقنوا أنهم أصبحوا في السلطة ، ثم راحوا يتصرفون على هذا الأساس .. فكان أن رفضوا عودة البرلمان الوفدي الأخير .. وكان أن رفضوا استمرار الأحزاب .. وكان أن اعتبروا دستور ١٩٢٣ - من الناحية الفقهية - كأن لم يكن !^(٦) .

لم يخف سيد قطب حماسه للثورة .. وتطورت علاقته برجالها .. وعندما نظم - بعد شهر واحد من قيامها - مؤتمر « حرية الفكر في الإسلام » كانت تهنئة جمال عبد الناصر ، ومحمد نجيب من

(٥) سيد قطب - مقال « أيها الفدائيون امضوا في طريقكم » جريدة « الدعوة » - ٢٠ نوفمبر ١٩٥١ .

(٦) انظريان « الإخوان المسلمون » عن « الإصلاح المنشود في العهد الجديد » - أول أغسطس ١٩٥٠ .. ويلاحظ بخصوص ارتباط الإخوان بالثورة أن ثلث ضباط الثورة كانوا من الإخوان أو المتعاطفين معهم على الأقل .

نصيبه .. والذين عاصروا تفاصيل الأيام الأولى ، والسنوات الأولى للثورة يؤكدون أن سيد قطب كان له مكتب في مبنى « مجلس قيادة الثورة » وأنه كان يقيم هناك إقامة شبه دائمة .. حيث أوكلت إليه هو وسعيد العريان - مهمة تغيير مناهج التعليم .. وهى - كما نرى - مهمة تربوية لا سياسية .. كما أن تكليفه بها كان يعكس طبيعة نظرة رجال « يوليو » له .. وهى نظرة كانت مناسبة لخبرته وتخصصه في مجال التعليم ، ثم إنها كانت فرصته لتنفيذ أفكار الإصلاح التى رفضها من قبل وزراء « المعارف » الذين خدم معهم في العصر الملكى .. وعلى رأسهم كان الدكتور طه حسين .. وفي ذلك الوقت عرف كمال الدين حسين عن قرب .. الذى رشحه ليتولى منصب وزير التربية والتعليم .. المنصب الذى تولاه هو بنفسه .. وفي ذلك الوقت كانت كتاباته ومؤلفاته توزع على المدارس التابعة للوزارة بأمر كمال الدين حسين .. كما أن أناشيده الوطنية كانت تدرس للتلاميذ في دروس المطالعة .

ويؤكد ذلك ، ما جاء في رسالة عبد الحكيم عامر إلى كمال الدين حسين بعد أحداث ١٩٦٥ .. فقد أرسل كمال الدين حسين إلى عبد الحكيم عامر رسالة يتشكك فيها أن يكون ما نسب إلى سيد قطب صحيحا .. ورفض أن يكون متآمرا .. متطرفا . فكان أن قال لعامر - عبارته الشهيرة التى قالها للسادات بعد ذلك - عبارة « اتق الله » .. وكان أن رد عليه عامر في رسالة أخرى قال فيها : « أريد سيد قطب الذى كنت توزع كتبه أن يصنع من نفسه نبيا ينزل عليه الوحي » .. وهذه الفقرة من الرسالة توضح إلى أى مدى كانت الحكومة تهتم بنشر أفكاره ومؤلفاته ، وتقررها على المكتبات المدرسية ، وخصص القراءة الحرة .

وقد ظلت مؤلفات وأناشيد سيد قطب في المدارس الحكومية حتى بعد القبض عليه سنة ١٩٥٤ ، ولم يبدأ التخلص منها إلا بعد ١٠ سنوات .. بعد أحداث ١٩٦٥ .. فكان أن جمعت مؤلفاته من المدارس ، ونزعت صفحات الأناشيد ، وتشكلت لجان خاصة للتنفيذ ، وقع أفرادها على محاضر رسمية رفعت لجهات الاختصاص العليا .. كما أن « دار المعارف » .. الدار التى كانت تنشر كتبه ، تولت من نفسها جمع ما في مخازنها ومكتباتها من نسخ .. وأحرقتها .. وكان تصرفها شاذاً وغريباً بالقياس إلى تصرف جهاز الأمن ، الذى صادر الكتب التى كانت في بيوت المتهمين ، وسلمها إلى « دار الكتب » .. التى - لم تحرقها - وإن ألقتها في مخازنها الرطبة ، بعد أن حولتها إلى « عهدة » توارثها عدد كبير من صغار الموظفين !

باختصار .. تعاملت الثورة مع سيد قطب كمفكر ، وكتربوى ، ولم تتعامل معه كسياسى ... وقد بقى في منصبه بالوزارة حتى ١٨ أكتوبر ١٩٥٢ ، حيث قدم استقالته ، لكن المستشار الفنى للوزارة « اسماعيل القباني » حاول أن يثنيه عنها .. وبعد عام تقدم « القباني » بذاكرة إلى مجلس الوزراء ، أكد فيها أن سيد قطب « به بعض النواحي الطيبة التى يمكن الاستفادة منها ، وأن له من قوة التفكير وكفايته ما يجعله قادرا على الإنتاج » .. وهذا ما جعل « القباني » يحاول أكثر من مرة أن يثنيه عن الاستقالة وأن يعود إلى عمله .. لكنه رفض .. وظل أكثر من العام « ممتنعا عن العمل » .. في نفس المذكرة ، طلب « القباني » من مجلس الوزراء « مد خدمته عامين حتى تكمل المدة القانونية لمعاشه » لكن بسبب تأزم العلاقات - في ذلك الوقت - بينه وبين الحكومة ، قبلت

الاستقالة في تاريخها ، ودون إضافة يوم واحد إلى مدة خدمته - (راجع - د . مكي - الهلال - مصدر سابق) .

أصر سيد قطب - منذ الأيام الأولى للثورة - على ألا يكتفى بعمله التربوي ، وأن ينزل الساحة العامة ، كسياسي ، كمقاتل .. وكان أن وجد نفسه في صفوف الثورة بعض الوقت .. ثم في صفوف خصومها معظم الوقت .. ومن المذهل أن نجده يوجه عبر صفحات جريدة « الأخبار » اليومية (صباح ٨ أغسطس ١٩٥٢) رسالة مفتوحة إلى اللواء محمد نجيب ، طالبه فيها بإقامة ما أسماه « ديكتاتورية عادلة » !

بالحرف الواحد .. قال !

« إن الدستور الذي سمح بكل ما وقع من الفساد ، ليس فساد الملك وحاشيته فحسب ، ولكن فساد الأحزاب ورجال السياسة ، وما تحمله صحائفهم من أوزار ... أيضاً .. إن هذا الدستور لا يستطيع حمايتنا من عودة الفساد إن لم تحققوا أنتم التطهير الشامل .. الكامل ، الذي يحرم الملوئين من كل نشاط دستوري ، ولا يبيح الحرية السياسية إلا للشرفاء ...

لقد احتمل هذا الشعب ديكتاتورية طاغية ، باغية ، شريرة ، مريضة مدى خمسة عشر عاماً أو تزيد ، أفلا يحتمل ديكتاتورية عادلة نظيفة ستة شهور ، على فرض أن قيامكم بحركة التطهير يعتبر ديكتاتورية بأي حال من الوجوه » (٧) .

لن نلوى - بالقطع - عنق هذا النص ولا حتى ذراعه ... وإن نرقص على عباراته وكلماته رقصة همجية .. بربرية .. ثم نصرخ بأعلى صوت : ها هو سيد قطب يطالب بالديكتاتورية .. لن نفعل ذلك لأننا لا نرشق الخناجر في الظهور .. ومن الأفضل أن نفهم ونفسر ، لا أن نتهم وندين ... إنني - كما قلت - أعتقد أن سيد قطب لم يفكر - رغبة منه في التخلص من الظلم الاجتماعي - في الصورة التي يتصور أن يكون عليها النظام السياسي .. ولم تسعفه الظروف والأحداث - وقد راحت تتوالى وتتزاحم - للتفكير في بديل الليبرالية الملكية الفاسدة .. كما أنه أخذ موقفاً معادياً من الديمقراطية الحزبية بسبب انحطاطها وعجزها الواضح في التجربة المصرية .. كذلك فإن نظريته الإسلامية « نحو مجتمع متطور » كانت - على ما يبدو - لا تعتقد في التعددية الحزبية ... فكان أن أعجبه - كأديب - تعبير « الديكتاتورية العادلة » دون أن يملك - كسياسي - الخبرة الكافية لتحديد أبعاد تلك الديكتاتورية ، ولا خطورتها ، ولا حتى ما المقصود بها .. فهو لم يحدد مواصفات الديكتاتور العادل .. ولم يقل لنا متى ينقلب الديكتاتور العادل إلى ديكتاتور ظالم ؟ .. بل إنه لم يتساءل : هل هناك ديكتاتور طيب ، وآخر شرير ؟ ! .. اليس الديكتاتور ديكتاتوراً - في كل الحالات - ولو كان ملاكاً من السماء ؟

ولابد أنه كان « رومانسيا » وهو يحدد مدة التطهير بستة شهور ... كان يعتقد أنها تكفي لإصلاح ما أفسده العهد الملكي ... كما أنه كان « رومانسيا » عندما تصور أن الديكتاتورية

(٧) جريدة الأخبار - نقلاً عن عبد الله إمام : « عبد الناصر والإخوان المسلمين » - الطبعة الثانية - ١٩٨٦ .

(حتى ولو كانت عادلة) يمكن أن تترك الحكم من تلقاء نفسها بعد انتهاء الستة شهور .. إن هذا لو كان من الممكن حدوثه ، فإنه بالقطع لا يتحدث عن الديكتاتورية ... وإنما عن الديمقراطية ! إن البراعة الأدبية لسيد قطب (٢٥ سنة أديباً مقابل سنة واحدة في العمل السياسي) لم تكن لتكفى لأن يكون صاحب نظرية سياسية .. أو صاحب فلسفة أو « طريقة » حكم ... كما أن اقتراحه الأدبي « الديكتاتورية العادلة » عندما تحول إلى سياسة ، نفذت فيما بعد ، صرخ منها الإخوان - وعلى رأسهم سيد قطب - بعد أن طبقت عليهم ، واكتووا بنيرانها ... فما كاد سيد قطب يطالب اللواء محمد نجيب بأن يكون ديكتاتوراً عادلاً ، حتى انبسط « الجنرال » الطيب من التعبير ، وراح في كل مكان - وفي كل مناسبة - يتحدث عنه ، وبفرح وسعادة ، يصف نفسه به .. ثم كان ما كان !

في أغسطس ١٩٥٢ ، وفي جريدة « الاخبار » أيضاً ، طالب سيد قطب بالحرية لكل القوى السياسية التي كانت في السجون بما فيها « الشيوعيين » ... لأنهم - على حد قوله - « كغيرهم ممن كانوا يكافحون الطغيان » ... ولأنهم من « الشرفاء » الذين ينبغي أن نقارعهم الرأي بالرأي ، والحجة بالحجة ، ولا نلقاهم بالحديد والنار . (٨) وبهذا الرأي بدا سيد قطب ليبرالياً أصيلاً ، واثقاً في نفسه وفيما يعتقد .. ثم .. إنه بهذا الرأي غطى بعض عيوبه السياسية التي فضحت بحكاية الديكتاتور العادل .

لكن .. هذه الحالة لم تستمر سوى ثلاثة أيام فقط !

وقعت أحداث « كفر الدوار » وسارع مجلس قيادة الثورة باتهام الشيوعيين بتدبيرها .. ودون تحقق ، وقبل أن تكتمل ملامح الحقيقة ، أيد سيد قطب اتهام مجلس قيادة الثورة .. وراح في نفس الصحيفة يهاجم الشيوعيين ، ويلعنهم ، ويصفهم « بالدنس » ... لأنهم يحاربون عهداً « كالعهد الذي أشرق فجره منذ أيام » !!

فيما بعد .. بعد أن انتهى شهر « العسل » بين الإخوان والثورة ، وبدأ الصدام العنيف بينهما ، وجد الإخوان أنفسهم ، يقعون في نفس « الدنس » .. دنس محاربة العهد الجديد « الذي أشرق فجره » !

لقد طالب سيد قطب بالحرية للإخوان ... باعتبارهم « الشرفاء » ، وطالب بالبطش لغيرهم ، باعتبارهم « الملوئين » .. وتصور المفكر الرومانسي الرقيق - الذي ينزل حلبة الصراع أول مرة - أن نيران الديكتاتورية يمكن أن تدفئهم وهي تحرق خصومهم .. لم يتصور أن السنتها يمكن أن تمتد إليهم .. لكن تصوره « طاش » .. وامتد الحريق إليهم ... إنه على ما يبدو لم يسمع بالمثل الأمريكي الشهير .. « إذا فتحت الباب فإنك لا تستطيع أن تتحكم في كمية الرياح » ! وكان .. أن انزلق الإخوان متسللين من فوق الأرض إلى تحتها .. حاملين معهم رغبة عارمة في إنقاذ ما يمكن إنقاذه !

□ □

(٨) سيد قطب - مقال : « حركات لا تخيفنا » ..

إن قصة الصدام بين الإخوان والثورة ، قصة رويت عشرات المرات ، من مختلف الاطراف ... ولا تزال ... وليس من الحكمة التورط فيها .. لأنها ستخرج بنا عن الطريق الرئيسى إلى متاهات .. وأزقة .. كما أنها أصبحت مثل التحصيل الحاصل .. إذ أن كل طرف لا يصر إلا على تجريم الطرف الآخر .

لكن

هذا لا يمنع أن نضيف بعض التفاصيل الجديدة ، غير المتداولة ، حصلت عليها من وثائق قضية انقلاب ضباط المدفعية ..^(٩) وكانت الوثائق الرسمية الوحيدة التى تؤرخ لفترة « حضانة » الثورة . وما كان يجرى فيها من صراع وراء صفوفها .. لقد كانت هذه القضية - التى حدثت بعد ستة شهور على قيام الثورة - بمثابة أول صراع داخل صفوف « الضباط الأحرار » ، على شكل الحكم وطبيعة السلطة .. وقد وصل الصراع - الذى بدأ بعد أقل من شهرين على نجاح الثورة - إلى الذروة بعد أن راح كل فريق يتحسس سلاحه ، ويحصى رجاله ، ويحكم خطته ، ويفتش عن القوى السياسية والشعبية - خارج الثكنات - التى يمكن أن تساعده ... وفى الوقت المناسب تدخل ليحسم الأمر .. وكان أن فتحت بوابة سجن « الأجانب » ووضع فى حجراته ضباط المدفعية .. وبهذه السابقة الأولى من نوعها ، انتهى فعلياً تنظيم « الضباط الأحرار » .

تشير محاضر التحقيق فى هذه القضية إلى وجود علاقة « ما » بين الضباط الأحرار الغاضبين - وبعضهم من الإخوان - وبين المرشد العام « حسن الهضيبى » ... فعلى حد اعتراف أغلبهم أنهم قابلوه فى بيته ، وعندما سألوه عن شعور الإخوان بالنسبة لحركة الجيش ، قال : « والله احنا مش قادرين نفهمكم » .. وقد قال لى زعيم الحركة والمتهم الأول « محسن عبد الخالق » ، إنه عندما قابل الهضيبى ، قال : « هذا الاجتماع لمصر » ، ثم جعلهم يقسمون على المصحف بأن يكون الحوار الذى يدور سرا .. فأقسموا .. فقال : « أنا فى أزمة مع الثورة » .. وه لا بد من إلغاء الأحزاب على أن يكون الإخوان حزب الثورة » ... ثم فوجئ الضباط أن الهضيبى يبلغ عبد الناصر بما حدث ، ويقول له : « إن ضباطك ثائرون عليك ، وعندك مشاكل فى الجيش » .. وكرر عبد الناصر ما سمعه من الهضيبى على محسن عبد الخالق ، الذى أصبح فى حلٍ من قسمه ، فقال له : لا ... ما حدث كان كيت وكيت .. وعلى حد قول محسن عبد الخالق : فهم جمال عبد الناصر ما كان يرمى إليه المرشد العام .. « ومن يومها وهو يخشى الإخوان ، وأصر على ضربهم فى الوقت المناسب » .

ضباط المدفعية المرتبطون بالإخوان ، خرجوا من بيت الهضيبى إلى كافيتريا « أسترا » - كافيتريا كانت شهيرة فى ميدان التحرير - وأبلغوا زملاء لهم كانوا ينتظرونهم : أن الحركة على وشك أن تفقد الإخوان .. فتضاعف ضغط البخار .

تشير محاضر التحقيق أيضاً : أن جزءاً كبيراً من سوء التفاهم بين الإخوان والثورة سببه

(٩) حصلت على وثائق هذه القضية من اللواء محمد نجيب بعد أن توثقت صلتى به أخيراً ، وكانت الوثائق مهمة فى مخزن البيت الذى كان يقيم فيه بضاحية المرج .. وقد نشرت أغلبها فى كتاب : « نهاية ثورة يوليو » - مع لقاءات حية مع أبرز المتهمين فيها - الناشر « مكتبة مدبولى » .

تصرفات صغيرة .. أغلبها ثبت أنه شائعات .. فقد قال البكباشى مصطفى راغب (من الضباط الأحرار واحد المتهمين الكبار) : أنه سمع من رشاد مهنا (كان الوصى على العرش وله ارتباطات إخوانية) أن هناك فكرة لإلغاء المادة الثانية من الدستور التى تنص على أن الإسلام دين الدولة الرسمى ، وأن المصر على الإلغاء البكباشى جمال سالم ، الذى قال : « أنا لا يهمنى أن تتزوج ابنتى من يهودى أو أمريكانى » ، .. وفيما بعد بقيت المادة الثانية من الدستور على حالها !

قال مصطفى راغب أيضاً : إنه عندما توجه إلى بيت الشيخ محمد الاودن (من الإخوان وكان يلقب بالاب الروحى لحركة الجيش) لتهنئته بمناسبة تعيينه فى لجنة الدستور ، قابل عنده رجلا درويشاً ، يلبس أخضر فى أخضر ، ومجدوباً ، وقد بادر المجدوب الشيخ الاودن قائلاً : لا تستقبل فى بيتك أى عمة من عمم الأزهر لأن كلهم جواسيس ، والضابط ده (مشيراً لمصطفى راغب) جاسوس ، والبلد لن تنال خيراً على أيدي العسكريين ! وكان هذا المجدوب قاضياً فى المحاكم الأهلية ثم انجذب !

... وهكذا ... كان يبدو الصراع أحياناً .

إن سوء الفهم .. وسوء النية أحياناً .. وتبادل رسائل ذات مغزى عبر وسطاء .. وإطلاق الشائعات .. والخرافات .. كانت عناصر إضافية ، زادت من لهيب الصراع الأصيل على السلطة والحكم ، وكانت بمثابة المزيد من البنزين على النيران .

□ □

وصلت العلاقة بين الإخوان والثورة إلى طريق مسدود !!

فى صيف ١٩٥٤ بالتحديد فى أواخر شهر أغسطس ، توجه سيد قطب إلى بيت حسن الهضيبي (وكان قد عاد قبل أيام من سوريا) وكرر عليه من جديد اقتراحه الدائم .. وهو أن على الإخوان المسلمين أن يقوموا بواجبهم فى المطالبة برد الحريات الشعبية ، وخاصة الضمانات القانونية ، .. وفيما بعد .. أمام محكمة « الشعب » أضاف سيد قطب فى شهادته : « كنت أود ، وكنت أدفع الجماعة أن تكون جماعة شعبية ، أى أن تطالب بقضايا الشعب مطالبة علنية ، وتؤدى دورها فى هذا باعتبارها أكبر جماعة فى البلاد ، ومن واجبها ألا تترك قضية أو مظلمة من مظالم الشعب إلا وتتبنها ، وتدافع عنها ، وتخرج إلى الطريق ، إلى الناس ، وتذكر لهم أغراضها ، وتقود الحركة الشعبية » . (١٠) ..

يبدو أن العيون رصدت لقاء الرجلين (الهضيبي — قطب) ، والأذان سمعت ما دار فيه ، فكان أن ضاعفت أجهزة الرقابة من ضغطها على صحيفة « الإخوان المسلمون » التى كان يشرف على تحريرها سيد قطب ، حتى لا تلعب جزءاً من الدور المطلوب .. وراح الرقباء يشطبون بوعى وبدون وعى .. وامتدت أقلامهم إلى آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ... وكان أن قرر سيد قطب إغلاقها بنفسه ، وفيما بعد قال : « أغلقت الجريدة باختيارى لأنى لم أستطع أن أنشر فيها ما أريد بسبب الرقابة » . (١١) .

(١٠) شهادة سيد قطب أمام محكمة الشعب - ج ٦ - ص ٢٥٨ .

(١١) المصدر السابق .

البديل ... كان سلاح « المنشورات السرية » .. وإعلان الحرب على جمال عبد الناصر ورفاقه بهذا السلاح الذي أجادوا استخدامه من قبل .. وأطلق على هذه الفترة اسم « حرب المنشورات » .. وكان صاحب التسمية جمال عبد الناصر نفسه .

حسب اعتراف الإخوان ، تولى أفراد الجهاز السرى (النظام الخاص) مهمة طبع وتوزيع تلك المنشورات ، وتفننوا فى أسلوب التوزيع فعلاً ، وتفننوا فى اختيار الحجم المناسب للمنشورات ، حيث لم تزد على طريقة مطوي بعضها على بعض حتى صارت فى صورة أربع وريقات كل منها فى مساحة الكف ، مطبوعة طبعاً رديئاً ... ولم يتردد الإخوان فى استخدام أسلوب التشهير والافتراء - باعترافهم - ضد جمال عبد الناصر ، ففى أحد هذه المنشورات اتهموه بأنه عقد معاهدة سرية مع الإسرائيليين أثناء حصار الفالوجا (حرب فلسطين - ١٩٤٨) ، فذهب محمود عبد الحليم (عضو الهيئة التأسيسية للإخوان) إلى قيادة النظام الخاص ، وكلمهم فى هذا الشأن ، واحتدمت المناقشة بينه وبينهم ، فقال : « وإن كنت أرى جمال عبد الناصر أسوأ مما ترون - فإننى لا أرى لنفسى ولا لدينى أن أرميه بواقعة معينة ليس معى دليل عليها سوى ما يشيعه زملاء له كانوا محاصرين معه فى الفالوجا ، ... » « إننا أصحاب دعوة ودين .. ومثل هذا الاتهام لا يأتى استنتاجاً مهما تجمعت قرائن الاتهام » . (١٢) .

امتلات منشورات الإخوان السرية بالأدبيات ... وإن كانت أدبيات تحرض على التمرد السياسي .. مثل : « تعالوا نشترى الجنة بسياط العذاب ورصاص أعداء الله » ... « تعالوا نرق الدم المسفوك والدم الساخن ليكون أوسمة نحلى بها صدور الشهداء » .. « اللهم أزل دولتهم ، واكسر شوكتهم ، وفرق جمعهم ، واجعل بأسهم بينهم ، وانصرنا عليهم يا خير الناصرين » .. الخ .. تلك العبارات التى كانت تختفى فيها القدرة على التحليل السياسي !

□ □

كانت تعليقات سيد قطب الساخنة على الأحداث سبب تدخل الرقباء فيما كانت تنشره صحيفة « الإخوان المسلمون » ، حتى أغلقها .

ولا بد أن الكتابات كانت تحريضية .. وغاضبة .. ومباشرة .. ولا بد أن أسلوبها الأدبى قد قلل من تحليلها السياسي أيضاً .. وإذا كانت هذه إحدى سمات ذلك الجيل .. تأديب السياسة .. أو تسييس الأدب ، فإن الزمن قد تغير .. وبدأت الصحافة تستقل بلغة خاصة .. جديدة .. سريعة .. تمتلئ بالأرقام والمعلومات .. وتتعامل مع الأدب باستقلال وأدب .. لكن .. سيد قطب لم يعترف بهذا الاستقلال ... وكتب فى السياسة كما كتب فى النقد .. نفس الصياغة .. نفس التدفق .. ونفس الحماس .. ربما .. لأنه لم يتصور نفسه صحفياً .. ربما .. لأن هذه « الإنشائية » كانت طبيعة صحافة الراى التى يفضلها .. ربما .. لأنه مفكر ، ومصلح ، يريد أن يلهب مشاعر الناس ويجعلهم يتبعونه .

(١٢) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون .. أحداث صنعت التاريخ - ص ٢١٤ .. ويلاحظ أن نفمة اتهام عبد الناصر بالتعامل مع إسرائيل ، عادت للارتفاع بعد ٢٢ - ٢٣ سنة من هذه الواقعة ، وقد حدث ذلك بعد أن هدأت حملة التشهير به ، وبصورة مفاجئة أثارت الشك والريبة .

وحتى لا نقطع الاسترسال التاريخى بدرس فى البلاغة ، سنكتفى - للتدليل على ما نقول -
بفقرات من مقال له عن حدث كان من أحداث الساعة .. قضية « الدفاع المشترك » .. وهو
موضوع عسكرى ، سياسى ، استراتيجى ... فكيف تناوله ؟ (١٢) ..

« إن الدفاع المشترك فى أية صورة من الصور ، أو الانضمام إلى معسكر معين بأى وضع من
أوضاعه ، معناه تعريض هذا البلد الأعزل للخراب والدمار . هذا البلد المكشوف الذى ما تزال
حياته تتوقف على خزان أسوان ، وقنبلة واحدة تكفى لتحطيم هذا الخزان ! أى لتحطيم مصر كلها
أجيالاً بعد أجيال !

« إنها جريمة وطنية أن نربط أنفسنا إلى عجلة معينة فى صراع الجبابرة القادم ، فوق أنها
جريمة فى حق الكرامة والشرف والضمير . الكرامة التى داستها الديمقراطيات الغربية مرتين ،
وما تزال تدوسها فى تبجح ، لا يقيم لهذا الشعب وزناً لأنه يرتكن إلى المصلحة المشتركة بينه وبين
عهود الإقطاع .

.....

« لقد شبعنا من منظر السكارى العربدين من مجنديهم ، والمائعات المستهترات من
مجنداتهم ، ومن تلك القذارات الآدمية التى جلبوها معهم ، أو التى خلفوها لنا ، مئات وألوف من
الأعراض الملوثة ، والكرامات المهذرة ، والعار الذى تأنف منه الرجال .. والنساء ..

.....

« لسنا مستعدين مرة أخرى أن نخطف بناتنا من الطرقات والبيوت ليهدر عفافهن فى
المعسكرات والسيارات ، ولا أن نخطف أقواتنا وطعامنا من المزارع والأسواق ، لنصاب نحن
بالسل والجوع ، ولا أن نخطف أموالنا وأرصدتنا من البنوك ، لنواجه الأزمات والكساد ، ثم يقف
بعد ذلك مستعمر متبجح مثل مستر تشرشل ، ليمن علينا بنعمة الحماية ، يطالبنا لا بالتنازل عن
ديننا على بلاده ، بل بدفع تعويض عن تضحيات جنوده ... جنوده السكارى العربدين ،
الأوباش ..

.....

هكذا ... كان يكتب سيد قطب فى السياسة والأمن القومى ، والاستراتيجية !

□ □

أغلقت صحيفة « الإخوان المسلمون » ، وبدأت « حرب المنشورات » ضد الثورة ، فلم يتردد
سيد قطب فى مواصلة دوره سرا .. تحت الأرض .. فتولى الإشراف على نشرة « الإخوان فى
المعركة » .. وأغلب الظن أنها كانت موجودة من قبل إغلاق الجريدة العلنية ، لنشر ما يشطبه
الرقباء .. وفيما بعد سألت المحكمة « يوسف طلعت » عما كان يقوم بتحرير الأخبار فى تلك النشرة
السرية .. فقال :

(١٢) سيد قطب - مقال بعنوان « فى مفارق الطرق » .. تعليقا على مفاوضات الجلاء .

- موش فاكر !
— سيد قطب كان بيكتبها ؟
— أيوه يافندم !

ولأن الأمور وصلت إلى حد الحرب والمعارك ، كان لابد للإخوان من حلفاء يساندونهم ، ويدعمونهم .. وكان أن فكروا - صدق أو لا تصدق - في الشيوعيين .. وكان ممثل الإخوان في الاتصال بهم - صدق أو لا تصدق أيضا - سيد قطب ، الذي كان يرمز له حركيا - في تلك الاتصالات - بحرقى س . ق !

لقد حرص سيد قطب الثورة على الشيوعيين .. ثم .. ها هو لا يجد غيرهم يتحالف معهم ضد الثورة عندما تبدلت الأحوال .. وفي تلك الظروف كانت هذه « البرجماتية » السياسية ، تحمل شعارا ديمقراطيا .. وتحمل - وهذا هو الأهم أو الأغرب - تراجعا في موقفه من الديمقراطية . الديكتاتورية . الليبرالية . والشيوعية .

إن تلك الاتصالات - التي تبدو مفاجئة - لم تكن الأولى من نوعها .. ففي عام ١٩٥٢ سعت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) إلى جبهة وطنية طلابية من الشيوعيين والوفديين والإخوان لمواجهة « حركة الجيش » .. فكان أن تم الاتصال بالإخوان الذين رفضوا التحالف وإن لم يمنعوا شبابهم من الاتصال بمتدوبي الجبهة !

بعد حوالي السنة ، أعلنت صحيفة « راية الشعب » المعبرة عن الحزب الشيوعى المصرى (كان يرأسه د . فؤاد مرسى) أن الحزب وجماعة الإخوان القوتان الرئيسيتان اللتان تقاومان الثورة ..^(١٤) وبعد حوالي الشهر (في ١٦ يوليو ١٩٥٤) كان سيد قطب ومندوب الحزب يؤكدان : « أن الوطنى الآن هو الذى يعارض أن ترتبط بلاده بمعاهدة أو حلف مع الأعداء ، الوطنى هو الذى يكافح من أجل إسقاط الحكومة التى وضعها الأعداء على نفوسنا لتربطنا بعجلته وحروبه »^(١٥) ووافق سيد قطب على الدعوة إلى قطع مفاوضات الجلاء ، وإلغاء الأحكام العرفية ، وأكد أن « هناك نفرا من الإخوان الخونة الذين يسيرون وفق خطط الاستعمار » .. بتعاونهم مع الحكومة^(١٦) .. وكان من رأى الحزب الشيوعى أن إسقاط الحكومة مهمة الشعب ، أما الإخوان فكانوا يرون أن مفتاح التغيير أصبح في يد الجيش .

في ٢٠ أغسطس ١٩٥٤ ، حدث اتصال آخر .. ورغم أن الإخوان أكدوا أنهم أصدروا ١٠ آلاف منشور .. فإن الحزب الشيوعى كان يرى أن المظاهرات أخطر من المنشورات .. وكان رأى الإخوان أن المظاهرات تعرضهم للحل السريع ، ثم بعد نقاش طويل ، أبدوا استعدادهم للاشتراك في المظاهرات على ألا تستعمل هتافات الإخوان المعروفة وهى « الله أكبر » و« لله الحمد » !

لم يكتف الإخوان بهذا التحالف - المؤقت والإجبارى - مع الشيوعيين ، وسعوا إلى الجيش ..

(١٤) عبد العظيم رمضان - الإخوان المسلمون والتنظيم السرى - الناشر روز اليوسف - ص ١٩٩ .

(١٥) تقرير مندوب الحزب الشيوعى المصرى عن الاتصال بسيد قطب - نقلًا عن د . رمضان - ص ٢٠٠ .

(١٦) المصدر السابق - ص ٢٠٠ ..

محور القوة الجديد بعد نجاح حركة « الضباط الأحرار » .. ففى لقاء الهضيبى - قطب كان الاتفاق على عدم القيام بحركة منفردة ، وعلى ضرورة أن تكون غالبية الجيش معهم .. وكان أن قال الهضيبى : « إن هناك حركة سيقوم بها الجيش لإعادة الحريات الطبيعية وإعادة الضمانات القضائية » .. وإن هذه الحركة ستكون شبيهة بما حدث فى سوريا .. وإن « الإخوان سيكون دورهم أن يقوموا بالتأييد الشعبى للحركة الجديدة حتى تتم » .

باختصار .. انقلاب على الانقلاب ... ورهان جديد على الجيش لضرب حركة الجيش .. وتمرد على السلطة للاستيلاء على السلطة .. استبسال شديد من أجل التغيير ، يشير (لا نقول يؤكد) أن الصراع بين الإخوان والثورة كان من أجل السيطرة على مقاليد البلاد .. كان صراعا سياسيا لا دينيا .. ولم يكن كله خالصا لوجه الله !

□□

قبل أن نعبث تلك الدوامات لابد أن نشير إلى أن الإخوان انقسموا فيما بينهم حول الموقف من الثورة .. ثم .. أدى الانقسام إلى تمزق .. ثم أدى التمزق إلى فتنة وحرب شبه أهلية فى صفوفهم .

كان حسن الهضيبى ومعه التنظيم « الخاص » فى جهة .. وكان صالح عشاوى ومجموعة أخرى فى جهة أخرى .. ولن نتورط فى كثير من التفاصيل المعروفة ، لكننا لابد أن نشير إلى أن سيد قطب - رغم أن صالح عشاوى هو الذى جنده للإخوان - انحاز إلى مجموعة الهضيبى .. مجموعة « الشرعية » و « القوة » .. وقد كان صالح عشاوى يصدر مجلة « الدعوة » .. وكانت « الدعوة » إحدى وسائل قتاله ضد الهضيبى والتنظيم السرى .. وقد هاجمت النشرة التى يصدرها سيد قطب سرا « الإخوان فى المعركة » .. وفضحت بذلك سريتها .. ووصفتها بأنها : « نشرة مدسوسة » . وإن « كثيرا مما فيها لا يتفق وشرع الله » (١٧) .

لقد أيد صالح عشاوى الثورة . واتفاقية الجلاء . وهاجم موقف الهضيبى منها .. وعندما اختفى الهضيبى ، وصفته الدعوة - فى سخرية - بالمختفى الأعظم .. ثم توالى اختفاء من كان مع الهضيبى .. فأصبح السؤال : من الذى يدير شئون الجماعة ؟ .. الفريق المختفى ؟ أم الفريق الظاهر ؟ ... وكان أن تطورت الأحداث حتى وصلت إلى ماسمى بانقلاب فى الإخوان ، حيث أسفرت جهود الفريق المعارض للهضيبى عن اعتباره فى أجازة ، وإلغاء مكتب الإرشاد ، وتكوين لجنة مؤقتة لإدارة شئون الجماعة (١٨) .. وراحت الدوائر تدور .. حتى كان حادث « المنشية » ..

من جديد لا نريد التورط فى سرد ماجرى فى « المنشية » ، فالإخوان يعتبرونه مسرحية مدبرة للتخلص منهم .. والحكومة تعتبره مؤامرة دبورها لاغتيال جمال عبد الناصر .. وحتى الآن لا يزال كل طرف يصر على تبادل الاتهامات ، ويضيف استنتاجا جديدا ، يؤيد وجهة نظره ..

لكن .. بما أن الحادث كان بمثابة نقطة اللاعودة بين الثورة والإخوان ، فإنه لا بأس أن

(١٧) الدعوة - ١٩٥٤/٧/٢٧ .

(١٨) رمضان - المرجع السابق - ص ٢١٥ .

نسمع ، ونقرأ شهادة جمال عبد الناصر وسيد قطب فيه .. على الأقل من باب المعرفة .. وربما أضاف ذلك ولو بقعة ضوء عابرة في الظلام الذي نفوس فيه .

إن شهادة سيد قطب كتبها بخط يده وهو يتعرض لأحداث ١٩٦٥ .. أما شهادة عبد الناصر ، فقد نشرها على لسانه الصحفي « ناصر الدين النشاشيبي » تحت عنوان « تجارب الأبطال » .. في كتاب « هؤلاء هم الإخوان » منذ ٢٢ سنة ، ولم يعاد طبعه من جديد منذ ذلك التاريخ .

□□

« في عام ١٩٥١ سافر الدكتور أحمد حسين وزير الشؤون الاجتماعية في وزارة الوفد إلى أمريكا ، وعاد منها مستقيلاً من الوزارة ، ورغم كل الترضيات التي قدمها النحاس باشا فقد أصر على الاستقالة ثم أخذ بعدها في تكوين « جمعية الفلاح » ، وفي مقدمة أهدافها تحقيق العدالة الاجتماعية للفلاحين والعمال وبرنامج ضخم حول هذه الأهداف^(١٩) ... وهلت الصحافة الأمريكية للجمعية بصورة كشفت عن طبيعة العلاقة بين الجمعية والسياسة الأمريكية في المنطقة .. ووضعت الهالات الكبيرة حول الشاب الدكتور أحمد حسين وحرمة المتخرجة على ما أذكر من الجامعة الأمريكية وانضم إلى هذه الجمعية رجال كثيرون برياسة الدكتور الشاب أحمد حسين مع أنهم أكبر منه شأنًا ومقامًا في ذلك الحين ، منهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية وزارة الوفد ، والدكتور عبد الرزاق السنهوري وزير المعارف في وزارة السعديين ورئيس مجلس الدولة من قبل وأمثالهما .. وهي ظاهرة تلفت النظر . وكان الشيخ الباقوري ممن انضم إليها ..

« المهم ، فيما يتعلق بالخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين ، وكنت في ذلك الوقت لاحظ نموّه عن قرب ، لأنني أعمل أكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميا قريبا من رجال الثورة ومعهم من يحيط بهم .. أقول المهم أن الأستاذ فؤاد جلال (توفي وكان وزيرا في أول وزارة برياسة الرئيس السابق محمد نجيب) كان من بين أعضاء جمعية الفلاح ، وكان وكيلا للجمعية . وكنت لاحظ في مناسبات كثيرة أنه يغذي الخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين ، ويضخم المخاوف منهم ، ويستغل ثقة الرئيس جمال عبد الناصر به ، ويبث هذه الأفكار في مناسبات كثيرة لم يكن يخفيها عني لأنه كان يراني كذلك مقربا من رجال الثورة وموضع ثقتهم مع ترشيحهم لي لبعض المناصب الكبيرة الهامة ، ومع تشاورنا كذلك على المفتوح في الأحوال الجارية إذ ذاك ، مثل مسائل العمال والحركات الشيوعية التخريبية بينهم بل مثل مسألة الانتقال ومدتها والدستور الذي يصدر فيها .. الخ .

المهم أنني كنت أربط بين خطة الأستاذ فؤاد وجمعية الفلاح كمنظمة أمريكية الاتجاه ، والاتصال ، وبين إشعال الخلاف بين الثورة والإخوان ، وقد حاولت في وقتها - ما أمكن - منع التصادم الذي كنت ألمح بوادره ولكن عجزت وتغلب الاتجاه الآخر في النهاية .

(١٩) أثرت ألا أ تدخل بالتعليق هنا ، أو في شهادة عبد الناصر ، لأن ذلك سيحتاج لفتح ملف القضية ، وهذا ليس

مجاله - انظر سيد قطب - المرجع السابق - ص ١٤ .

.. ولكن ما علاقة هذه المقدمة الطويلة بحادث المنشية ؟ والقضية جديدة ؟ منذ أن وقع هذا الحادث وأنا أشك في تدبيره . لم أكن أعلم شيئاً يقينا عن ذلك . ولكن كل الظروف المحيطة كانت تجعلني أشك في أنه ليس طبيعياً . كان شيء ما يلح على تفكيرى في أنه مدبر لتكملة الخطة التي تنتهى بالتصادم الضخم بين الثورة والإخوان تحقيقاً لأهداف أجنبية .. أرجح من استقراء الأحوال ومن خطة الأستاذ فؤاد جلال وكيل جمعية الفلاح أنها أمريكية ! ..

« وعندما كان السيد صلاح دسوقي يستجوبنى هنا في السجن الحربى عام ١٩٥٤ صارحته برأى في تدبير الحادث .. وقد انتفض وقتها بشدة وهو يقول لى : هل أنت كذلك بكل ثقافتك من الذين يقولون إنها تمثيلية ؟ وقلت له : أنا لا أقول إنها تمثيلية ولكن أقول إنها مدبرة لهدف معين ، وأن أصبعا أجنبياً ذو دخل فيها .. فقال لى وقتها وقد هدا اضطرابه : جاز ! ولكن واحداً من الإخوان المسلمين هو الذى قام بالحادث ! ثم أعود لسرد الأحداث المتعلقة بنشاطى بعد عام ١٩٥٤ .. إن شعورى وتقديرى بأن حادث المنشية مدبر تدبيراً ، جعل يملأ نفسى رغبة في معرفة الحقيقة غير اننى لم أجد أحداً ممن التقيت بهم في سجن طرة عام ١٩٥٥ وكانوا كثيرين قبل ترحيلهم إلى الواحات يدلنى على هذه الحقيقة .. كل من سألتهم ومنهم ناس قريبون جداً من محمود عبد اللطيف الذى انطلقت الرصاصات من مسدسه ومن هنداوى دوير كذلك قالوا لى : المسألة غامضة وموش عارفين الحكاية دى حصلت ازاي ، وبعضهم قال : المسألة فيها سر لا يمكن الآن معرفته .. وكانت كل الأجوبة لا تملك أن تعطينى الحقيقة » .

سيد قطب

خريف - ١٩٦٥

□□

« واجهت رصاص إسرائيل شهوراً طويلة وأنا أنتقل بين الفالوجا و« عراق المنشية » ، كان طريقى في تلك الأيام هدفاً دائماً لرصاصهم وقنابلهم ، كنت أقطع أميالاً طويلة وأنا أراقب الانفجارات وأدأرى الألغام . كان الموت سميرى وملزماً وصديق أيامى ، وقد عرفت ورايته وعشت معه ، والذى يواجه الموت من أجل فلسطين لا يهرب منه من أجل مصر ... !

« لم تصدق عيناي ما سمعته أذنأى ! لم أصدق أن هذا الوهج الذى يلهب بصرى هو النار التى تحمل معها رصاصات الغدر إلى صدرى . لم أصدق أن بين هذه الآلاف التى احتشدت أمامى تهتف بحياة مصر ، إنساناً واحداً يهتف بحياة الموت لجمال عبد الناصر . كان صوت الرصاص يقرع سمعى وأنا أسأئل نفسى فى أسى وذهول ، أنا ... ! أنا المقصود ؟ ! » .

.....

« وسمعت الرصاصات الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة . وحاولت أن أتقى باقى الرصاصات فأحسيت رأسى قليلاً ثم عدت لأواجه بقية الغدر والجبن والخيانة . ولم أعد أرى شيئاً أو أحس بشيء ... لقد رأيت أمامى جموع الناس تتدافع فى زعر وهلع وسمعت فى أعماقى صوتاً يهتف بى لمناداتها فأدعوها للبقاء . لقد صرخت بدمى وأعصابى أيها الرجال فليبق كل فى مكانه ! . ورحلت

أكرر هذا النداء في عبارات سريعة متتالية . لقد شعرت بواجبي في أن أعيد إلى ذلك الجوهده وه واستقراره ، وكان يهمني ألا يعكر أمن ذلك البلد الحبيب أى حادث ولو كان حادث اعتداء على حياتي وفرحت وأنا أرى الجموع المحتشدة تعود إلى أماكنها في لحظات خاطفة وتمنيت لو كان هناك مصور صحفي ليسجل بعدسته هذه الدقائق القليلة الخالدة ، فيبرز صورة الجماهير وهى تتدافع أثر الحادث تبحث عن مفر ، فإذا بها تسمع صوتى وتلبى ندائى وتعود إلى أماكنها في هدوء ونظام ..

.....

« لقد شعرت بأيدٍ كثيرة تجذبني وتشدني إلى مقعدى . كانت جهود رفاقي تنحصر في منعى عن الكلام رحمة بجهدى وصحتى وحالتى . كانت أيديهم تعارك جسمى في قوة لا أحس بها ولكنى أدفعها بقوتى وإصرارى على متابعة الكلام . وتكلمت ... وصوت الرصاص مازال يقرع مسمعى ... ووهج النار يلهب بصرى . وأصوات خفية صارخة تهتف بى في حيرة وذهول : أنا ؟ أنا المقصود ؟!

.....

« لقد عزت على مصر ، وعزت على نفسى ، وعز على مشهد الجماهير الوفية البريئة تهتف بحياة مصر ، وحياتى ، وتهدج صوتى واستبد بى التأثير المؤلم فسمعت نفسى أقول للناس :
« - روحى لكم ... دمي من أجلكم ... أنا فداء لكم ! »

جمال عبد الناصر
شتاء - ١٩٥٥

□□

إن كلا من الطرفين كان يضع أصبعه تحت خرس الآخر .. وكل منهما ينتظر أن يصرخ الآخر .. ينهار .. يرتدى على الأرض ..

وقدر لجمال عبد الناصر - في هذا الصراع الدنيوى - أن ينتصر .. وطبقا لقواعد اللعبة التى انتهى - فقط - شوطها الأول ، كان عليه أن يفتح أبواب الزنازين وجنازير السجون للإخوان .
وقدر لسيد قطب دخول عالم ما وراء الأسوار .. لقد دخل السجن في يناير ١٩٥٤ ، ثم أفرج عنه في مارس من نفس العام .. مدة قصيرة .. أما الآن .. فالمدة طويلة ، طويلة .. تبدو بلا نهاية !!

[٦]

مفكران في الطريق !

□ في بطن حوت السجن □ قواعد الصراع بينه وبين
عبد الناصر □ حادث ليغان طرة □ التعذيب والتكفير □
منام محمد حواش □ معالم في الطريق □ ابو الاعلى
المودودي □ عزل النصوص عن ظروف البيئة □ الجاهلية
والحكومية والجماعة الإسلامية □ عبد الناصر والدين □
رد الازهر على الفكاره □ ما بعد الرحيل اجيال شعبة جاهزة
للتنفيذ □ هل كان سيفير الفكاره لو لم يعدم ؟ □

عندما وجد سيد قطب نفسه في « بطن » حوت السجن ، لم يتصور أنه سيكون مثل « يونس » - عليه السلام - ويخرج منه إلى الحياة سالماً .. مرة أخرى .
إنه مهما كان .. بشر .. يحترق بالنار .. ويفرق في الماء .. ويتعذب بالحبس ! .. ويحلم بالحرية .. ويسعى دائماً إلى حياة أفضل .
على عتبة السجن ، كان يقترب بعمره من محطة « الخمسين » .. إلا أنه - بسبب معاناته النفسية والصحية - كان يبدو لمن يراه - فوق « الستين » .
ولابد أن رطوبة جدران السجن ، وبرودتها ، قلبت عليه أوجاعه وأمراضه والحساسية القابضة في الصدر مع الرئة .. ولابد أن وحشة الزنازين ، وغلظة السجانين ، وأحلام الحياة التي كانت ، قد ضاعفت من شدة الألم الذي عليه أن يتحمله ، وأن يتعايش معه !!
ولابد أن النتيجة لم تكن في صالحه .. ولا الانفعالات التي حاصرت وفرضت نفسها عليه أيضاً .. ذهول . دهشة . استنكار . استغراب . اكتئاب . قلق . حزن . انطواء .. وفزع من البرد .. من الزكام .. من الرطوبة .. من السعال .. من كل ما يحول الصدر إلى « شخشيخة » في يد الزمن .
إن طبيعته الأدبية الرقيقة ضاعفت من تلك المشاعر ، وجعلته عاجزاً عن التخلص منها ، والتكيف مع ظروفه الجديدة .. الرديئة .. كما أن حسه الناقد ، المتحفظ للخطأ ، حال بينه وبين التكيف مع هذا الواقع تماماً .. إنه يحب الحياة الناعمة . المريحة . المرفهة .. ويشعر باعتداد كبير في الذات .. ويحتاج إلى نظام غذائي خاص .. ونظام علاجي خاص ، فكيف يمكن أن يقبل بسهولة هذه الحياة ؟ !
حياة بدت له غير آدمية .. بدت له مستحيلة .. فكان لابد أن تتدافع التساؤلات الحادة - كمشط الجراح - إلى فراشه وعقله وقلبه ورأسه .. ماذا حدث ؟ .. وكيف ؟ ما الحل ؟ .. وإلى أين المصير ؟ .. لماذا اعتقله عبد الناصر ؟ .. لماذا أعدم زملاءه ؟ .. لماذا بطش بهم ، والتعير حق ، والتفجير حق ، والبلد ملك الجميع ؟ .. إلى هذا الحد يمكن أن تنتهي لعبة الصراع على السلطة ؟ !
ومن المؤكد أنه لم ينس نفسه كأديب ، وكناقد ، وكمفكر ، وهو يواجه طعنات مثل هذه التساؤلات .. لذلك .. فقواعد لعبة الصراع مع السلطة وعليها لم تكن في ذهنه .. أو كانت القواعد

التي في ذهنه قواعد خاصة به .. قواعد رومانسية .. صاغها من طبيعته وتاريخه وخبرته الخاصة .. أو كانت هذه القواعد مختلفة تماماً عن تلك التي كانت في ذهن « البكباشي » جمال عبد الناصر ، والتي على أساسها نزل الملعب ، وأدار الصراع ، وانتصر .. إنه بمشاعر الفنان كان - على ما يبدو - يعتقد أن الاختلاف مهما امتد لا يصل إلى السجن .. والصراع مهما امتد لا يصل إلى المشنقة كما أنه كان يعتقد أن الارتباطات الشخصية والعلاقات الإنسانية لها اعتبارها .. كذلك لا يجوز - مهما حدث - الخروج عن الحدود المرسومة .. بينما كان خصمه يرى أنه لا مفر : إما أن تكون في السلطة أو تكون في المعتقل ؟

لقد تصور سيد قطب - على ما أظن - أنه يصارع طه حسين .. أو يدخل في معركة فكرية مع الرافعي .. أو أن جمال عبد الناصر - هو العقاد ، يدعمه ثم يعطيه ظهره فلا يحدث ما حدث .. لم يتصور - على ما اعتقد - أن للتعامل مع السلطة - أي سلطة - قانوناً آخر .. مختلفاً .. ولم يدرك - غالباً - أن خبرته السياسية المحدودة لم تمنحه الفرصة لمعرفة هذا القانون واللوائح والإجراءات المكتملة له .

تعامل سيد قطب بكل هذه الانفعالات .. والمشاعر .. والأوجاع ، فكان من الطبيعي أن يكون إحساسه بالحبس أضعافاً مضاعفة .. وأن تكون الأمور العابرة في السجن أموراً مفزعة بالنسبة له ..

وفي هذا المناخ الرديء ، وبذلك الأحاسيس المؤلمة ، أمسك المفكر ، والأديب ، والناقد ، والفنان سيد قطب قلمه ، ودفأته ، وخبرته الدينية ، وراح يفسر ويقول رأيه في المجتمع الذي اعتقله .. أو الذي سمح باعتقاله .. أو الذي لم يفضب ويتمرد لاعتقاله .. فكان كتابه - القنبلة « معالم في الطريق » !

□□

وبدأت الدوائر تدور عكس الاتجاه ..

بعد القبض على سيد قطب نقل إلى السجن الحربي .. ثم إلى ليمان طرة .. ثم بسبب مرضه الصدرى الذي وصل إلى حد نزيف الرئة ، نقل إلى مستشفى الليمان .

في صيف ١٩٥٥ كان ٤٠٠ من الإخوان معه في ليمان طرة ، ومثلهم في سجن مصر ، وأكثر من ألفين - على حد تقديره - في السجن الحربي ، لم يقدموا للمحاكمة ، أو حكم عليهم مع إيقاف التنفيذ .

كان من بين المعتقلين في ليمان طرة بعض الضباط السابقين .. منهم جمال ربيع ، وحسين أحمد حمودة ، وفؤاد جاسر وغيرهم .. وعلى حد ما ذكره سيد قطب فيما بعد ، أخذ جمال ربيع يعرض على الإخوان خطة للهرب من السجن الثلاثة بالقوة ، بعد الاستيلاء على أسلحة الحرس ، ثم التجمع في الخارج ، والقيام بانقلاب عسكري للاستيلاء على الحكم . بعد الاتصال ببعض الوحدات العسكرية التي يعرف قادتها .. ورفض الإخوان .

اقتضت الظروف الصحية أن ينقل سيد قطب إلى السجن الحربي ، فقال له جمال ربيع :

— إنه تدبير الله أن تذهب الآن إلى السجن الحربى لمقابلة معروف الحضرى « ضابط سابق - معتقل ، هناك وتعرض خطتى عليه للاتفاق فيما بعد على التفصيلات وتحديد التوقيت ! قبل أن يعرف « معروف الحضرى » من سيد قطب من هو صاحب الخطة ، قال فى عصبية : — دى دسياسة لتدبير مذبحه كبرى للإخوان الذين فى السجون والذين فى الخارج جميعاً ! ثم .. بعد أن عرف أن صديقه جمال ربيع هو صاحب الخطة ، اضاف : — لا .. لا تنقل له ، دى عملية انتحارية ولا يجوز التفكير فيها أصلاً . بعد أن عاد سيد قطب إلى ليمان طرة أبلغ جمال ربيع رأى معروف الحضرى .. لكنه ظل على ما هو عليه !!

قائد كتيبة ليمان طرة فى ذلك الوقت ، كان الصاغ عبد الباسط البنا ، شقيق حسن البنا ، ورغم أنه شقيق المرشد العام السابق فإنه لم يكن يوماً ما من الإخوان .. إلا أنه كان يتردد على سيد قطب فى مصحة الليمان ، وذات مرة سلم عليه ، وقال له : — لا بد من تخلص الإخوان الذين فى السجون ، لأنهم هكذا يستهلكون تماماً وخصوصاً هؤلاء الذين يقطعون الأحجار فى جبل طرة مع كبار المجرمين ! سأل سيد قطب : كيف ذلك ؟ قال :

أنا كقائد لكتيبة ! أضع نفسى وأسلحة الكتيبة تحت تصرفكم .. إننى لم أعد أطيق منظر طابور الإخوان فى الجبل ! تذكر سيد قطب خطة جمال ربيع ، وتحذير معروف الحضرى فقال له : — إحنا متشكرين على عواطفك ولكن نحن نرى أننا أدينا واجبنا وانتهت مهمتنا بدخول السجون ولم نعد نستطيع عمل شيء .. فمن أراد أن يعمل غيرنا .. فليعمل ! إن مثل هذه الوقائع ، مع إحساسه الدائم بالتوجس ، جعلته يعتقد أن هذه الخطط الانقلابية المعروضة عليه ، حتى من شقيق حسن البنا ، شرك خداع .. مصيدة لذبح الإخوان .. وجعلته يترقب هذه المذبحة . □□

نحن الآن فى صيف ١٩٥٧ .. بالتحديد فى أول يونيو ١٩٥٧ .. مضت شهور طويلة - تصل إلى ٣٠ شهراً - على اعتقال الإخوان المسلمين فى نهاية عام ١٩٥٤ .. فى تلك الفترة أعلن « ليمان طرة » أن المسجون الذى أمضى فى تكسير الحجارة بالجبل سنتين من حقه أن يتقدم لإدارة السجن بالتماس لإعفائه من هذه المهمة الشاقة .. وللأمانة والإنصاف لم تتردد إدارة السجن فى قبول أى التماس يتقدم به أى مسجون عادى .. لكنها .. للأمانة والإنصاف أيضاً لم تفعل ذلك مع المسجونين من الإخوان .^(١) فى أول يونيو ١٩٥٧ تقدم ١٨٠ مسجوناً من الإخوان بمذكرة إلى الإدارة لكى تمنحهم ميزة عدم

(١) أثرت من باب الإنصاف أن ألجأ إلى مصادر الإخوان وأنا أستقى هذه الواقعة ، التى وصفتها السلطة بأنها كانت رداً طبيعياً على التمرد - انظر حسين محمد أحمد حموده - المرجع السابق - ص ١٢٤ .

الصعود إلى الجبل ، وتعفيهم من تكسير الحجارة ، وحملها على ظهورهم .. لكنها رفضت .. فكان أن اعتصموا جميعاً في عنابرهم ، ورفضوا الخروج إلى الجبل .. وبعد أن فشل مدير الليمان في إقناعهم بفض التمرد والعصيان والخروج إلى العمل ، أحضر قوة من الجنود المسلحين بالبنادق .. واعتلى عدد منهم الدور الرابع ، وبدأ ضرب النار في المليون على الإخوان المعتصمين في الدور الثالث .. العنبر رقم واحد .

أسرع المسجونون إلى داخل زناناتهم يحتمون بها .. وحاولوا إغلاقها عليهم .. وبعد ساعة تقريباً تم وقف إطلاق النار ، وكان على الأرض دماء غزيرة وجثث مبعثرة ، .. مشهد لا يمكن وصف بشاعته .. وكانت حصيلة الضحايا ٢٢ قتيلاً و٤٦ جريحاً .. وسبق الجرحى - تنهال عليهم ضربات الشوم - إلى مستشفى الليمان .. حيث كان سيد قطب يقيم ، ويعالج ، ويفتش عن تفسير مناسب ، يريحه لطبيعة نظام حكم جمال عبد الناصر !

□□

رواية سيد قطب عن هذه المذبحة تختلف كثيراً جداً ..

في « لماذا أعدموني - ص ٢٤ ، يقول :

« كان هناك ضابط برتبة ملازم أول في ذلك الوقت أويوزباشي « نقيب » اسمه عبد الله ماهر على علاقة بالخمسة الشبان اليهود المسجونين في حادث جاسوسية ، يؤدي لهم خدمات واضحة حتى ليحمل لهم طعامهم الآتى من بيوتهم بنفسه ، الأمر غير المعهود في الليمان . ويحتفى بأخت واحد منهم حفاوة مكشوفة للسجانيين والنوبتجية من المذنبين .. الخ .

« هذا الضابط بدأ التحرش والاستفزاز للإخوان بشكل ظاهر مما أدى شيئاً فشيئاً إلى خلق جو مشحون بالتوتر بين إدارة الليمان والإخوان ، ثم اندفع معه ضابط آخر برتبة صاغ لا يحضرني اسمه الآن حتى احتك بمجموعة من الشبان الطائشين المعروفين بين إخوانهم ولإدارة السجن بطيشهم - وكان الأستاذ منير « الدالة » قد أفرج عنه ولم تعد لمجموعة الشباب الباقية في الليمان أية قيادة عاقلة مجربة - ووقع بين ذلك الضابط وبين هؤلاء الشباب تماسك بالأيدي فعلاً - ثم انتهت المسألة بوضع عدد من الإخوان في التأديب .

وظلت خطة الاستفزاز وشحن الجو بالتوتر من جانب الضابط عبد الله ماهر ورئيسه هذا حتى جاء يوم علم الإخوان الذين يخرجون للجبل أن هناك خطة لضربهم بالرصاص في الجبل بحجة محاولتهم التمرد أو الهرب ، فراوا تقويتاً لهذه الخطة أن يعتصموا بالزنائين في اليوم التالي ، ويطلبوا حضور النيابة لإخطارها بما وصل إلى أسماعهم من تلك الخطة التي تدبر لهم ، وهنا أمرت الكتيبة بضربهم بالرصاص داخل عنابرهم ، بل داخل الزنائين بالنسبة لعدد كبير منهم .. وقتل ٢١ وجرح حوالي ذلك .

« وواضح أنه كان في الإمكان ، وهم داخل عنبر مغلق اتخاذ إجراءات أخرى ، إذ يكفي في هذه الحالة سحب السجانة القلائل من العنبر وإغلاقه من الخارج ، وقطع الماء والزاد عنهم ٢٤ ساعة فقط . وهنا يستسلمون حتى لو كانوا فعلاً متمردين !

ولكن ..

« الإجراء الذى اتخذ وفى ظل هذا الخط المتسلسل من الحوادث يدل بوضوح على أنها خطة مذبحة متصلة وراعاها يد مدبرة .. لا يهمنى الآن تعيينها بقدر ما يهمنى ما تركته هذه السلسلة من شعور فى نفس عميق بأن حركة الإخوان المسلمين مقصود بالذات القضاء عليها لصالح جهات أجنبية .

« وأن شتى التدبيرات تتخذ وشتى الوسائل لتدمير أشخاصها بالتعذيب أو تذيبهم أو تخريب بيوتهم للقضاء فى النهاية على الاتجاه من أساسه .

« ولعله لم يكن من المصادفات كذلك أن يكون السيد صلاح دسوقي هو المشرف على التحقيق فى مذبحة طرة .

« وقد شاع بين الإخوان فى ذلك الحين أن التحقيق الذى تجريه النيابة كان يتجه فى أول الأمر إلى اعتبارهم مجنئاً عليهم ، وأنه بعد حضور السيد صلاح ، وحضور محقق آخر اتجه التحقيق إلى اعتبارهم جناة .. ولا يهم الآن تقدير قيمة هذا الذى شاع .. ولكن يهم تقدير سير الأحداث حتى أدت إلى تلك النتيجة .. وما تركه فى النفس من شعور بمؤامرات على الإخوان ، .

انتهى .

□□

إن من المؤكد أن هذه المذبحة - كما قال شهود العيان - حسمت الأمر داخل سيد قطب .. كانت بداية آخر تحولاته الفكرية ، الإسلامية .. أصبح مقتنعاً أن النظام الذى يحكم لا يمت للإسلام بصلة .. ولأنه نظام غير إسلامى فلا بد أنه نظام جاهل .. ولأنه نظام جاهل لابد من مقاومته ومحاربته وفرض الإسلام الصحيح عليه .. هكذا .. استقر الأمر فى كيانه .. وهكذا انقلبت آخر اجتهاداته الإسلامية .. فهو قبل دخوله السجن ، كان يدعو إلى مجتمع إسلامى متطور ، يواجه متطلبات العصر ويعوض ما فاتته بفتح باب الاجتهاد على مصراعيه .. أصبح الآن .. بالقطع لا يؤمن بجدوى هذه النظرية السلمية .. التى تعتمد على الحجة ، والإقناع ، والتفاهم السهل .. أصبح الآن - وبسبب محتته ومحنة الإخوان الخاصة - يؤمن بضرورة الجهاد بالسيف للتخلص من هذا المجتمع الكافر ، الذى يعيش فى جاهلية ، وينطق بالشهادتين ولا يعمل بهما .

ومن الأمانة أن نذكر أن سيد قطب لم يتعرض داخل السجن لأى قهر مادى كالذى يؤكد الإخوان المسلمون أنه حدث لهم .. ولا يمكن إنكار أن السجن فى حد ذاته - حتى ولو كان فندقاً « خمس نجوم » - عقاب .. خاصة بالنسبة له .. ولطبيعته ، وظروفه النفسية والصحية .. لكن .. الأمر لم يزد بالنسبة له عن الحبس .. بل إن وجوده الدائم فى مستشفى السجن ، كان أرحم بكثير من الإقامة فى العنابر والزنازين .. وقد كان متاحاً له الاطلاع ، والبحث ، والتأليف وهو فى حبسه ، بدليل أنه كتب الكثير هناك .. ولعل أبرز وأخطر ما كتب كان كتابه « معالم فى الطريق » .. كذلك لم تكن الرقابة صارمة عليه وعلى زواره ، بدليل أن شقيقته « حميدة » - وكما سنعرف فيما بعد - نجحت فى تسريب فصول الكتاب من السجن إلى الإخوان فى الخارج ، وهى مهمة ليست سهلة إذا كانت الرقابة شديدة .

لكن .. هذا لا ينفي حقه في الفزع ، وفي القلق والترقب ، وأن يتأثر بإعدام عدد من قادة الجماعة ، والتعذيب الذي جرى لغيرهم ، وتلك المذبحة الرهيبة التي أطارت النوم من عينيه .
لقد فقد سيد قطب - منذ ذلك الوقت - وكما يقول جيل « الحرس القديم » من الإخوان : اعتقاده أن نظام حكم عبد الناصر يمكن أن يحمل صفة من صفات الإسلام .. وكان أن رماه بالكفر !

وقد بدأ مسلسل التكفير .. بتكفير « الجلاد » .. « لأنه لا يمكن أن يكون مسلماً من يعذب المسلمين على هذا النحو » .. ثم .. امتد التكفير إلى « مأمور الليمان » .. « لأنه هو الذي أعطى أمر التنفيذ إلى الجلادين » .. ثم .. امتد إلى مدير مصلحة السجون .. فمدير المباحث العامة .. فوزير الداخلية .. ثم راحت الدائرة تتسع حتى شملت القيادة العليا .. حتى شملت جمال عبد الناصر نفسه .. ثم راحت الدائرة تتسع وتتسع حتى شملت المجتمع المصري كله .. فهو يؤيد عبد الناصر ، أو لا يتخلص منه .. مشاركة بالصمت .. والساكت عن الحق شيطان أخرس .. ومنذ ذلك الوقت ، وحتى الآن لم تتوقف لعبة التكفير ، ولا هواية التكفير ، وبدأت أجيال جديدة تمارسها ، وتقتل في سبيلها .. أجيال شابة لم تكن في ثقافة سيد قطب ، ولا حتى قادرة على فهم ما توصل إليه .. ولم تستطع أن تفهم ظروفه العامة والخاصة ، ولا كانت قادرة على ربط تلك الأفكار بهذه الظروف .. فأخطأت في حق نفسها وفي حقنا .. وفي حق سيد قطب أيضاً (٢) .

في تلك الأيام كان سيد قطب مهتماً بالبحث عن الوصف الذي يريجه لنظام عبد الناصر .. ولا يمنع أن يكون قد فكر في كيفية الانتقام منه .. ورد الصاع - له - صاعين .. وفي رواية تحييط بها هالات « مقدسة » تمنحها دعم « السماء » يقول البعض : إن زميل وتلميذ وصديق وحليف سيد قطب في زنزانة العلاج « محمد حواش » قد أنقذه من هذه الحيرة .. وألهمه الوصف المناسب لنظام حكم عبد الناصر .

قال له محمد حواش :

إن سيدنا « يوسف » عليه السلام ، جاء له في المنام ، وطلب منه أن يبلغه (سيد قطب) أنه سوف يجد ما يبحث عنه في سورة « يوسف » (الآيات ٢٥ - ٤١) !

الآيات المحددة تروى أن يوسف (عليه السلام) دخل السجن معه فتيان من خدم الملك .. قال له أحدهما : لقد رأيت في منامي أني أعصر عنباً ليكون خمراً ، وقال له الآخر : لقد رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل منه الطير .. خبرنا يا يوسف بتفسير هذا الذي رأيناه .. قال لهما : ذلكما التأويل للرؤيا ، والإخبار بالمغيبات مما علمني ربي ، وأوحى به إليّ لأنني أخلصت له عبادتي .. ورفضت أن أشرك به شيئاً ، وابتعدت عن دين قوم لا يصدقون بالله ، ولا يؤمنون به على وجه

(٢) لم يعد خافياً أن كل القوى الوطنية تعرضت في السجون لما تعرض له الإخوان من قتل وتعذيب ، إلا أن تلك القوى التي ملكت تفسيراً سياسياً لما حدث لها ، استطاعت تجاوز المحنة إلى ما هو أبعد من الصدمات النفسية ، الفردية .

صحيح ، وهم بالآخرة وحسابها منكرون ، كافرون .. تركت ملة هؤلاء الكافرين ، واتبعت دين آبائى إبراهيم واسحق ويعقوب ، فعبدت الله وحده ، فما صح لنا أن نجعل لله أى شريك من أى شيء كان .. من ملك أو جنى ، أو إنسى ، فضلاً عن الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر ، ذلك التوحيد مما تفضل به الله علينا وعلى الناس ، إذ أمرنا بتبليغه إليهم ، ولكن أكثر الناس لا يتلقون هذا الفضل بالشكر بل بالكفر .. يا صاحبى فى السجن : أرباب شتى كثيرة يخضع المرء لكل واحد منها ، خير : أم الله الواحد الذى لا يغالب ؟... « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » - صدق الله العظيم .. وفسر يوسف (عليه السلام) المنامين .. الأول سيكون ساقى الملك ، والثانى سيصلب ويترك مصلوباً فتقع عليه الطير وتاكل من رأسه (٣) ..

« إن الحكم إلا لله » .. (٤)

تلك هى الخلاصة .. شعاع الضوء فى ظلام الحيرة والسجن ..

أى .. « الحاكمية لله » .. وهى القاعدة التى سارت عليها - وكأنها حد السيف - جماعات العنف السلفية .. من « التكفير والهجرة » إلى « الجهاد » وما بينهما .. وما بعدهما . لقد أمن سيد قطب أن الذين سجنوه ، وعذبوا رفاقه ، نسوا الله .. لم يعودوا يعبدونه .. أصبحوا يعبدون السلطة والنظام والبشر .. وهذا - فى رأيه - كفر .. شرك .. جاهلية .. وبعد كثير من التأمل كان اعتقاده أن الجاهلية قد بدأت قبل الآن بقرون .. بدأت بعد ٢٠ سنة فقط من الإسلام .. بذرة الجنين التى وضعها - عابراً - فى كتابه « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » ، راحت تكبر ، وتكبر ، وتكبر ، حتى طلبت الاستقلال والحياة .. وفى كتاب « معالم فى الطريق » .. وجدت الفكرة نفسها تصرخ الصرخة الأولى .. تلك الصرخة التى يستقبل بها الوليد الدنيا .. ثم .. بحرية مطلقة راحت تعبر عن نفسها . (٥)

□□

« معالم فى الطريق » ليس كله جديداً ..

أربعة فصول منه على الأقل مستخرجة من كتاب سيد قطب الأشهر « فى ظلال القرآن » .. والفصول الأربعة هى :

« طبيعة المنهج القرآنى » - الفصل الثانى .

« نشأة المجتمع المسلم وخصائصه » - الفصل الثالث .

« الجهاد فى سبيل الله » - الفصل الرابع .

(٣) المنتخب فى تفسير القرآن - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - يونيو ١٩٨٤ .

(٤) سورة « يوسف » - الآية ٤٠

(٥) لابد أن نلاحظ أن معظم أفكار سيد قطب لا تظهر مرة واحدة ، وإنما تبدو بذرة فى مرحلة ، ثم جنيناً فى مرحلة أخرى . وقبل أن تكتمل ، تكون قد نبتت بذرة أخرى وهكذا .

« التصور الإسلامى والثقافة » - الفصل الثامن .

اما الفصول الثمانية الاخرى فهي : جيل قرأنى فريد (ف - ١) .. لا إله إلا الله منهج الحياة (ف - ٥) .. شريعة الكون (ف - ٦) .. الإسلام والحضارة (ف - ٧) .. جنسية المسلم عقيدته (ف - ٩) .. نقلة بعيدة (ف - ١٠) .. استعلاء الإيمان (ف - ١١) .. هذا هو الطريق (ف - ١٢) .. قد كتبها - على حد قوله - « في فترات حسبما أوجت به اللفتات المتوالية إلى المنهج الربانى الممثل في القرآن الكريم » .. وكلها يجمعها - على تفرقها - أنها معالم في الطريق كما هو الشأن في معالم على الطريق ، وهى في مجموعها تمثل المجموعة الاولى من هذه المعالم ، والتي أرجو أن تتبعها مجموعة أخرى ، أو مجموعات أخرى ، كلما هدانى الله إلى معالم هذا الطريق .^(٦)

أى إن ما قاله سيد قطب - باعترافه - لا يعد نهائياً .. فهو « مجموعة أولى » من « مجموعات » كثيرة .. من « معالم هذا الطريق » .. لم يمهل القدر ولا الظروف أن يضع يده عليها .. وربما .. لو أن هذا قد حدث لغير الكثير منها .. أو لتحول عنها .. أو لتوصل إلى أفكار غيرها .. فالتحولات المتتالية ، المتأثرة بالمجتمع الذى حوله ، والمتأثرة بما كان يصل إليه من علم وإضافة ، كانت أبرز صفاته .. وأشهر خصاله .. فالتراجع عن الخطأ ، والإثابة إلى الصواب ، من أهم مميزاته .. أو كما قال د . يوسف القرضاوى : إنه كان « رجاعاً إلى الحق » .

لذلك .. فإن الذى يقرأ ما انتهى إليه سيد قطب في هذا الكتاب :

١ - لابد - أولاً - ألا يعزله عن الظروف النفسية والصحية والقهرية التى كتبه فيها .. وإلا كان كمن يفصل الأكسوجين عن الأيدروجين ، ثم يتحدث عن الماء .. والأنهار .. والسيول بعد ذلك !

٢ - ولابد - ثانياً - ألا يعزله عن السياق العام لكل كتاباته الإسلامية الأخرى .. وإلا كان كمن يفسر الكتاب على طريقة « لا تقربوا الصلاة » دون أن يكمل الآية .

٣ - ولابد - ثالثاً - ألا يعامل الكتاب معاملة الفكرة النهائية .. التى لا ترد .. وإلا كان كمن يعتبر اسدال الستار في نصف الفصل الأول - بسبب انقطاع الكهرباء - نهاية المسرحية .

ثم

لابد أن نسجل أن الأفكار الأساسية في الكتاب مقتبسة من كتابات مفكرين آخرين - على رأسهم المفكر الباكستانى أبو الأعلى المودودى - تسربت إلى السجن ، وقراها سيد قطب . وانفعل بها ، وتركت بصمات كبيرة واضحة عليه ، وعلى أفكاره .. إن تلك الكتابات جاءت في وقت المحنة ، فتلقفها ، وكررها ، دون أن يربطها بظروف البيئة والأحداث التى خرجت منها ودفعت إليها .. أى أنه - مع كل التقدير والاحترام - كان كمن يفصل الأيدروجين عن الأكسوجين ، ثم يتحدث عن السيول وشلالات المياه .

(٦) من مقدمة سيد قطب - « معالم في الطريق » - طبعة دار الشروق ١٩٨٠ .

إن هذا النقد ، يكاد يكون أشد ما يوجه إلى الأفكار التي انتهى إليها سيد قطب وهو يرصد معالم طريقه .. لذلك .. فإنه يكون من الصعب (لا نقول من المستحيل) أن نفهم سيد قطب بدون أن نعرف الشيخ المودودي .

□□

قبل أن يولد سيد قطب بثلاث سنوات ، ولد الشيخ أبو الأعلى أحمد حسن المودودي .. كان ذلك في ٢٥ سبتمبر ١٩٠٣ في مدينة « أورانج آباد » التي تسمى الآن في الهند « أندرا برادش »^(٧) .. وهناك - بالصدفة البحتة - الكثير من الظروف المشتركة والمتشابهة التي أثرت فيهما (المودودي - وقطب) وجعلتهما يلتقيان فكرياً .. رغم آلاف الأميال التي تفصل بينهما .. فكل منهما ولد في بيت محافظ .. جاز الزمن على أصحابه .. وكل منهما عاش الازدواج الثقافي والتعليمي والحضاري .. وكل منهما اشتغل بالصحافة .. ثم إن كلا منهما كان ابن المجتمع الذي حوله .. وتغيرت أفكاره بتغير طبائعه .

في بيت والده العالم المتصوف ، الزاهد في الحياة ، تلقى أبو الأعلى علوم اللغة العربية والقرآن والحديث والفقه واللغة الفارسية وحفظ الموطأ للإمام مالك عن ظهر قلب .. وفي المدرسة الثانوية عرف علوم الكيمياء والطبيعة والرياضة وغيرها من العلوم المدنية الحديثة .. التحق بكلية « دار العلوم » لكنه قطع الدراسة بسبب بقاءه بجانب والده الذي أصيب بالشلل حتى مات .. ثم راح ينتقل من مدينة إلى أخرى بحثاً عن الرزق والثقافة ، حتى وصل مدينة « دلهي » فتعلم فيها آداب اللغة الإنجليزية والفلسفة والعلوم الاجتماعية الغربية !!

في تلك الفترة كان المسلمون في الهند (٥٠ مليون نسمة) يعيشون في ظروف اقتصادية تحت خط الفقر .. وفي ظروف اجتماعية جعلتهم أسفل السلم الطبقي .. إن الاستعمار الانجليزي كان السبب .. فعندما احتل الهند كان المسلمون أرقى السكان عقلاً وعلماً .. فحاربهم بضراوة .. أغلق مدارسهم .. نزع أوقافهم .. روع أغنياءهم .. عمل على اضطهاد الهندوس لهم .. تحول المسلمون إلى أقلية تعيش خيبة الأمل ومشاعر الاضطهاد .. ثم راح بكافة وسائل الترهيب والترغيب ينزع من علماء الدين الفتاوى : بأن الجهاد في حالة عدم التكافؤ بين قوة المسلم وقوة المستعمر عبث ومضيعة للنفس والمال ، وأن المستعمر ما دام لا يتدخل في إقامة الصلاة وأداء الفرائض ، فلا تكون البلاد بلاد حرب .

استفزت مثل هذه الفتاوى المودودي ، رغم أنه كان حائراً بين تيارين سياسيين راحا يفرضان نفسيهما بقوة .. تيار ينادى بقوة بالقومية الهندية ، بصرف النظر عن الدين ، وتيار آخر ينادى بقوة أيضاً بالقومية الإسلامية .. وبعد تردد حسم الأمر ، وانضم إلى « حركة المحافظة على الخلافة الإسلامية » .. ثم أصبح رئيس تحرير جريدة « المسلم » التي كانت تصدرها جمعية « علماء الهند » منذ عام ١٩٢١ .. ثم أصدر كتابيه « مصدر قوة المسلم » و « الجهاد في

(٧) لعل أفضل المراجع التي حصلت عليها عن أبو الأعلى المودودي ، الكتاب الذي ألفه عن حياته وفكره حمد بن صادق الجمال - كلية الشريعة بالرياض .. وإليه أستند هنا - الناشر دار المدنى - جدة .

الإسلام ، .. إن ذلك الطريق الذى اختاره كان - كما قال - لإنقاذ الأماكن الإسلامية من أيدي « الكفار » .. وإنقاذ المسلمين من بطشهم .. وخاصة أنه في صدر شبابه شهد المذابح التى راح ضحيتها مئات المسلمين (مثل المذبحة المعروفة باسم « جليا نواله » التى وقعت في بنجاب) .. ثم .. إنه أدرك - كما قال - أن الزعماء « الهندوس يعتقدون أن أى نظام يقوم في الهند على مبدأ ديمقراطى كان الهندوس « الأغلبية » هم الذين يكونون أكثر المستفيدين منه ، والمسلمون تابعون لهم خاضعون لنظامهم ، وزاد الطين بلة - كما أضاف - نشاط حركة « تهنيد المسلمين » .. التى قادها الزعيم الهندوسى الشهير « شارمانند » كل هذا دفعه إلى تبني فكرة « القومية الإسلامية » وإلى تكفير المجتمع من حوله .. وإلى الدعوة إلى « الأمة العقائدية » وحتى ينشر الدعوة أصدر في « حيدر آباد » مجلة « ترجمان القرآن » تحت شعار : « احملوا أيها المسلمون دعوة القرآن في أيديكم ، وأضيئوا حياتكم وانهضوا وحلقوا فوق العالم » .. وكان ذلك منذ عام ١٩٣٢ وحتى آخر يوم في حياته .

وحتى يوقظ المسلمين الهند من رقبتهم الطويلة .. كان يردد دائما : « إننى لا أدعو غير المسلمين فقط بل أدعو المسلمين أيضا إلى الإسلام .. إنها دعوة ونداء للجميع : أن تعالوا نقضى على هذا الظلم والظغيان اللذين انتشرا في العالم ، ونحطم عبودية الإنسان للإنسان » .

وحتى تتحول الدعوة إلى حركة بدأ تأسيس « الجماعة الإسلامية » يوم ٢٥ أغسطس ١٩٤١ من خمسة وسبعين رجلاً .. إن تلك الجماعة حدد مواصفاتها عندما قال : « لا بد من وجود جماعة صادقة في دعوتها إلى الله ، جماعة تقطع صلاتها بكل شيء سوى الله .. وطريقه .. جماعة تتحمل السجن والتعذيب والمصابرة .. وتلغيق الاتهامات .. وحياسة الأكاذيب وتقوى على الجوع والعطش والحرمان والتشريد .. وربما القتل والإعدام .. جماعة تبذل الأرواح رخيصة .. وتتنازل عن الأموال بالرضا والخيار ، وتقدم كل ما تملك قربانا في سبيل إقامة مجتمع الإسلام ونظامه » .

انتخب « أميراً للجماعة » .. وكان رأسماله حوالى ٧٠ روبية .. وحدد أهدافها بدعوة البشر كافة « والمسلمين خاصة » أن « يعبدوا الله وحده ولا يتخذ إلهاً ولا رباً غيره » .. ودعوة الجميع « أن يحدثوا انقلاباً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذى استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً .. وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم ، حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويدينون بدين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » (٨) .

ثم .. راحت هذه الجماعة تكافح من أجل إقامة دولة إسلامية ، تستقل عن المحيط الاستعماري والهندوسى الذى يحاصرها من جميع الجهات .. وكان أن تحقق لها ما أرادت .. وقامت دولة باكستان سنة ١٩٤٧ .. لكن المودودى لم يكن مرتاحاً لأن مؤسسى باكستان - على حد قوله - لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وأنهم سيكونون أول من يحارب الإسلام في دولة باكستان المسلمة .. فكان أن طلب من الجماعة الهجرة إلى قرية هادئة في الصحراء .. ليقوم - كما أضاف -

(٨) خليل أحمد الحامدى - « نظرة عابرة على الجماعة الإسلامية بباكستان » - ص ١٧ نقلا عن حمد بن صادق الجمال - المرجع السابق .

على تربيتهم وتنظيمهم وتدريبهم ليتمكنوا من مواجهة أية متاعب يثيرها الهندوس .. أو قادة باكستان !

في مارس ١٩٤٨ ، طالب في اجتماع عام بمدينة كراتشي بمطالب محددة : أن يكون الحكم في باكستان لله وحده ، وأن تكون الشريعة القانون الأساسي ، وإلغاء القوانين المنفذة التي تتعارض معها ، وأن تستخدم الحكومة سلطاتها وفق حدود الشريعة .. فكان أن اعتقلته الحكومة لمدة ٢٠ شهراً على ذمة التحقيق .. ثم .. تطورت الأمور أكثر فكااد أن يعدم لولا تدخل الدول الإسلامية الأخرى .. فصدر حكم المحكمة العليا بالعفو عنه سنة ١٩٥٥ .. واستمر على حاله حتى توفاه الله .. عن ستين سنة .. وتحول قبره إلى مزار .

ترك المودودي ١٥٠ كتاباً وكتيباً ، ووصلت محاضراته وبياناته الصحفية إلى الألف ، محفوظ منها الآن ٧٠٠ فقط .. لكن .. لعل أكثر مؤلفاته تحديداً لأفكاره كتابه « المصطلحات الأربعة » الذي نشره في صحيفة « ترجمان القرآن » في نفس عام تأسيس الجماعة الإسلامية .. عام ١٩٤١ .

إن المصطلحات الأربعة هي : الإله . الرب . الدين . العبادة . وقد قال عنها في مقدمة الكتاب : « هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآني وقوامه والقطب الذي تدور حوله دعوة القرآن ، فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى .. هو الإله الواحد الأحد ، والرب الفرد الصمد ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .. ولا يشاركه في ألوهيته ولا في ربوبيته أحد ، وأن نتخذه دون سواه رباً ، ونكفر بالوهمية غيره ، ونجحد ربوبية من سواه ، وأن يُعبد وحده ولا يُعبد أحد غيره ، ويخلص الدين لله تعالى .. ويرفض كل دين غير دينه سبحانه » . (٩) .

وقد أثار الكتاب الكثير من الجدل .. ولا يزال .. وخاصة أنه كان أول من طرح تعبير « حاكمية الله » .. أو « الحاكمية لله » .. وذلك في مواجهة الهندوس الذين كانوا يرفعون شعار « السيادة لأمة » .. أو « الأمة مصدر السلطات » .. ثم إنه كان أول من استخدم تعبير الجاهلية ، وأطلقه على خصومه ، حتى من المسلمين ، الذين رماهم بالإلحاد ، وبأنهم يتعاملون خطأ مع المصطلحات لأربعة .

ويمكن تلخيص الانتقادات التي وجهت إليه في : (١٠) .

١ - أن الهدف الحقيقي له .. هدف سياسي .

٢ - أنه سخر كل المفاهيم الإسلامية الأساسية لخدمة أهدافه السياسية .

يقول الكاتب الإسلامي « محمد يوسف البنوري » : (١١) .. عن المودودي .. « إن الرجل

(٩) المودودي - المصطلحات الأربعة في القرآن - طبعة « دار القلم » الكويت - ١٩٧٧ - ص ٥ .

(١٠) المرجع السابق - ص ٢٨٨ .

(١١) نقلاً عن الجمال - المرجع السابق - ص ٢٨٨ .

- الاقتباسات (من ١٢ إلى ١٧) د . محمد عمارة - مقال « من أمراض الصحوة الإسلامية ، مجلة « الهلال » ، - سبتمبر ١٩٨٦ وقد شخص هذه الأمراض بأنها : التفريق . التشردم . التطرف . الغلو . الغرور . الانفلاق على الذات . السطحية . الارتجال . وتقديس التراث - ص ٦٨ .

سياسي داهية يجتهد أن يكون زعيماً للمملكة ، ولكن الزعامة في مثل شعب باكستان متصلب في الدين لا تتم إلا باسم الدين ، ولو فرضنا أن نيته صالحة وأنه حاول الإصلاح وأنه كان مخلصاً في نيته وطويته ، يمكن أن يكون ذلك ، ولكنه لعدم استفادته من أهل الفضل والتقوى والعلم والدين ، ولعدم حصوله على علوم النبوة على طريقة أهلها سقط في مهاو من الضلال والزيغ ، وأصبحت نهضته ثم جماعته التي تربت على هذه الأصول والقواعد وسيلة لكل إلحاد وزندقة ، ومن الممكن أن ينجو هو نفسه من هذه الموبقات ولكن أتباعه المغرمين برسائله غير ممكن أن يخرجوا من هذه المخزيات المرديات ، حيث انتهج لهم منهاجاً يبلغ بهم إلى الضلال ، وخط لهم خطة توصلهم إلى النار والعياذ بالله .

□□

تلقف سيد قطب في محنته كتابات وأفكار المودودي فقد كانت بمثابة المرمم المهديء لجروحه وآلامه النفسية في تلك الأيام السوداء بالنسبة له ولباقي الإخوان .. إن تلك الأفكار التي كانت تعبر عن حالة سياسية خاصة جداً استهوت سيد قطب لتعميمها .. فكان أن قرر نقلها من تربة إلى تربة أخرى مختلفة تماماً .. ومن مناخ إلى مناخ آخر لا يناسبها !!

إن سيد قطب « عزل نصوص المودودي عن ملابساتها »^(١٢) وحول الحالة الخاصة إلى « نظرية إسلامية » عامة^(١٣) وساعد على ذلك أن المودودي « لم يقدم مقولاته باعتبارها : الرؤية الإسلامية لمناضل مسلم في بيئة محددة ، وإنما قدمها باعتبارها : الإسلام »^(١٤) .. ثم إن صياغاته « ساعدت على كثير من اللبس والغموض والإبهام »^(١٥) ثم « إنه » غير آراءه في الموضوع الواحد عندما تبدلت الظروف .. والملابسات »^(١٦) .

يضيف د . محمد عمارة : « والأستاذ المودودي زعيم شعبي وخطيب مفوه » . « يستثير عزائم الجماهير ويستنهض همهم ، ويستجيش مشاعرهم .. وضروري لهذه الأسباب أن يستخدم الأسلوب الخطابي الحماسي الذي من طبيعته المبالغة في التحذير من التقصير في الواجبات والترهيب في الواقع من شعب الكفر ، والشدة في إصدار الأحكام العامة »^(١٧) .

المثير للدهشة أن أفكار المودودي تسللت عبر زنازين الإخوان بعد محنتهم الأولى (عام ١٩٤٨) وسحرت عقول بعض الشبان الصغار منهم .. ورغم أن تلك المحنة صاحبته ظروف مشابهة لمحنة ١٩٥٤ (سجن ، اعتقال ، تعذيب ، وتلفيق قضايا) فإن قيادة الإخوان الفكرية ، اعتبرت « التعميم عبث يجب وقفه » ونجح مفكرو الإخوان بسهولة في وقف السيل قبل أن ينهمر ويجتاح كل ما يقابله .. على أن الأمر كان هذه المرة أكثر صعوبة ، فالأفكار لا ينادى بها الشباب ، وإنما ينادى بها سيد قطب ، القيادة الفكرية - للإخوان !

إن هذه الأفكار - على عمومها - لم تلق قبولاً مدة طويلة عند جمهور وقادة الإخوان ، الذين كانت لهم نظرة واقعية بالنسبة للعالم الإسلامي .. لكن .. الأمر اختلف مع سيد قطب .. تماماً .

□□

تبدو فكرة الحاكمية واضحة في « معالم في الطريق » قبل تجاوز المقدمة .. « إن العالم يعيش

اليوم في « جاهلية » من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وانظمتها ، جاهلية لا تخفف منها هذه التيسيرات المادية الهائلة وهذا الإبداع المادي الفائق ، .. « هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله على الأرض ، وعلى إخص خصائص الألوهية .. وهي الحاكمة .. إنها تسند الحاكمة إلى البشر . فتجعل بعضهم لبعض أربابا ، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفت الجاهلية الأولى ، ولكن في صورة إدعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة ، وفي عالم يأذن به الله ... فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان البشر اعتداء على عباده » (١٨) .

هكذا قال !

« نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو اظلم . كل ماحولنا جاهلية .. تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وأدابهم ، شرائعهم وقوانينهم حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيراً إسلامياً .. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية » (١٩) .

هكذا أضاف !

ولابد « لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي ، والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية » .. « مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه . هذا الواقع الذي يصطدم اصطداماً أساسياً بالمنهج الإسلامي ، وبالتصور الإسلامي ، والذي يحرمننا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش » (٢٠) .

وهكذا .. اقترح !

لكن .. كيف ؟!

لا يحدد سيد قطب بصورة منظمة الإجابة .. ولا يحدد بدقة الخطوات .. وربما كان الاستعجال السبب .. ربما كان خوفه من أن ينسب ما قاله إلى المودودي .. ربما كان الحماس الشديد - كعادته - لتلك الأفكار . والذي جعل عباراته تتداخل مع مقترحاته .. وربما كان خوفه من أن تعتبر السلطة الكتاب خطة انقلابية !!

على أن القراءة المتأنية يمكن أن توصل إلى صورة مما انتهى إليه ، مع بعض الاجتهاد .

إن الحل عنده يبدأ بمبادئ عامة أهمها :

- ١ - الاعتراف بأن العالم اليوم في جاهلية كالتى كان عليها العرب قبل الرسالة المحمدية .
- ٢ - الإيمان بحاكمية الله ، لا بحاكمية البشر .. أو إعلان « ربوبية الله وحده رب العالمين » .
- ٣ - الاستعداد للثورة الشاملة « على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وانظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور » .

(١٨) معالم في الطريق - ص ١٠

(١٩) معالم في الطريق ص ٢١

(٢٠) معالم في الطريق ص ٢٢

٤ - رفض كل النظم الوضعية التى توصل إليها البشر .. الديمقراطية .. الديكتاتورية ..
الراسمالية .. الاشتراكية . الشيوعية . فالحكم فى كل هذه النظم ليس لله وإنما للبشر .
٥ - الإيمان المطلق بأن يعتنق الناس الدعوة - حتى ولو كانوا مسلمين - لوجه الله ، أى إنها
دعوة عقائدية مطلقة ، ليست فى حاجة إلى أى دعوة أخرى - قومية أو اجتماعية أو اقتصادية -
تدعمها .. حتى ولو كان فى الدعوة العقائدية الكثير من صفات أو ميزات هذه الدعوات .
٦ - لا يمكن التعايش بين حاكمية الله وحاكمية البشر (كما لا يمكن التعايش بين الخير
والشر ، والحق والباطل) ، ولابقاء لطرف إلا بالقضاء على الطرف الآخر .

هذه المبادئ العامة ، الأساسية ، لا يمكن أن تتحقق إلا باتباع الخطوات التالية :

١- الاستعلاء على المجتمع الجاهل وقيمه وتصوراتيه . أى مقاطعته . أى لا يناقش ،
ولا يتعامل معه ، ولا يقترب منه بصورة من الصور . أى هجره . كأنه لم يكن .

٢ - قصر النبع الذى يستقى منه على كتاب الله وحده ، لتخلص النفوس له وحده ، ويستقيم
عودها على منهجه وحده . أى مقاطعة كل منابع الثقافة والفكر مهما كانت . بما فى ذلك كتب الفقه
الإسلامى .

٣ - عدم التفكير والانشغال بالصورة التى سيكون عليها نظام الحكم .. فنظام « الحكم لا يأتى
إلا بعد استقرار الدعوة ، ومن الجاهلية أن يكون هذا النظام قبل نشر العقيدة » .. « هذه مناورة
للإحراج » يقوم بها الجاهليون « ولابد من الاستعلاء عليها » .

٤ - إزالة الأنظمة والحكومات التى تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان
للإنسان ، وإعادة مملكة الله لا يكون إلا بالقوة .. بالحركة .. بالسيف ، لا بالبيان وحده .

٥ - الجهاد ضرورة للدعوة .. وعندما كف المسلمون عن الجهاد لم يعد للمسلمين إسلام ، وهو
مفروض ، وبدونه لا يكون الإسلام إسلاما .

باختصار لابد من ثلاث مراحل رئيسية :

١ . الأولى : مرحلة « القناعة » .. القناعة بجاهلية البشر وحاكمية الله .

الثانية : مرحلة « الاستعلاء » . الاستعلاء على المجتمع الجاهل .

الثالثة : مرحلة « التمكين » التمكين لقتال المجتمع الجاهل وإسقاط نظامه ، والجهاد لفرض
العقيدة وحاكمية الله !

من الذى يتولى هذه المهمة ؟!

١ - تتولاها جماعة من الناس لا تدين بالعبودية لغير الله (فى الاعتقاد ، والتصور ، وفى
العبادات ، والشعائر ، وفى النظام والشرائع) .

٢ - على هذه الجماعة « المسلمة » أن تظهر كل ما علق بأفرادها من شوائب المجتمع الجاهل .

٣ - ثم عليها أن تنظم حياتها على أساس حاكمية الله .. وبغير ذلك لا تكون هذه الجماعة
مسلمة .

٤ - لابد أن تتوقع هذه الجماعة أن يحاربها المجتمع الجاهل حرباً لا هوادة فيها ، وأن تقوم في وجهها عقبات مادية من سلطة الدولة ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة .. وهذا طبيعي لأن عليها أن تحطم كل هذا ، بالقوة ، كي يخلو للمذهب الإلهي وجه الأفراد من الناس ، وكي يخاطب ضمائرهم وأفكارهم بعد أن يحررها من الأغلال المادية ويترك لهم بعد ذلك حرية الاختيار .

٥ - المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغت الجماعة الإسلامية القوة التي تمكنها من التغلب على المجتمع الجاهل ، أو على الأقل الصمود في وجهه .

٦ - يمكن أن تبدأ الجماعة الإسلامية حين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر .. فالثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مائة ، والمائة يصبحون ألفاً .. وهكذا .. حتى يبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي !

ولاشك أن دعوة سيد قطب هذه لا تختلف عن الدعوة الخاصة التي تبناها المودودي لأسبابه الخاصة ، ثم تراجع عنها قبل أن يموت .. فهو مثل المودودي افترض أن المسلمين يعيشون في جاهلية ولابد من إعادة فرض العقيدة عليهم حتى لو أعلنوا الشهادتين .. وهو مثله أعطى لأفكاره صفة العمومية .. أي إنه تحدث عن العالم كله .. والنظم كلها .. والأفراد كلهم ، ولم يستثن أحداً .. وهو مثله يرى أن البداية في تكوين الجماعة الإسلامية وأن على هذه الجماعة أن تقتنع بالعقيدة ثم تستعلى على المجتمع الجاهل ، ثم تتمكن من قوتها ، ثم تحاربه . نفس الأفكار . نفس المنهاج . ونفس التنظيم . ونفس أسلوب الحركة . وإن لم تكن نفس الأسباب ، ونفس الظروف ، ونفس النهاية .

ولاشك أن دعوتي المودودي وقطب ترفضان ١٤ قرناً من الإسلام .. وتشطبان كل هذا التاريخ - بعالمه وما عليه - لتبدأ من الصفر . من النقطة التي بدأ عندها الرسول ﷺ . جماعة صغيرة أمنت به . عقيدة تنتشر سراً في مكة ١٢ سنة . اضطهاد لأحد له من المجتمع الجاهل . هجرة إلى المدينة .. تمكن من القوة . العودة لقتال المجتمع الجاهل وفرض العقيدة بالسيف . ومثل هذه النظريات التي تبدو متماسكة ، تقوم على فرض أساسي ، إذا سقط ، سقطت .. وإذا انهار انهارت .. هذا الفرض هو أن المسلمين ليسوا مسلمين .. وهو فرض غير دقيق .. إن لم يكن غير صحيح .. إن هذا الفرض - الذي تترك الفرصة لغيرنا من رجال الدين وزعماء الإخوان لمناقشته فيما بعد - لا يبدو مثل « النواة » التي تسند « زيراً » يمتلئ إلى حافته بالمياه ، وإنما يبدو مثل « قطعة صغيرة من الحصى » تسند جبلاً كبيراً ! على الأقل مثل جبل « المقطم » !

وإذا كان الربط بين ما قاله المودودي والنظام غير الإسلامي الذي كان حوله ضرورة ، فالربط بين ما قاله سيد قطب والنظام الناصري ضرورة أيضاً .. إن سيد قطب كان يرى أن نظام عبد الناصر الذي يرفع شعارى الإسلام والاشتراكية معاً لا علاقة له بالإسلام .. كان يرى أن « الادعاء بأن دولة عبد الناصر دولة إسلامية نوع من الدعاية لا أكثر ولا أقل » .. فكان ما كان !

□□

لم يكن سيد قطب وحده الذى يرى فى النظام الناصرى نظاماً غير إسلامى .. فأكثر الإخوان اعتدالاً يصفونه بالعلمانية وإن لم يرموه بالكفر .

إن العلمانية هي في أبسط تعريفاتها فصل الدين عن الدولة ، فهل فعل عبد الناصر ذلك ؟
إن من المؤكد أن عبد الناصر لم يكن علمانيا كما قال البعض (من الإخوان إلى د . لويس عوض) فهو في فلسفة الثورة يتحدث عن الدائرة الإسلامية التي تتداخل مع الدائرة العربية التي تعد مصر جزءاً منها .. وفي أزمة مارس ١٩٥٤ بينه وبين الإخوان قال : إن ما نفعله ليس خروجاً على القرآن !^(٢١) وفي أزمة ١٩٦٥ بينه وبينهم أيضاً ، قال : « لم تكن الرجعية أبداً شريعة الله ، ولكن شريعة الله كانت دائماً هي شريعة العدل » ، وفي وقت آخر قال : « إن الإسلام ثورة والتضامن الإسلامي تحتاجه الشعوب » ،^(٢٢) .

وبعد الهزيمة « يونيو ١٩٦٧ » ركز عبد الناصر على الدين لمواجهة ما حدث ، فقال في حديثه إلى الجنود والضباط « ١٠ مارس ١٩٦٨ » : « عاوز كل عسكري يكون مؤمن بالدين وبالمبادئ والقيم » ،^(٢٣) وفي خطاب له في اليوم التالي ، قال : « بالإرادة والإيمان بالله ، والثقة بالنفس ، وبالتدريب وبالجهد وبالعلم نستطيع أن نحيل الهزيمة إلى نصر » ،^(٢٤) .

على أن عبد الناصر - الذي اعتبر الدين أداة من أدوات حكمه - لم يتردد في إعطائه البعد الاجتماعي الذي رآه مناسباً له .. أو كما يقول محمد حسنين هيكل في « خريف الغضب » فإن : « الدين لم يكن عقبة ضد التحولات الاجتماعية التي حدثت في عصر جمال عبد الناصر ، وبالعكس ، فقد خرجت أقوال النبي والصحابة تؤيد كلها مطالب العدل الاجتماعي ، وشاع في كتابة الكتاب والمفكرين القول المأثور عن الصحابي الجليل « أبي ذر الغفاري » : « ثلاث للناس جميعاً : النار والماء والكلا » .. كانت تلك وسائل الإنتاج في العصر الذي قيلت فيه ، واعتبرها « أبو ذر الغفاري » ملكاً للجميع ، وبهذا القول فإن « أبا ذر الغفاري » سبق الفكر الاجتماعي التقدمي بأربعة عشر قرناً كاملاً » .

وأضاف العصر الناصري للمؤسسة الدينية فروعاً جديدة .. المؤتمر الإسلامي (١٩٥٤) .. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٩٦٠) . وكان للمؤسسة الأخيرة دور كبير في نشر الدعوة بمختلف لغات الأرض « بما في ذلك اللغات الأفريقية المحلية ، محدودة الانتشار » ، وقد كان من أشهر إنجازاتها موسوعة « جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي » .

وبعد إعلان الاشتراكية الناصرية سجلت الإحصائيات ارتفاعاً في عدد المساجد من ١١ ألف مسجد إلى ٢١ ألف مسجد .. وأصبح الدين مادة إجبارية في المدارس .. وانتشرت المعاهد الدينية في كل المراكز والمدن الرئيسية وأصبح للفتيات معاهد دينية خاصة بهن^(٢٥)

(٢١) رفعت سيد أحمد « الدين والدولة والثورة » - كتاب « الهلال » - فبراير ١٩٨٥ - ص ٨٨ .

(٢٢) المرجع السابق - ص ١٩٣ .

(٢٣) المرجع السابق - ص ٩٤ .

(٢٤) المرجع السابق - ص ٩٥ .

(٢٥) لمزيد من الاطلاع حول موضوع عبد الناصر والدين - انظر رفعت سيد أحمد - مرجع سبقت الإشارة إليه -

وعبد الله إمام ، مرجع سبقت الإشارة إليه ، ود . محمد عمارة - العلمانية ونهضتنا الحديثة - دار

الشروق - ١٩٨٦ - من ص ١٨٣ .

بل .. إن هناك من يؤكد أن النظام الناصري قد منح الأفكار الدينية حرية التعبير أكثر من غيرها .. فقد لاحظ د . فؤاد زكريا^(٢٦) اتساع نطاق الإعلام الدينى فى العهد الناصري « اتساعاً هائلاً بالقياس إلى ما كان موجوداً من قبل ، وأعطيت فرص كبيرة لوجهات النظر الدينية كيما تعبر عن نفسها بقدر من الحرية لم يكن مسموحاً به على الإطلاق لوجهات النظر العلمانية ، التى كانت تدلى بأرائها بحرية فى الفترة السابقة على قيام الثورة ، لذلك ازدادت كثافة المقررات الدينية فى مراحل التعليم العام والخاص ، وحدث توسع كبير فى حركة تشييد المساجد وتزويدها بوسائل الدعوة والبلاغ » .

ومن جديد ينفى د . فؤاد زكريا : أن الصدام بين الثورة والإخوان كان صداماً دينياً ، أو على خلاف فى التفسير أو فى أسلوب نشر الدعوة ، وإنما كان صداماً سياسياً .. « كان انعكاساً للصراع على السلطة بين الضباط والجهازين العام والخاص » للإخوان « . كل طرف أراد استغلال الطرف الآخر للوصول إلى السلطة أو للبقاء بها »^(٢٧) .

النقد الذى وجهه د . فؤاد زكريا لتحجيم الآراء العلمانية فى العهد الناصري وزيادة حرية التعبير للآراء الدينية يعد نقداً مخففاً بالقياس للنقد الذى وجهه غيره . إن هذا الغير اعتبر عبد الناصر مفرطاً فى التدين إلى حد تغيب العقل المصرى .. ويستند هؤلاء إلى أنه « وفى حمى المعركة الدائرة بعث رسالة لاسلكية سريعة إلى الملك حسين ، جاء فيها : « إن تاريخ الأمم فيه الأخذ والعطاء ، وفيه التقدم والتراجع ، فليكن فيما نختاره فى هذه اللحظة الحاسمة ، وإن كان اختيارنا عصيباً ، علينا خطوة نستطيع أن نتقدم منها ، وهذه إرادة الله لعل فى إرادته خيراً . إننا نؤمن بالله ولا يمكن أن يتخلى الله عنا ، ولعل الأيام القادمة تأتينا بنصر من عنده »^(٢٨) أى إنه لم يفسر الهزيمة تفسيراً عسكرياً ، أو سياسياً ، وإنما تفسيراً دينياً .

وفى ٥ مايو ١٩٦٨ ، وصل العهد الناصري إلى الذروة فى هذا الاتجاه ، بقصة ظهور « العذراء » فى كنيسة « فقيرة » بالزيتون .. فقد أعلن البابا كيرلس السادس أن ظهور « العذراء » حقيقة .. كان ذلك فى مؤتمر صحفى حشدت له وسائل الإعلام المصرية كل إمكاناتها ومواهبها .. وأشارت جريدة « الأهرام » إلى أن « ظهور العذراء يشير بأن الله سيكون فى نصرتنا وإن السماء لم تتخل عنا »^(٢٩) وقيل : « إن هذا الظهور يعنى أن السيدة العذراء لا ترضى عما ارتكبه ويرتكبه اليهود فى الأراضى المقدسة بمدينة القدس .. وأن ما يقع هناك قد أحزنها وهى حامية الأرض المقدسة فجاءت لتعلن للبشر غضبها وحزنها وتدعو لتخليص القدس من مغتصبها »^(٣٠) ولم تمنع هذه « المعجزة » إندساس عناصر غير بريئة وسط الازدحام . فكان أن تدخل التنظيم السياسى « الاتحاد الاشتراكى العربى » لتنظيم صفوف المشاهدين حتى لا يكون الزحام فرصة للعناصر

(٢٦) د . فؤاد زكريا — الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة — كتاب الفكر — القاهرة ١٩٨٦ .

(٢٧) د . زكريا — المرجع السابق .

(٢٨) سعد جمعة — المؤامرة ومعركة المصير — دار الكتاب العربى — بيروت — ١٩٦٨ — ص ٢٣٦ .

(٢٩) جريدة « الأهرام » ، ٥ مايو ١٩٦٨ .

(٣٠) الأهرام — المصدر السابق .

غير البريئة .. وفي هذا الصدد أشارت صحيفة « وطنى » إلى « اهتمام رجال المباحث والاتحاد الاشتراكى العربى بصيانة المعجزة من أى تلفيق أو كذب أو اختلاق » (٣١) .

إلى هذا الحد كان النظام الناصرى علمانيا !!

إلى هذا الحد كان لا يؤمن بالدين !!

□□

فيما بعد ...

في منتصف الستينيات ..

وصف سيد قطب بعد « معالم في الطريق » بأنه « إنسان مسرف في التشاؤم ، ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود ، ويصورها للناس كما يراها هو .. أو أسود مما يراها » .
الوصف سجله رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ، الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى ، في رده على الكتاب ، المرفوع إلى شيخ الأزهر - في ذلك الوقت ، الشيخ حسن مأمون (٣٢) .

الرد طويل .. عباراته حادة .. والمنطق الذى يحكمه مقبول :

١ - موضوع الكتاب دعوة إلى الإسلام ، لكن أسلوبه أسلوب استفزازى .. يهيج المشاعر الدينية .. خاصة عند الشباب .. والبسطاء الذين يندفعون في غير روية إلى دعوة الداعى باسم الدين ، ويتقبلون ما يوحى إليهم من أحداث ، ويحسبون أنها دعوة الحق الخالصة لوجه الله ، وأن الأخذ بها سبيل الجنة .

٢ - إن المؤلف ينكر وجود أمة إسلامية منذ قرون طويلة ، ومعنى هذا أن عهد الإسلام الزاهرة ، وأئمة الإسلام ، وأعلام العلم في الدين ، أنهم جميعا كانوا في جاهلية ، وليسوا من الإسلام فى شيء .. « حتى يجىء إلى الدنيا سيد قطب » .

٣ - المؤلف يدعومرات إلى بعد جديد فى الرقعة الإسلامية ثم يتوسع فيجعلها دعوة فى الدنيا كلها .. وليس أغرب من هذه النزعة الخيالية « وهى نزعة تخريبية يسميها طريق الإسلام » .

٤ - ما معنى الحاكمية لله وحده ؟ هل يسير الدين على قدمين بين الناس ليمتنع الناس جميعا عن ولاية الحكام ؟ « أو يكون الممثل لله فى الحكم هو شخصية هذا المؤلف الداعى . والذى ينكر وجود الحكام ، ويضع المعالم فى الطريق للخروج على كل حكام الدنيا » إن القرآن نفسه يعترف بالحكام المسلمين ، ويفرض لهم حق الطاعة علينا ، كما يفرض عليهم العدل فينا ، والإسلام نفسه لا يعتبر الحكام رسلا معصومين من الخطأ بل فرض لهم أخطاء تبدر من بعضهم ، وناشدهم أن يصححوا أخطاءهم بالرجوع إلى الله وسنة الرسول ، وبالتشاور فى الأمر مع أهل الراى من المسلمين .. ومن المقررات الإسلامية إن الله يزج بالسلطان ما لا يزج بالقرآن - فكيف يستقيم أن

(٣١) جريدة « وطنى » - ٥ مايو ١٩٦٨ .

(٣٢) لم نشأ التوسع فى هذا الرد لأن صاحبه كان يحمل صفة رسمية ، لكننا فيما بعد سنعرض لراى مرشد الإخوان فى الكتاب .

تقوم طليعة مزعومة لتجريد الحكام جميعا من سلطانهم ؟ « وهذا شطط من الخيال يجمع بمؤلف الكتاب إلى الشذوذ عن الأوضاع الصحيحة والتصورات المعقولة .

٥ - يخيل إلينا أن المؤلف شطح شطحة جديدة ، فزعم لنفسه الهيمنة العليا الإلهية في تنظيم الحياة الدنيا ، حيث يقترح أولاً هدم النظم القائمة ، دون استثناء ، وطرده الحكام ، وإيجاد مجتمع جديد ، ثم التشريع من جديد لهذا المجتمع الجديد .

٦ - عندما يدعو المؤلف إلى الجهاد ويعتبره ضرورة لتحرير الإنسان فهذه دعوة إلى إشعال الحروب مع الغير ، ولو كان الوطن الإسلامى آمناً ، مع أن نصوص القرآن وتوجيهات الإسلام عامة لا تدعو إلى مثل هذا الانفعال الفاشم ، وإنما تعتبر الحرب وسيلة علاجية لاستقرار الحياة وقمع الفتن وشق طريق الدعوة إذا وقف في سبيلها خصوم يعاندونها ، ويعوقونها .

٧ - ومهما يكن أسلوب الكتاب مزيجا بآيات قرآنية ، وذكريات تاريخية إسلامية فإنه كأساليب الثائرين للإفساد في كل موقع يخلطون بين حق وباطل ليموهوا على الناس . والمجتمعات لا تخلو من أفراد بسطاء ، يحسنون الظن بما لا يكون كله حقاً ولا إخلاصاً ، وقد يسيرون وراء ظل ناعق ، وخاصة إذا كان يبدى الغيرة باسم الدين ووجدوا في غضون هذه الدعوة تلميحاً بالأمل في المراكز ، والأوضاع ، والقيم الجديدة في المجتمع الجديد ... وهذه الحيلة هي نفسها حيلة إبليس فيما صنعه مع آدم وحواء ، وفيما يدأب عليه دائماً في فتنة الناس عن دينهم ، وعن الخير في دنياهم والله أعلم !

لم يسمع الشباب إلا ما قاله « الأستاذ » .
لا سمعوا رأى الأزهر ، ولا رأى الإخوان أيضاً .
لا استجابوا لنقد المتدينين ، ولا لنقد المفكرين أيضاً .
ساروا على طريق سيد قطب وكأنه الصراط المستقيم .. أصبح هو القائد وهو المعلم .. ورفعوا كتابه دستوراً لهم .. وكونوا الجماعات الإسلامية المتعددة الأمراء ، المختلفة الأمراء ، مع أنهم لا بد - حسب تعاليمه - أن يكونوا جماعة لا جماعات .. طليعة لا طلائع .. وقد اتفقوا جميعاً على تكفير المجتمع وقتاله ، لكنهم اختلفوا على من تكون له القيادة .. بل إنهم لم يتفقوا على من منهم المسلمون فعلاً .. فأضافوا لقتال المجتمع قتال بعضهم البعض ... ثم إنهم اختلفوا حول طبيعة المرحلة التي هم فيها .. هل لا تزال مرحلة استضعاف ، أم تخطتها إلى مرحلة القوة والتمكن .
ثم .. توالى التنظيمات والجماعات التي تؤمن بالعنف .. وتعتقد أن « الأستاذ » على حق ، وأن أمراءها فهموه جيداً .. فالأستاذ قد قال ، وماقاله لا يرد .. رغم أنه بشر .. يخطئ ويصيب .. يتأثرو وينحاز .. يسعد ويغضب .. ويعود إلى الحق إذا لزم الأمر ... ورغم هذا التقدير ، والتقدير للأستاذ ، فإنه كان نوعاً من الإفتراء عليه !

وإذا كان المودودي قد أراد أن يكون زعيماً سياسياً . فهل أراد سيد قطب ذلك أيضاً ؟
وإذا كان تلاميذ المودودي قد بالغوا في تكفير كل من يعترضهم ، ثم تبركوا بضريحه .. فهل كان يسعد سيد قطب أن يفعل تلاميذه ذلك أيضاً !

وإذا كان المودودي قد تراجع عن أفكاره بعد أن تبدلت الظروف ، وتغيرت الأحوال .. فهل كان سيد قطب سيفعل ذلك أيضا .

أغلب الظن أنه كان سيفعل ... طبيعته الإنسانية تقول ذلك .. تضاريس خريطة حياته تقول ذلك .. لكنها إرادة الله أن يموت قبل أن تموت الظروف .. يرحل قبل أن ترحل .. ثم إنه الموت شنتقا الذى جعله شهيدا .. والشهداء لهم الخلود فى الجنة ، ودوام السيرة والأفكار على الأرض .

لقد دفعوا الثمن غاليا .. دماؤهم .. أنفاسهم .. حقهم فى الحياة .. ومن ثم .. فهم المثل والنموذج مهما كانت أفكارهم .. هذه سنة الحياة .. وتصورات الشباب .. وهى حكمة — كما أقول — لا يدركها إلا العقلاء .

[٧]

تنظيم مستشفى « طره » !

□ القوى الخفية التي افسدت العلاقة بين الإخوان
والثورة □ اعتزال المجتمع □ اخطاء الحركة الإسلامية □
مجموعات فدائية لرد الاعتداء □ الإخوان يغيرون
طريقهم □ برنامج عقائدى من وراء الاسوار □ لا لتكفير
المسلمين □ رأى عمر التلمسانى □ نقله إلى مستشفى خارج
السجن □ تقرير عن حالته الصحية □ الحكومة تنشر كتبه
وهو فى السجن □ عبد السلام عارف يتوسط للإفراج عنه □

نكون أو لا نكون !
يكون الإخوان ... أو لا يكونون !
هكذا ...

على ما يبدو كانت القضية كما انتهت إلى سيد قطب وهو لا يزال وراء الاسوار .. في غياهب السجن .

استقر في يقينه تصور ، كان من رابع المستحيلات تخليصه منه .. استقر في يقينه أن السلطة بعد محتى المنشية (١٩٥٤) وليمان طره (١٩٥٧) تنفذ مخططاً لم ينته بعد .. ستسعى إلى إضعاف جماعة « الإخوان » بمزيد من اختلاق المحن .. حتى تقضى عليهم .. وتشرذم نساءهم .. وتخرب بيوتهم .. وتيتم أطفالهم .. ثم إن هذا اليقين الذى ملك كيانه لم يلبث أن انقلب إلى استنفار وتحذير .. فلا يمكن أن يعرف الإخوان ذلك المخطط ولا يتحركون .. لا يمكن أن يعرفوا ويقفون مكتوفى الأيدي .. فذلك معناه الاستسلام للذبح دون مقاومة .. لا بد من المواجهة .. فإما أن نكون أو لا نكون .. لا مفر من الاختيار على هذا النحو !

ازداد هذا اليقين رسوخاً في كيانه بعد أن أصبح مقتنعاً أن هناك من يعكس صفو المياه الجارية بين السلطة والإخوان ، ثم يبدأ الصيد في الماء العكر .. إن هناك من يفسد الهواء النقى بينهما .. فتتحول النسمات إلى زوابع .. ثم في هذا الجو « الخماسينى » يكون البطش والإرهاب .. وحتى آخر يوم في عمره كان مقتنعاً أن « جمعية الفلاح » كانت السبب فيما حدث من توتر وصدام بين الثورة والإخوان سنة ١٩٥٤ ... وحتى آخر يوم في عمره كان مقتنعاً أن هناك قوى خفية هي التى شحنت الجوبين السلطة والإخوان سنة ١٩٥٧ .. أى إن المؤامرة أكبر من رغبة النظام ، وخطر من صراعاته وحساباته .. أى إن جريمة النظام أنه برىء إلى حد السذاجة .. إلى حد الغفلة .. ومن الممكن أن يكون ضحية هو الآخر مثله مثل جماعة الإخوان تماماً مهما بدت الصورة مختلفة^(١) .

(١) المصدر : إقرار سيد قطب الذى كتبه بنفسه في السجن الحربى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٦٥ - ملف القضية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا والقضية رقم ٤٨٤ حصر ٦٥ ، والتى سنرمز لها بتعبير « القضية » عند الاقتباس منها بعد ذلك .

من الجاني الحقيقي ؟ !

في رأى سيد قطب : الصهيونية والصليبية الاستعمارية !

وحسب ما قال : إنها « تكرر حركة الإخوان وتريد تدميرها » .. وأن « مخططاتها ووسائلها » واضحة .. معروفة ... منشورة .. فهي « تريد محو العقيدة الإسلامية » والإخوان حراسها .. وهي « تريد محو الأخلاق الإسلامية » والإخوان حماة .. وهي تريد نشر الإلحاد والانحلال « وبالتالي تدمير العقائد والأخلاق » والمقومات الأساسية في هذا المجتمع « والإخوان هم العقبة الرئيسية أمامها .. ومن ثم .. لابد من التخلص من الإخوان .. من وقف نموهم .. من نسفهم .. من القضاء عليهم » حتى تصبح الساحة خالية ، والملاعب جاهزة ، والطرق مفروشة بالرمال . هذه هي الصورة التي أصبحت جاهزة أمام خيال وعقل ونظر سيد قطب في بداية الستينيات .. أو .. « هذه هي الحصيلة التي تجمعت لدى فيما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٢ » .. كما قال . (٢)

ومن ثم .. « امتلأت نفسى اقتناعاً بضرورة وجود حركة إسلامية كحركة الإخوان المسلمين في هذه المنطقة وضرورة عدم توقفها بحال من الأحوال » . (٣)

« إن الحركة الإسلامية يجب أن تستمر . إن القضاء عليها في مثل تلك الأحوال يعد عملاً فظيلاً جداً يصل إلى حد الجريمة » . (٤)

وتحت هذه الشعارات والتحديات بدأت حركته الجديدة !

□ □

لم يجد سيد قطب - بعد حادث طرة - من الإخوان حوله في السجن ، من يمكنه أن يستوعب أفكاره ، وينضم إلى جماعته .. قضى الحادث على معظم الإخوان الذين كان من الممكن تجنيدهم .. وكان الوحيد الذي يمكن أن يطاوعه ، ويناقشه ، تلميذه وصديقه ورفيقه في الحبس لمدة ١٠ سنوات : محمد يوسف حواش .

بعد جلسات طويلة من البحث والنقاش ، راجعا فيها حركة الإخوان المسلمين ، وقارناها بالحركة الإسلامية الأولى التي كانت في فجر الإسلام ، انتهيا معاً إلى : « أن الحركة الإسلامية اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية » .. و « البعد عن القيم والأخلاق الإسلامية » وليس فقط البعد عن النظام الإسلامى والشرعية الإسلامية - وفي الوقت نفسه تواجه معسكرات صهيونية وصليبية استعمارية تحارب كل محاولة للدعوة الإسلامية وتعمل على تدميرها عن طريق الانظمة والأجهزة المحلية ، بتدبير الدسائس والتوجيهات المؤدية لهذا الغرض » . (٥)

هذه القناعة ، جعلت سيد قطب ، يؤمن بأن أسلوب الإخوان كان خطأ .. كان يمتلئ بالثقوب والعيوب .. فالحركة شغلت « نفسها أحياناً كثيرة بالاستغراق في الحركات السياسية المحدودة المحلية » ... مثل : محاربة معاهدة أو اتفاقية .. مثل : محاربة حزب أو تيار أو اتجاه .. ومثل :

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) - سيد قطب - القضية .

التورط في المناورات الانتخابية الخ ... « كما أنها تشغل نفسها بمطالبة الحكومة بتطبيق النظام الإسلامى والشريعة الإسلامية ، بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة الإسلامية ، والغيرة عليه ، وعن الأخلاق الإسلامية » .. (٦)

كانت هذه الانتقادات نوعاً من التقييم الذى أجراه سيد قطب هو ومحمد حواش لحركة الإخوان من أيام حسن البنا إلى أيام حسن الهضيبى .. وكانت نوعاً من محاسبة الذات أيضاً .. فهو في مرحلته السابقة رفض اتفاقية الجلاء .. وسعى إلى التخلص من حكومة الثورة .. وتحالف مع الشيوعيين في أزمة مارس ١٩٥٤ الخ .. لكن .. كل هذه الانتقادات كانت - في رأيه - أخطاء حركية « يمكن أن تستبعد ويمكن الاستفادة من التجربة في تجنبها » (٧) ..

وقبل أن نتجاوز هذه النقطة لابد أن نشير أنه تصرف - كالعادة - بطبيعته الذاتية .. فالفكرة التى يثبت له أنها خاطئة لابد أن يؤمن الآخرون أنها كذلك .. والمرحلة التى يتجاوزها بحكم تجربته الخاصة ، يجب أن يتجاوزها الآخرون أيضاً .. ولأنه مثقف فهو مقنع .. ولأنه مرتب الذهن فهو مؤثر ... ولأنه جرب بنفسه فالناس لابد أن تثق فيه .. ثم إنه كان بارعاً في التقاط الأدلة من الظروف التى تحاصره .

□□

لم يتردد سيد قطب - كطبعه - في أن يحول قناعاته إلى برنامج .. وأفكاره إلى منهاج .. وتصوره إلى تنظيم .. تنظيم جديد مستقل عن الإخوان ، داخل الإخوان .. لم تمنعه أمراضه ولا جدران السجن من تشكيله .

تنظيم يقوم على « العقيدة النقية » .. يتجنب ضياع الوقت في الأحداث السياسية الجارية .. ولا يفرض « النظام الإسلامى عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هى التى تطلب النظام الإسلامى لأنها عرفت على حقيقته وتريد أن تحكم به » (٨) ... لكن ..

هذا لا يمنع من ضرورة وجود « مجموعات مدربة تدريباً فداًئياً » ... « تتدخل عند الاعتداء على الحركة والدعوة والجماعة لرد الاعتداء وضرب القوة المعتدية بالقدر الذى يسمح للحركة أن تستمر في طريقها » .. (٩)

وكان السؤال الصعب الذى طرحه على نفسه : « كيف يجند الشباب لتنظيمه وإيمان طرة ليس فيه من يصلح ؟ » .. وكانت الإجابة السهلة خدمة من ظروفه الصحية .. إن الإخوان المسلمين كانوا موزعين على معظم سجون البلاد .. من سجن القناطر إلى معتقل الواحات .. إلا أن بعضهم - وعلى فترات متفاوتة - كانوا يحضرون للعلاج ، إما في مستشفى سجن مصر أو في مستشفى إيمان طرة .. ولأنه يقيم إقامة كاملة في مستشفى إيمان طرة ، فمن الممكن أن تتاح له الفرصة مع من يأتون إليها .. وكان أن سعى إلى الذين قدموا للعلاج وكان أغلبهم من سجن « القناطر » .. وحسب مدة العلاج كان يجد حجم الفرصة .. أحياناً كانت تمتد إلى شهور .. وأحياناً لا تزيد على

(٦) و(٧) و(٨) و(٩) و(١٠) سيد قطب - القضية .

أيام .. وفي كل الأحيان كانت فترات الرياضة هي أنسب الأوقات للاتصال والحوار وربط
« الكلام » .. ولأن الفرصة - في الغالب - كانت ضيقة ، فقد كان لا يملك - على حد قوله - سوى
أن يفتح لمن يحادثه « نافذة للتفكير من جديد والقراءة في الكتب التي تساعد » ، على التصور
الجديد .. وكان يسمى له عدداً من الكتب .. بعضها كان عنده .. وأغلبها كان في مكتبات
السجون .

لم يكن سيد قطب في ذلك الوقت سوى « أخ مسلم » .. (١٠) .. صحيح أن له في نفوس الإخوان
« قيمته ومكانته الشخصية بوصفه كاتباً ومفكراً إسلامياً له خبرته وتجربته في المجالات العامة ،
وله شهرته ومكانته في العالم الإسلامي » .. (١١) .. لكن صحيح أيضاً أنه لم تكن له « صفة حركية
إدارية في الجماعة تعطى له الحق الشرعى في رسم خطة حركية » .. (١٢) فهذا من حق مكتب
« الإرشاد » ، وهو ليس عضواً فيه .. ولأنه كان يعرف أنه يقلب فلسفة الجماعة ، ويغير خططها ،
دون استئذان القيادة ، ولأنه كان يعرف جيداً أن الإخوان يتبعون بصراحة ما تقوله وما تأمر به
القيادة ، فإنه كان يبدأ مع كل شاب من الجماعة بحذر .. ببطة .. بهدوء ، حتى لا يفشل التنظيم
قبل أن يبدأ .. حتى لا يضرب من داخل الجماعة قبل أن يتعرض للضغوط من خارجها .
كان يعرف ما يفعله جيداً ...

كان يبدأ بالحوار .. وكان الحوار ينحصر في ترك الأمور الجارية .. تنشيط العقيدة .. تقوية
أفرادها .. وإعدادهم للوقت المناسب للانقضاء على المجتمع الجاهل ..

وبعد الحوار .. تبدأ مرحلة الدراسة من خلال برنامج قراءة أولى ، معين ، قدره البعض بستة
شهور ، وقدره البعض الآخر بستة ونصف .

وقد بدأت هذه البرامج - في نفس الوقت تقريباً - داخل وخارج السجون !
ففيما بعد قال « على عشاوى » ، أحد قادة الإخوان في تنظيمات حركة ١٩٦٥ :

— « أذكر أنه في الاجتماع الأول بينى وبين أعضاء القيادة ، محمد فتحى رفاعى (مسئول
التنظيم في الغربية) جاب نشرة مطبوعة وقال إنها من سيد قطب في السجن ، وإنه جابها عن طريق
اسماعيل الهضيبي (ابن المرشد العام حسن الهضيبي) وعرضها علينا لقراءتها ، وكان فيها
مشروع برنامج دراسى إسلامى مؤداه إنه لازم تدرس خلال سنة ونص مجموعة كتب سماها في
النشرة منها على ما أذكر تفسيره « في ظلال القرآن » ، وبعض كتبه ، وكتب شقيقه محمد قطب
وكتب أبو الأعلى المودودى الباكستانى » . (١٣)

وفيما بعد ، قال عضو التنظيم عباس حسن السيسى :

— كان البرنامج في الأسر قراءة كتب معينة مثل : « معالم في الطريق » و « في ظلال القرآن » ،
— سيد قطب « الإسلام والجاهلية » — أبو الأعلى المودودى .. و « الإيمان » — ابن تيمية .. (١٤)

(١١) و (١٢) سيد قطب - المصدر السابق .

(١٣) ص ٢١٠ - الجزء الثالث - ملف القضية .

(١٤) ص ١٠٤٠ - ج ١١ - القضية .

وفيما بعد ، قالت زينب الغزالي :

« طلبت من حميدة قطب أن تبلغ الأخ سيد قطب تحياتنا ورغبة الجماعة المجتمعة لدراسة منهج إسلامي في الاسترشاد بأرائه .. وأعطيتها قائمة بالمراجع التي ندرسها وكان فيها تفسير ابن كثير ، والمحلى لابن حزم ، والام للشافعي ، وكتب التوحيد لابن عبد الوهاب وفي ظلال القرآن لسيد قطب ، وبعد فترة رجعت إلى حميدة وأوصت بدراسة مقدمة سورة الأنعام .. الطبعة الثانية وأعطتني ملزمة من كتاب قالت : إن سيد يعده للطبع واسمه معالم في الطريق .. وكان سيد قد ألفه في السجن وقالت لي شقيقته ، إذا فرغتم من قراءة هذه الصفحات سأتيكم بغيرها » . (١٥) ...

في ذلك الوقت (١٩٦٢) كان قد أفرج عن حسن الهضيبي إفرجاً صحيحاً ، وقد وصل إليه كتاب سيد قطب على أجزاء .. على مسئولية زينب الغزالي ، اطلع الهضيبي على الكتاب وأذن بطبعه .. وقال : « على بركة الله .. إن هذا الكتاب حصر أمل كله في سيد ، ربنا يحفظه ، لقد قرأته ، وأعدت قراءته ، إن سيد قطب هو الأمل المرتجى للدعوة الآن ، إن شاء الله » . (١٦)

□□

خلال الفترة ما بين ١٩٦٢ ، و ١٩٦٤ تكونت في السجن التي كان فيها الإخوان خلايا التنظيم الجديد .. وقد سميت هذه الخلايا باسم « الأسر » .. ولم يعرف أحد العدد الحقيقي للتنظيم .. وتراوحت التقديرات بين ٢٥ و ١٠٠ عضو .. ويبدو أن هذا التفاوت الكبير في التقديرات يرجع إلى سرية التنظيم وعدم كشف معظم أفراده ، أو ربما كان سيد قطب قد فاتح مائة شخص ، ولم يثق إلا في ربعهم .. فقد قال بنفسه : إنه خلال تلك الفترة تكونت مجموعة في سجن القناطر عددها حوالي المائة : ٢٥ اندمجوا في الدراسة وأصبحت لهم مفهومات واضحة في العقيدة والمنهج و ٢٢ عارضوا مبدأ السماع إلا من قيادة الجماعة في الواحات و ٥ درسوا ولم يصلوا إلى الوضوح الكافي .. (١٧) أي إنهم كانوا في الطريق .. ولم يعرف ما انتهوا إليه لأنه كان قد خرج من السجن ..

فيما بعد .. خرج سيد قطب من السجن ، وعرضت عليه قيادة التنظيمات الإخوانية الجديدة التي كانت في انتظاره ، وفي حاجة إلى قيادة .. فكان أن قال للخمسة الكبار في هذه التنظيمات :

« أنا شكلت مجموعة أمنت بعقائدي وأفكاري داخل السجن من سنة ١٩٥٩ وإن المجموعة متضلة بي .. غير أنه يرى عدم دمجها بباقي المجموعات « لأنهم مكشوفين للبوليس » .. (١٨) ، لأنهم مساجين سابقون ، وتحت العين والمراقبة .

لقد راحت المجموعة التي كونها في السجن تواصل الاتصال به بعد الخروج منه .. لكن المدة التي قضاهما خارج السجن لم تكن تكفي لمزيد من التوسع ، لأنها لم تزد على ثمانية أشهر بالضبط .. كانت

(١٥) زينب الغزالي - أيام من حياتي - دار الشروق - الطبعة الثامنة - ص ٢٦ .

(١٦) زينب الغزالي - المرجع السابق - ص ٣٦ وذلك مع ملاحظة أن الهضيبي قد رد فيما بعد على أفكار قطب والمودودي في كتاب أعده خصيصاً هو كتاب « دعاة لا قضاة » وسوف نتعرض له في الوقت المناسب .

(١٧) سيد قطب - القضية .

(١٨) أقوال على عشاوي - القضية

علاقته أكثر بمحمد حواش خلال تلك المدة القصيرة .. وقد كان يرشحه لأن يتولى إكمال عملية التوعية للمجموعات الخارجة من السجون ، كما كان يرشحه لتولى المسؤولية القيادية من بعده . (١٩) □□

كما تحمس بعض شباب الإخوان لأفكار سيد قطب بشدة ، تحمس البعض الآخر - وبشدة أيضاً - ضد هذه الأفكار .. وأغلب الظن أن الذين عارضوه اعتبروا خطه « مخالفاً للخط الحركي الذي سارت عليه الجماعة من قبل » . واعتبروه صادراً « عن جهة غير شرعية بالنسبة لهم » . (٢٠) وأغلب الظن أيضاً ، أن قصر مدة الحوار بين سيد قطب ، والشباب الذي تحمس له ، جعل بعضهم - كما قال - يفهم أفكاره خطأ .. وبسبب هذا الفهم الخاطئ راح عدد منهم يبرز - لأول مرة - خناجر التكفير !

أقام المعارضون لأفكار سيد قطب وتنظيمه ، ضجة كبرى داخل صفوف الإخوان .. ووصفوا ما يفعله بأنه « فتنة » ، ستعصف بالبقية الباقية من الجماعة .. وحسب ما تذكر ، كان أبرز المعارضين : أمين صدقي ، وعبد الرحمن البنان وعبد العزيز جلال .. وبسبب هذه الضجة وخوفاً من الفتنة ، انزعجت قيادة الإخوان مما انتهت إليه أفكار سيد قطب من تكفير وتحريض واستفزاز .. وقد شاء المرض أن يحضر للعلاج في ليمان طرة شخصية إخوانية لها احترامها ، هو عبد الرموف أبو الوفا .. وكان أن قال لسيد قطب فور أن اختلى به :

« نحن منزعجون ، لأنه ليس في نيتنا أن نكفر الناس ! »

رد سيد قطب : (٢١) .

« إننا لم نكفر الناس ، وهذا نقل مشوه ، إنما نحن نقول : إنهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة وعدم تصور مدلولها الصحيح ، والبعد عن الحياة الإسلامية - إلى حال يشبه حال مجتمعات الجاهلية ، وأنه من أجل هذا لا تكون نقطة البدء في الحركة هي قضية إقامة النظام الإسلامي ، ولكن تكون إعادة زرع العقيدة والتربية الأخلاقية الإسلامية .. فالمسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس » .

أي أنه - بصريح العبارة - لا يكفر أحداً .

التقى سيد قطب - بعد ذلك - في مستشفى ليمان طرة بعمر التلمساني ، وعبد العزيز عطية ، وكانا في ذلك الوقت من أعضاء مكتب الإرشاد .. تكرر النقاش .. وامتد .. وحسب ما قال : إنهما فهما حقيقة المسألة .. فاستراحا لها ! وفيما بعد .. قال عمر التلمساني : (٢٢) .

- إنه لا يعتقد أن كتاب « معالم في الطريق » فيه جديد .. « ولكن بما أن « معالم في الطريق » كتبه سيد قطب في السجن بعد أن ذاق ألوان العذاب على مختلف قسوتها ووحشتها ، فقد بدأت نغمته على مخالفة الشرع أوضح وأظهر ، وما أراد الأستاذ سيد قطب في يوم من الأيام أن يكفر مسلماً لأنه أعلم

(١٩) و (٢٠) سيد قطب - القضية

(٢١) قطب - المصدر السابق .

(٢٢) و (٢٣) - عمر التلمساني - ذكريات لا مذكرات - دار الاعتصام - ١٩٨٥ .

المسلمين بأن رسول الله (ﷺ) قال في أكثر من حديث : إن من قال لا إله إلا الله مؤمناً بها قلبه فلن يخلد في النار .. ونحن نعلم أنه لن يخلد في النار إلا الكافرون .. وهم الذين ينكرون وحدانية الواحد القهار .. هذه واحدة ، والثانية أن كثرة ترداده لكلمة « المجتمع الكافر » أو « المجتمع الجاهلي » لم يقصد بها تكفير المجتمع ولكن تشديد النكير على الظلمة والطغاة والمستغلين والمشكلين .

واضاف التلمساني :

« والذين يعرفون سيد قطب ودماته خلقه وجم أدبه وتواضعه ورقة مشاعره ، يعرفون أنه لا يكفر أحداً . إنه داعية إسلامي من عيون دعاة المسلمين ، فظلمه من أخذ كلامه على غير مقاصده » (٢٣) .

والذين ظلموا سيد قطب ، وأخذوا كلامه على غير مقاصده هم - في رأي التلمساني - الشبان الذين رفعوا راية التكفير ، وعجزت قيادات الإخوان داخل وخارج السجون عن إقناعهم بأن طريقهم لا يؤدي أبداً إلى الإسلام .

□□

بالتأكيد ..

أدت دعوة سيد قطب إلى فتنة في صفوف جماعة الإخوان المسلمين .. ولعل الصواب لا يبتعد كثيراً عنا ، لو اضعفنا أن الفتنة اتسعت لتشمل الحركة الإسلامية المعاصرة .

لقد انقسم الإخوان من جديد إلى فريقين .. فريق يطالب بضبط النفس ، وفريق يطالب بالمواجهة والتحفز .. فريق يؤمن بفرض النظام الإسلامي بالوسائل التي يمكن أن يسمح بها النظام ، وفريق لا يرى إلا الانتفاض والانتقال .. فريق يسيطر عليه ما تبقى من جيل « الحرس القديم » وفريق يسيطر عليه الشباب .. وسواء فهم الفريق الشاب المتفجر بالغضب والحركة أفكار ودعوة سيد قطب فهماً صحيحاً ، أو فهماً خاطئاً ، فإنه أصبح منقسماً على الإخوان .. وأصبح أعلى صوتاً .. وأسرع تكفيراً .. وأكثر رغبة في العنف والصدام .. ولا يزال !

وبالتأكيد ...

لأن ما قاله سيد قطب - في ذلك الوقت - بداية تحولات لا حد لها في جماعة الإخوان المسلمين .. في التفكير .. في التنظيم .. وفي الحركة .. وامتدت هذه التحولات - كالعادة - من القلب في مصر إلى الفروع والأطراف في معظم البلاد العربية .

إن الأدلة على وقوع هذه التحولات كثيرة .. ومتنوعة .. وتبدأ من منتصف الستينيات وتمتد إلى الآن .

في قضية الإخوان - ١٩٦٥ ، اعترف عبد الفتاح إسماعيل - الذي ساهم في إحياء التنظيم كما سنعرف فيما بعد - أن هذه التحولات قد وقعت فعلاً .. وكان أن سأله المحقق : (٢٤) .

س : كيف يتسنى الوصول لهدفكم النهائي فيما اتفقتم عليه ؟

(٢٤) القضية ص ٤١٥

ج : الهدف مكانش محدد له مدة وكان المهم أن نسير على الطريق ونبدأ بإعداد الأمة المسلمة ، ولما نتكامل قوتها يبقى ممكن نعمل انقلاب لقلب نظام الحكم القائم وقتها وتنصيب حكومة من أمتنا المسلمة تستند في حكمها إلى قاعدة إسلامية صحيحة .

س : مفهوم هذا القول إن الاتفاق كان على قلب نظام الحكم القائم بالقوة وتغيير دستور الدولة وشكلها الحال .

ج : أيوه الهدف النهائي إننا نقلب نظام الحكم القائم بالقوة .

س : وهل هذا يتفق مع ما كانت عليه دعوة حزب الإخوان المسلمين قبل الحل ؟

ج : لا .. وده تغيير في المفاهيم حصل نتيجة الحوادث لأن الإخوان قبل الحل كانوا عاوزين الإصلاح عن طريق الدولة وكانت دعوتهم مكشوفة وكان ممكن إنهم يوصلوا للحكم عن طريق البرلمان ، أما في الظروف الحالية ، وبالنظر إلى حظر نشاط الإخوان فإنه لا يمكن في رأينا الوصول للحكم إلا بطريقة سرية نكبر بها أنفسنا حتى يمكن أن نتولى مقاليد الأمور في يوم من الأيام وذلك بطريقة قلب نظام الحكم القائم وقتذاك بالقوة .

س : وهل تدارستم في البرنامج الذي يزعم السير عليه إذا ما توليتم مقاليد الحكم في البلاد ؟

ج : احنا لم نفكر في الموضوع لأن وقته مش دلوقت ، وهذا هدف بعيد إنما الهدف القريب هو التربية .

في نفس القضية قال عضو التنظيم أحمد عبد المجيد عبد السميع : (٢٥) .

– « سيد قطب كان بيتكلم في النشرات (التي كان يرسلها من السجن) عن الإخوان والجماعة المسلمة .. والكلام اللي « كان مكتوب في النشرة عجبنا لأنه كان كلام جديد علينا » .

وقال عضو التنظيم عباس حسن السيبي : (٢٦)

– تنظيم الإخوان المسلمين عموماً يسعى إلى هدفين أولهما تجميع الإخوان مع بعض في تنظيم على شكل أسر ومجموعات يتدارسون الدعوة الإسلامية ويتفقهونها ، وهى تخلص الوطن الإسلامى من كل سلطان أجنبى ، وإحلال الشريعة الإسلامية محل القوانين الوضعية وقيام حكومة إسلامية تحمل لواء الإسلام وتدعوله . والهدف الثانى إعداد هؤلاء الإخوان مادياً وروحياً لتحقيق هذه الدعوة والجهاد في سبيلها ، فأما الإعداد الروحى فيكون بتربية الأفراد على أسس إسلامية . وأما الإعداد المادى فيكون بتربية أجسامهم بالرياضة . ويشمل أيضاً التدريب على السلاح ، وطبعاً بنجمع اشتراكات للصرف على التنظيم . والغرض في النهاية هو تطبيق أحكام الإسلام والحكم بما أنزل الله .

□□

(٢٥) ص ٥٢٩ - القضية - الجزء السادس .

(٢٦) ص ١٠١٥ - القضية - الجزء الحادى عشر .

في نهاية سنة ١٩٦٠ ، ساءت حالة سيد قطب الصحية إلى حد كبير .. إنها نفس الفترة التي ازدهرت فيها أواخر الأفكار التي انتهى إليها .. وعليها .

لم تكن إمكانات العلاج في مستشفى ليغان طرة تناسب أمراضه ولم تكن قادرة على وقف تدهور صحته .. فالرئة تتعرض لحالات من النزيف المفاجيء .. والمعدة والأمعاء تتعرض لنوبات لا تتوقف من التقلصات .. والقلب بدأ يضاعف من ضرباته إلى أن وصل لمرحلة الأزمة ..

وكان أن بذلت محاولات عديدة من خارج السجن لنقله إلى مستشفى متخصص للعلاج .. لكن كل هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح .

وكان - بعد حد من التدهور - أن قررت اللجنة الطبية العليا لمصلحة السجن نقله إلى مستشفى « المنيل » الجامعي .. وفي هذا المستشفى كشفت الخبرة والأجهزة الحديثة أنه يقترب من حالة الذبحة الصدرية .. وبعد ستة شهور قضاهما هناك عاد إلى مستشفى ليغان طرة .. وفي العام التالي تدهورت صحته من جديد ، فعاد إلى مستشفى « المنيل » الجامعي مرة أخرى لمدة ستة شهور أخرى .. رجع بعدها إلى السجن ..

وخلال وجوده في السجن ، رفض سيد قطب أن يشغل نفسه بشيء آخر يبعده عن أفكاره الأخيرة .. حتى أنه رفض عرضاً وصله من سعيد رمضان للكتابة في مجلة « المسلمون » ، التي كان يصدرها في الخارج .. إن سعيد رمضان من الإخوان الذين فروا إلى الخارج ، ونظموا ومولوا حملات ضد عبد الناصر والثورة .. وفي موسم الحج سنة ١٩٥٩ قابلته زينب الغزالي في السعودية ، وعرض عليها الاتصال بسيد قطب وإقناعه بكتابة مقالات لمجلته .. ولما عادت زينب الغزالي إلى مصر أبلغت حميدة قطب برغبة سعيد رمضان ، فراجت زارته في السجن ، ونقلت إليه الرسالة ، فرفض ، وقال : « إن الحكومة هنا في مصر مصرحة له بطبع كتبه هنا ، ولما يكتب في مجلة « المسلمون » ، بتاعة سعيد رمضان ربما تمنع طبع الكتب بتاعته في مصر » .. وفي سنة ١٩٦٠ ذهبت زينب الغزالي للحج مرة أخرى وقابلت سعيد رمضان وأبلغته برفض سيد قطب .. فغضب وقال : « والله عال يا سيد ، الله هو الرزاق ، وهو اللي بيوكل الناس مش عبد الناصر أو الحكومة » . (٢٧) .

ويبدو أن رد سيد قطب أغضب سعيد رمضان ، فقال لزينب الغزالي :

« قولي للمرشد في مصر إن الإخوان في الخارج معدوش ح بيعتوا فلوس للأسر في مصر لأن المسألة ما تتحولش لمسألة لاجئين ، ولازم إخوان مصر يقوموا بيها » . (٢٨) وتضيف زينب الغزالي : إنه « كان متضايق جداً من إخوان مصر وكان زعله إنهم مالهمش نشاط وإنهم انتهوا وكان يقول إيه الإخوان وإيه قيمتهم في مصر دلوقت وأنا فهمت من هذا إن سعيد رمضان كان بيعت فلوس مصر وعاوز يقطعها ، ولما قلت للمرشد مردش على وهذه عادته » ، (٢٩)

س : طلب منك سعيد رمضان مقالات سياسية تهاجم الحكم الحاضر في مصر وأرسالها إليه لنشرها في مجلة « المسلمون » ، التي يصدرها في الخارج ؟

(٢٧) و (٢٨) و (٢٩) و (٣٠) أقوال زينب الغزالي - القضية - ص ٢٧٦٢ ، وص ٢٧٦٣ - ج ٢٨

ج : لا .. هو محدد لي ش نوع المقالات .. وأعتقد إنه كان عاوز مقالات من سيد قطب لأنه من مفكرى الإخوان وكتابهم . (٢٠) .

وفى اثناء وجوده فى السجن ، كانت الإذاعة السعودية تذيع احاديث مقتبسة من كتابه « فى ظلال القرآن » .. وبعد أن خرج من السجن بشهرين فوجئ برسالة منها مرفق بها تحويل بمبلغ ١٤٢ جنيهاً على بنك « بور سعيد » قيمة الاحاديث التى اذيعت .. ولأنه عرف أن الإذاعة السعودية تذيع احاديث منتظمة مقتبسة من كتابه منذ سنوات وأنها مستمرة فى ذلك ، قرر أن يطالبها بكل حقوقه السابقة واللاحقة كمؤلف .. فأرسل إلى وزير الإعلام السعودى رسالة بهذا المعنى لكنه لم يتسلم أى رد ، وأنه عرف من بعض العائدين من الحج .. « أنه تقرر هناك تخصيص مكافأة عن الإذاعات السابقة تودع تحت تصرف مع الاستمرار فى إرسال المكافآت التى تستجد بالطريقة التى أرسل بها المبلغ السابق .. إلا أن شيئاً من هذا لم يتحقق ، كما قال (٢١) .

ولابد أن نذكر أنه كان حريصاً على أن تطلع المباحث العامة (مباحث أمن الدولة) على كل هذه التفاصيل - كما اضاف - وكان ذلك أولاً بأول (٢٢) .

□□

فى سنة ١٩٦٤ تعرض سيد قطب لانتهيار حاد جديد فى صحته استدعى نقله مرة ثالثة إلى مستشفى « المنيل » الجامعى .. لكنه هذه المرة لم ينقل .. لأنه قد أفرج عنه إفراجاً صحياً .

إن كثيراً من الروايات تؤكد أن الرئيس العراقى الأسبق عبد السلام عارف هو الذى توسط عند جمال عبد الناصر للإفراج عنه .. وتؤكد هذه الروايات أيضاً : أن الرئيس عبد السلام عارف قد قال : إن كتاب « فى ظلال القرآن » كان أنيسه فى فترة اعتقاله .

بل .. إن سيد قطب نفسه يقول : إن الرئيس عبد السلام عارف قام بهذه الوساطة و « نجحت والحمد لله » (٢٣) .

لا ننكر أنه كان للرئيس عبد السلام عارف عند الرئيس جمال عبد الناصر ما يجعله يقبل وساطته للإفراج عن سيد قطب ، لكن هذا لا يعنى أن الرئيس عبد الناصر لم ير أن حالة سيد قطب الصحية لم تعد تحتل المزيد من الحبس .. كما أنه - على ما يبدو - تصور أن تدهور صحته لن يعيده إلى التنظيمات والحركة .. ومن المؤكد أنه لم يتخيل أنه يقود تنظيماً جديداً ، وأن كتابه « معالم فى الطريق » سيكون الراية الجديدة للإخوان المسلمين ، فقد أمر عبد الناصر بالإفراج عن الكتاب بعد أن طبع ، وصادرت الرقابة على الكتب . وجاءته عينات وقوائم الكتب المصادرة .. ومن المؤكد أن جمال عبد الناصر تصور أن الإخوان المسلمين المفرج عنهم يمكن أن يدخلوا فى نسيج المرحلة الجديدة ، التى كان يمر بها المجتمع المصرى ، كما فعل غيرهم ممن دفعوا نفس الثمن ..

(٢١) و (٢٢) سيد قطب - المصدر السابق .

(٢٣) سيد قطب - المصدر السابق .

لقد حاول عبد الناصر أن يفتح صفحة جديدة مع الإخوان ، بدأت سنة ١٩٥٦ بالإفراج عن المعتقلين الذين لم يحكم عليهم بعقوبة .. ثم حدثت إفراجات أخرى في سنة ١٩٦٠ ، وسنة ١٩٦١ .. وفي سنة ١٩٦٤ كان سيد قطب يعبر بوابة السجن إلى الضوء والحرية والخضرة ..

بعد أن خرج من السجن زاره سفير العراق في القاهرة فحمله رسالة شكر إلى الرئيس عبد السلام عارف .. طلب فيها أن يواصل مساعيه لإنهاء قضية الإخوان بجملتها . (٢٤) .. وقد عرض عليه السفير العراقي - الذي أصبح وزيراً للتربية والتعليم - أن يعمل في العراق كخبير في التربية ومناهج التعليم .. وقد كان من رأى الشيخ عمر التلمساني : أن يقبل ويسافر - بلا تردد - إلى بغداد .. لكن سيد قطب أثر البقاء في مصر ، ليدافع عن رأيه ، (٢٥) .

وكان إصراره على البقاء في مصر نوعاً من إرادة القدر .. الذي أفصح عما يخبئه له ، بعد شهور قليلة ، وقبل أن يحتفل بالسنة الأولى على عودته إلى الشمس ..

(٢٤) سيد قطب . القضية

(٢٥) عمر التلمساني - المرجع السابق .

[٨]

الطريق إلى المشقة !

□ الإخوان يحلمون بالحياة والانتقام □ التنظيمات
الجديدة لهم □ البحث في الدفاتر القديمة عن زعيم □ رايه
في نظام حكم عبد الناصر □ اعترافات بخط يده في السجن
الحربي □ شمس بدران تلميذه □ ضربة وقائية □ تحذير
منير الدالة : المخابرات المركزية اخترقت التنظيم □ العنف
ليس زوبعة في لنجان □ الهضيبي يرد : دعاة .. لا قضاة □
ملاحظت على ابواب غرفة الإعدام □ الشيخ القرضلوى .
نحن لا نعيش في جاهلية □

تغيرت ملامح الحياة في مصر بينما الإخوان المسلمون في عالم ما وراء الأسوار .
راهنّت الثورة على الاستقلال الوطنى .. أصبحت شوكة في حلق وعين وأنف الاستعمار ..
كسرت احتكار السلاح .. قاومت سياسة الأحلاف .. طرحت حلم القومية العربية .. وأصبحت
القاهرة عاصمة العالم الثالث .

وسط أشواك الديكتاتورية العسكرية ، خرجت أزهار « الصبار » .. ووسط معارك حرب
« السويس » خرج عبد الناصر زعيماً شعبياً .. ووسط إحباطات الماضى ، وجد الفقراء به
الأرض ، والمصنع ، والكتاب ، والقلم ، والكراسة ، فرض القفز على الوعود الحزبية القديمة التى
لم تتحقق .

ملامح جديدة ، جعلت معظم فصائل القوى التقدمية - التى رفضت الثورة - تراها بعيون
مختلفة .. وأصبح جمال عبد الناصر في نظرها زعيماً وطنياً ، بعد أن كان ضابطاً فاشياً . !

لم تصل الصورة الجديدة لمصر ، والثورة ، وجمال عبد الناصر إلى الإخوان المسلمين ، ليس
بسبب حوائط السجن السميكة وأسواره العالية فقط ، وإنما بسبب رغبتهم في الثأر والانتقام ورد
الصاع صاعين أيضاً .

إن مساحة عريضة من جماهير الإخوان وجدت مصلحتها في العهد الجديد ، فراحت تؤيده
وتناصره وتدافع عنه بإيمان وصدق وحماس ، وبقيت القيادات الوسيطة - التى لم تدخل
السجن - على عدائها .. وأضيف لها أسر وأبناء المعتقلين والمسجونين الذين نالهم جزء من
العقاب ، فكانوا بمثابة « خميرة » لجيل جديد ، مقاتل من الإخوان .. جيل جديد كان يعد نفسه ،
ويتحين الفرصة للانتقام والانقضاض !

وخلال فترة الإعداد لم ينقطع إتصال ذلك الجيل - كما عرفنا قبل صفحات - بقيادته الروحية ،
الفكرية ، الجديدة ؛ سيد قطب .. لم تمنع الحوائط والأسوار والأسلاك ذلك الجيل أن يعرف أفكار
معلمه الجديد أولاً بأول .. بل إنه - كما عرفنا قبل صفحات أيضاً - غير أسلوب وفلسفة الإخوان ،
وقلبها ، فكان أن تغيرت نظرتهم إلى المجتمع ... وبدلاً من أن كانوا يسعون إلى إصلاحه أصبح
الهدف القضاء على جاهليته !

إن الإخوان قبل أن تصلهم أفكار سيد قطب كانوا :

١ - يتجمعون أحياناً لمساعدة أسرى المسجونين والمعتقلين ... وفي هذه التجمعات كانوا يفرضون ٥٪ من دخلهم لهذا الغرض .. كما كانت الأموال تأتيهم من بعض الإخوان الذين فروا إلى الخارج .. عند الاتصال بهم في مواسم الحج .. وقد كانت هذه التجمعات نواة التنظيمات الجديدة التي انفجرت فيما بعد .. ويبدو أن أجهزة الأمن كانت تقف بالمرصاد لكل من يقوم بهذه المساعدة .. وكان أن اعتقلت بعض من قاموا بهذا العمل .. مثل مبارك عبد العظيم عياد المدرس بالازهر ، الذي قال : إنه دفع عشرة قروش لمساعدة عائلات الإخوان فاعتقل ، وقدم للمحاكمة أمام محكمة الشعب ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات .. (١) وبعد أن خرج من السجن لم يتردد في أن يحول دراسته إلى متفجرات يضعها في خدمة التنظيم الذي ينتمى إليه .

٢ - وكانوا يحلمون بإعادة الجماعة إلى الحياة مرة أخرى .. وإثبات الوجود مرة أخرى .. وأن يؤكدوا لأنفسهم أن المحنة الأخيرة مثل المحنة التي كانت قبلها ، لا بد أن تمضي .. وأنهم رغم كل ما حدث لن يموتوا .. فبدأت عملية البحث عن تبقى منهم .. وبدأت حبال الاتصال تمتد بينهم من جديد .. وكان ما كان .

٣ - وكانوا أيضاً يفكرون في الانتقام ورد الصاع صاعين للنظام الناصري .. ففي سنة ١٩٥٩ كون المهندس بالمساحة محمد عبد الفتاح الشريف تنظيماً إخوانياً كان الهدف منه الانتقام .. فقط الانتقام .. وحدث أن التقى في « لوكاندة » في المنصورة في صيف ١٩٦٢ بمجموعة أخرى من الإخوان ... وقال لهم : (٢)

« إننا ينبغي أن نتحرك ونثبت وجودنا ولازم ننتقم من ضربة سنة ١٩٥٤ ، ونعمل عمليات اغتيالات سرية » .

وسئل :

« طيب والبلد حايكون مصيرها إيه ؟ ومين اللى حايحكم بعد كده ؟ ! » .

قال :

« إحنا حالياً كإخوان ما نقدرش نحكم البلد وأى واحد بيحى ما يهمناش » !

أى أن الهدف كان - فقط - الثأر !

هكذا ... كانت الصورة النفسية والتنظيمية التي كان عليها الإخوان خارج السجن خلال سنوات الخمسينيات التالية على محنة ١٩٥٤ .. رغبة في البقاء .. دفاع عن الذات .. إحساس عارم بالانتقام .. وتجمعات صغيرة عشوائية تساعد قدر الإمكان وتشد الأزر قدر الإمكان .. لكن بعد ذلك راحت هذه التجمعات تتلاشى ، ثم تتشابك ، ثم تتوحد .. وراحت بعد ذلك أيضاً تغير من أحلامها ومن أحزانها .. حتى أصبحت تنظيماً واحداً .. يقوده سيد قطب في سنة ١٩٦٥ .

□ □

(١) - ص - ١٠٥١ - ج - ١١ - ملف القضية .

(٢) - ص - ٢٠٧ - الجزء الثالث - ملف القضية .

عندما قبض على « كاتب الحسابات » على أحمد عبده عشاوى سنة ١٩٦٥ كان عمره ٢٨ سنة .. وقد راح يروى للمحقق^(٢) بإسهاب كيف كون تنظيمه ؟ ! وراحت التفاصيل تقفز من بين سطور اعترافه .

في سنة ١٩٥٢ انضم إلى تنظيم الإخوان .. شعبة « ميت غمر » .. كان عمره ١٧ سنة .. لم يكن عضواً نشطاً .. ولم تتح له ظروف الحل ذلك أيضاً .. وحتى سنة ١٩٥٧ لم يزاوّل أى نشاط سياسي أو ديني .. في تلك السنة خرج من المعتقل زميله الذي ضمه إلى الإخوان ، وطلب منه أن يجتمعوا بمجموعة إخوان سابقين من جديد .. والتقت المجموعة المكونة من أربعة شبان دون أن تكون لديهم صورة واضحة عن كيفية العمل .. وقبل أن يصلوا إلى هذه الصورة فر الثلاثة الآخرون خارج البلاد .. وبقي هو .

في سنة ١٩٦٠ قرر على عشاوى بينه وبين نفسه أن يبدأ العمل « على إعادة إحياء الجماعة بحيث أنها تقوم قوية مرة أخرى » ..^(٤) .. فبدأ الاتصال ببعض من كان يعرفهم من الإخوان .. أحدهم كان « كاتم أسرار في وزارة الحربية » وكان هناك طالب بكلية الهندسة .. وفي منتصف سنة ١٩٦٢ التقى الثلاثة أمام ضريح « أحمد ماهر » في منطقة « العباسية » ، وتعاهدوا أن يكونوا نواة لتنظيم الإخوان المسلمين الجديد .. وتعاهدوا أن يعيدوا التنظيم السابق إلى الحياة .. ثم .. بدأوا النقاش .. وكانت أولى القضايا التي اختلفوا عليها - قبل أن يصبحوا أربعة - هي : نبدأ بالسلاح أم بالرجال ؟ .. بالتجنيد أم بالتدريب ؟ .. وقرروا أن يبدأوا في كل الاتجاهات معا .. ثم وزعوا الاختصاصات الرئيسية فيما بينهم .. ولم تعض ستة شهور حتى كان التنظيم يتسع لمجموعتين من الأعضاء .

في صيف ١٩٦٢ جرى تعارف بين على عشاوى وعبد الفتاح الشريف لم ينته إلى شيء .. لكن .. بعد لقاء التعارف جاء شخص من طرف الشريف يبلغ عشاوى أنه « يعرف واحد ضابط من مجموعة رشاد مهنا وإنهم عاوزين يعملوا انقلاب بس مش لاقين واحد يقتل الرئيس « عبد الناصر » فعاوزين واحد إخوانى يقوم بالدور ده وهم يكملوا الانقلاب لصالح الإخوان ويجيبوا رشاد مهنا رئيس جمهورية » ..^(٥)

سأل عشاوى : « مين هم الضباط دول ؟ » ..

فكان الرد : « مش عاوزين يقولوا أى تفاصيل ! »

قال عشاوى : « المسألة بالشكل ده تبقى مفيش فيها أمان والإخوان حاتبقى مخلص قطلان في حالة الفشل احنا اللي حاننضر ، والضباط مش حا يجرى لهم حاجة وفي حالة النجاح هم اللي حا ياكلوها » ..^(٦)

وفي أواخر سنة ١٩٦٢ ، وصلت عشاوى رسالة أخرى تفيد بضرورة أن يلتقى بشخص اسمه عبد الفتاح اسماعيل .. في مسجد بميدان « باب الحديد » .

□ □

(٢) أقوال على عشاوى - ص ٢٠٤ - القضية .

(٤) و (٥) و (٦) أقوال على عشاوى - ملف القضية - والصفحات بالترتيب هي ص - ٢٠٨ ، ص ٢٠٨

ص - ٢٠٨ .

بدأت صلة عبد الفتاح اسماعيل بالإخوان ، بسماع خطاب للشيخ حسن البنا في دمياط سنة ١٩٤٨ ، وفي سنة ١٩٥٢ افتتح شعبة للإخوان في كفر البطيخ وأصبح سكرتيراً لها .. في سنة ١٩٥٤ اعتقل - ولم يحاكم - ١١ شهراً .. في فترة الاعتقال بالسجن الحربى عرف الكثير عن الجماعة .. خرج ليعمل بالتجارة .. وراح بقدر ما تسمح به ظروفه يساعد أسر المعتقلين والمُسجونين .. وفي سنة ١٩٥٩ كون مع عبد الفتاح الشريف تنظيمه لإحياء الجماعة .. ولمساعدة الأسر .. كانوا يجمعون النقود ويرسلونها إلى زينب الغزالي التي كانت تتصرف فيها بمعرفتها ..

كانت زينب الغزالي قد تعرفت به وهى في طريقها إلى الحج (٧) عام ١٩٥٧ ، على ظهر مركب أبحرت من ميناء السويس إلى ميناء جدة .. وقد وصفته بأنه « أحب شباب الإخوان إلى حسن البنا » .. في المركب طلب منها اللقاء في « مكة » لوجه الله .. للحدث .. وفي مكة بعد ركعتي الطواف جلسا خلف مبنى بئر « زمزم » بالقرب من مقام إبراهيم ، وقال لها : إن قرار حل جماعة الإخوان المسلمين باطل .. ثم كان كلامه « عن وجوب تنظيم صفوف الجماعة وإعادة نشاطها » .. وقبل العودة تباعدا « على الجهاد والموت في سبيل دعوته » .. وعندما عادا إلى مصر وجدا في انتظارهما فتوى تقول : « إن جمال عبد الناصر ليس له أى ولاء ولا تجب له طاعة على المسلمين حيث أنه يحارب الإسلام ولا يحكم بكتاب الله تعالى » .. وأيد الهضيبي الفتوى ، وأذن ببدء الحركة من أجل إعادة التنظيم .

التقى بعبد الفتاح الشريف ومحمد هلال سالم وحافظ الزينى وغيرهم ، وتوالت الاجتماعات والمناقشات ، وكلها كانت تدور حول : كيف تكون البداية ؟ .. وكيف يواصلون المسيرة ؟

وبعد الكثير من الأخذ والرد اتفقوا على ضرورة الوقوف في وجه الحكومة التي تمنع الإخوان عن العمل .. واتفقوا على أنهم في حاجة لرجال يتراوح عددهم بين ١٠٠ - ٢٠٠ رجل ... وكان أن سعى عبد الفتاح اسماعيل للقاء على عشاوى في مسجد بميدان « باب الحديد » لتدبير الأمر . في الموعد المحدد التقى الرجلان .. واتفقا على « أساس أن التنظيمين يبقوا تنظيم واحد قيادته جماعية » .. (٨) .. ثم أعادوا توزيع المسئوليات والاختصاصات .. وقال عبد الفتاح اسماعيل : إن هناك ٤ آلاف جنيه موجودة للتنظيم أخذها من زينب الغزالي ، التي أخذتها من الإخوان في السعودية بواسطة تجار من غزة !

بعد وقت قصير على هذا الاتفاق ظهر من داخل التنظيم من يعترض على أن يتولى عبد الفتاح اسماعيل القيادة ، لأنه لا يصلح لها .. ولأنه .. « معروف للمباحث ومتبوع » .. ولأنه لا بد من قيادة كبيرة لأن « أى تشكيلات من غير قيادة كبيرة حاتجيب ضرر » . (٩)

وكان أن بدأ التنظيم رحلة البحث عن زعيم !

إن حسن الهضيبي المرشد العام لم تسقط بيغته ، لأنها لا تسقط إلا بالموت أو بالتنازل .. لكن

(٧) زينب الغزالي - أيام من حياتى - ص ٣٠ .

(٨) و (٩) عشاوى - ٢٠٩ و ١١٠ - القضية .

ظروفه السياسية والصحية تمنعه من قيادة التنظيم .. لقد قال : « إنه من ناحيته لا يستطيع أن يمنع أحداً يعمل للإسلام » .. (١٠) لكنه هو كان غير قادر .. فمن الذى يقدر ؟ ! □ □

يقول عبد الفتاح اسماعيل : (١١)

— فى سنة ١٩٦٤ كنا نسير فى طريق التنظيم بخطى متعثرة بسبب قلة الخبرة وعدم وضوح خطوط عريضة لما قمنا من أجله لذلك كان هناك شعور بالعجز عن تحمل هذه المسئولية .. ولم يعارض الجميع فى البحث عن قيادة تستطيع توجيهنا وتحمل المسئولية معنا .

وفى يوم كنا نزور زينب الغزالى فوجدنا هناك عبد العزيز على وحرمة ، فعرفتني به ، ثم قالت لى بعيداً عنه : إنه رجل مسلم ووطنى ويعرف المرشد وأنه كان وزيراً ثم استقال من أول حكومة للثورة بدون معاش وزير .. وطبعاً كان اسمه معروفاً فى تاريخ الحزب الوطنى وجماعة الشبان المسلمين .. وبعد أن تعرفت عليه ، قلت له : إن الإخوان الآن بحاجة إلى قيادة .. وكان أن قال : « ربنا يفعل اللي فيه الخير » ..

مجموعات من شباب التنظيم قابلوا عبد العزيز على ، وبهروا بتاريخه السرى ، وبهروا أكثر عندما قال : زمان كان الواحد يموت وسره معاه ، ثم أخرج من جيبه زجاجة صغيرة فيها مادة سامة تقتل فى ثوان .. أخذها منه أحدهم فى فرح .. وأحس الجميع أنهم عثروا على القيادة المطلوبة .. الحكمة . الخبرة . والسمعة الطيبة .. لكن .. سرعان ما صرف التنظيم نظره عن عبد العزيز على ، لأنه ليس إخوانياً أصلاً .. ولأنه كان يريد قلب التنظيم إلى جمعية سرية .. ولأن هناك من راح يشيع أنه - وزينب الغزالى - على علاقة بالأمريكان .. ثم .. إن سيد قطب كان - فى ذلك الوقت - قد خرج .

قبل أن يخرج سيد قطب من السجن ، كانت هناك اتصالات أخرى تجرى بقيادة أخرى .. وكانت القيادة الأخرى الضابط الإخوانى السابق معروف الحضرى .. طلبوا منه مراجعة برنامج وضعوه للتدريب .. لكنه قال : إنه لم يعد يثق فى الإخوان بعد ما حدث فى الماضى .. وأنه غير مستعد لأن يبذل قطرة من دمه فى سبيل هذا الشعب !

وكان أن ظل التنظيم على حاله بقيادته الجماعية - الخماسية ، المكونة من على عشاوى وأحمد عبد المجيد وصبرى عرفة ومجدى عبد العزيز متولى وعبد الفتاح اسماعيل ، حتى انضم إليهم سيد قطب بعد ذلك . □ □

قبل أن يخرج سيد قطب من السجن ، خرجت أفكاره .. وقبل أن يلتقوا به التقوا بفلسفته .. وغيروا فلسفتهم إليها .. لم تعد القضية مساعدة المحتاجين .. ولا إعادة الجماعة للحياة .. ولا إثبات الذات والوجود .. ولا حتى الثأر الانتقام .. أصبحت القضية إعداد العدة .. إعادة نشر

(١٠) أقوال عبد الفتاح اسماعيل - ص ٣١٤ - القضية .

(١١) عبد الفتاح اسماعيل - ص ٢٢٢ - القضية .

العقيدة .. تجهيز مجموعات فدائية ترد العدوان .. والاستعداد للانتفاض على المجتمع « الجاهلي » .

لقد تغيرت فلسفة الإخوان بعد أن وصلت إليهم رسائل سيد قطب وتعليماته وبرامجه الدراسية - الإسلامية .. وتغيرت أيضاً نظرتهم إلى المجتمع من حولهم .

إن سيد قطب كان يرى أن نظام عبد الناصر نظام أمريكي .. وكان يعتبر هجوم عبد الناصر على أمريكا وسياستها .. ورد أمريكا عليه بقطع المعونة الاقتصادية ووقف شحنات القمح مجرد مناورات للتمويه .. ثم .. إنه وفي نفس الوقت كان يرى أن الاشتراكية العربية التي كان يطبقها ، هي في الأصل اشتراكية كارل ماركس .. والموجود منها في مصر هو مجرد تطبيق لها محور بحسب الظروف الواقعة ^(١٢) .. وأن معسكرات قادة الشباب والتي أصبحت فيما بعد منظمة « الشباب » غلب عليها « التوجيه الشيوعي » والاتجاه الانحلالى الخلقى ^(١٣) . بجانب ما « ينشر في الصحف عموماً وخاصة مجلة الطليعة » ومجلة الكاتب ومجلة روز اليوسف ومجلة صباح الخير .. مما يوجد جواً وبيئة فكرية لا يقف في وجهها التوجيه التقليدى الهزيل القليل الذى يتمثل فيه الفكر الإسلامى ^(١٤) .. ولابد - إذن - من ثورة في الفكر الإسلامى للمواجهة .. وتمثلت هذه الثورة في تغير الرؤية للمجتمع على النحو الذى ذكره .. وقد سيطرت هذه الرؤية بالفعل على الإخوان الجدد .

ففيما بعد سئل العضو مبارك عبد العظيم :

س : ما مفهوم جماعة الإخوان في نظام الحكم القائم ؟

ج : نظام الحكم القائم لا يحكم بكتاب الله وبالتالي فهو حسب كتاب الله يمثل طاغوت . والمجتمع حالياً هو مجتمع جاهل .

س : هل كان هذا مفهوم جميع أفراد الأسرة الذين ضمنتهم ؟

ج : حسب ما شرحته لهم وحسب ما اقتنعوا به كان هذا مفهومهم جميعاً بلا استثناء ^(١٥) .

وفيما بعد سئل عباس حسن السيسى :

س : ما رأيك في نظام الحكم القائم ؟

ج : النظام القائم في مصر لا يطبق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً وإن كانت بعض مظاهر

الإسلام موجودة واحنا بندعو إلى تطبيق حكم الإسلام كاملاً ^(١٦) .

س : وما الغرض من إعادة تكوين الجماعة ؟

ج : الهدف الحقيقى هو أن تتحقق العبودية لله بمعنى الخضوع من الحاكم والمحكوم لله

وحده - وما الحكم والحكومة إلا وسيلة لتحقيق الحاكمية لله . ولكن الحكم في حد ذاته ليس هدفاً

إنما وسيلة فقط لتحقيق الحاكمية أو العبودية وهو قدر بمعنى أنه بيد الله يعطيه من يشاء .

س : أترى في مجتمعنا الحالى أو في الدولة عبودية لغير الله ؟

(١٢) و (١٣) و (١٤) - قطب - القضية .

(١٥) ص ١١٧٠ - القضية .

(١٦) ص ١٠١٦ - القضية .

جـ : أرى وأعتقد أنه إذا رضى البشر بشريعة غير شريعة الله تحكمهم فهذه عبودية لغير الله وشرك به . (١٧) .

وفيما بعد أيضاً سئلت زينب الغزالي :

س : ما الأسباب التى من أجلها قبلت الموافقة على قلب نظام الحكم فى مصر بالقوة المسلحة ؟

جـ : لإقامة حكم القرآن !

س : وما مفهومك عن الحكم الحاضر ومدى التزامه بأحكام القرآن ؟

جـ : أنا أعتقد أنه غير ملتزم لأحكام القرآن .

س : وما الأساس الذى استندت إليه للخلوص بهذا الرأى ؟

جـ : لأن أجهزة الحكم فعلاً لا تحكم بالقرآن ، وحكم ربنا واضح ، ومن يحكم بغير ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، ومعنى ذلك أن الحكم الحالى فى مصر غير ملتزم بحكم القرآن فهو حكم فاسق وظالم وده أضعف الإيمان .

س : وما مظاهر الفسق والظلم فى الحكم الحالى حسبما تقررين ؟

جـ : طبيعى هذا واضح فى إباحة الخمر والقمار والربا فى البنوك التى بيقوم عليها نظامنا الاقتصادى وعرى النساء والأفلام السينمائية والتمثيلية الخليعة والرقص والباليهات وإباحة الاختلاط فى المدارس والجامعات وهذه هى مظاهر الجاهلية فى المجتمع بالإضافة إلى انتشار الشيوعية فى مصر والإفراج عن المسجونين منهم وتوليهم مناصب قيادية فى الدولة وخاصة أجهزة الإعلام كالتليفزيون والإذاعة والصحافة ومش فاكهة أسماء منهم وده فيه ضرر على الشعب لأن معندهم مش اعتقاد فى الله وعشان كده مش ح يدوا الشعب المفاهيم الأساسية بل على العكس ح يدوا له المفاهيم الجاهلية وأنا الآن أدعو الله بتوفيق الحكومة للعمل بالإسلام . (١٨)

هكذا .. انتقلت فلسفة ورؤية وأفكار سيد قطب إلى الجماعة .. ثم .. كان أن توافق أسلوبه فى الحركة مع أسلوبهم وأن تغير التوقيت بعض الشيء .

فهذه التنظيمات منذ اللحظات الأولى لتكوينها كانت تسعى إلى العنف والاعتداءات .. وتسعى للتدريب على السلاح وعلى المصارعة .. وأقامت معسكرات خاصة لذلك فى بلطيم .. وكانت تسعى للحصول على السلاح من خارج البلاد عن طريق ليبيا والسودان ويتمويل من الإخوان الهاربين فى الخارج ، ومن داخل البلاد أيضاً ، خاصة الخناجر ، والأسلحة البيضاء ، كما كان هناك شباب

(١٧) ص ١٠٧٢ - القضية .

(١٨) يرد الناصريون على نقطة سيطرة الإعلام الشيوعى فى عهد عبد الناصر بالقول أن الأهرام كان يشرف عليه محمد حسنين هيكل وهوليس ماركسيا وأشرف فترة على « الأخبار » . وكان فكرى أباطة وأحمد بهاء الدين مشرفين على دار الهلال وكان أنور السادات وصلاح سالم وحلمى سلام وكمال الحناوى وفتحي غانم مشرفين على دار التحرير وكان إحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وأحمد فؤاد وكامل زهيرى مشرفين على دار روز اليوسف وتولى الإشراف على « أخبار اليوم » كمال رفعت وإحسان عبد القدوس .. وتولاهم لدة محددة خالد محيى الدين ومحمود أمين العالم ولم تستمر تجربتهما طويلاً . وكان محمد صبيح مشرفاً على دار التعاون وكان د . أحمد حسن الزيات مسئولاً عن هيئة الاستعلامات وكان د . عبد القادر حاتم مسئولاً عن التليفزيون - انظر عبد الله إمام - عبد الناصر والإخوان - ص ١٤٤ . وانظر ما قالته زينب الغزالي - ص ٢٧٧٢ - ملف القضية .

عبقري ، راح يصنع المتفجرات وزجاجات المولوتوف .. إلخ .. لكن سيد قطب كان يرى أن ذلك العنف المطلوب ليس أوانه .. وأن المجموعات الفدائية التي تتكون لا تتحرك إلا لرد الاعتداء على الجماعة .

إن هذه التنظيمات كانت منذ بدايتها تفكر في اغتيال عبد الناصر .. بتفجير قطاره لاسلكيا .. بالسسم .. بالقنابل .. بحزام ناسف يلف حول صدر أحدهم .. وكانت تفكر في قلب نظام الحكم بالقوة .. وكانت تفكر في اغتيال رموس النظام وأركانها .. وكانت تفكر في نسف محطات الكهرباء والقناطر الخيرية لشل حركة الدولة .. ولم يعترض سيد قطب إلا على التوقيت .. وحسب ما قاله ، تحولت هذه الأفكار والخطط من هجومية ، انتحارية ، إلى دفاعية للرد على اعتداء الدولة .. أي إذا وقع الاعتداء كان الرد عليه من جانبها ، ضرورة . (١٩)

□□

خرج سيد قطب من السجن ..

وعلينا الآن أن نتركه يروى ما حدث بنفسه : (٢٠)

« حدث أن التقيت بعد خروجي على التوالي بالشبان الآتية أسماؤهم - من بين من التقيت بهم من الإخوان وغير الإخوان ممن لهم اتجاه إسلامي : عبد الفتاح اسماعيل - على العشماوى - أحمد عبد المجيد » وقد عرفت بقية اسمه هنا في السجن الحربى ، - مجدى صبرى .. وعلمت منهم بعد لقاءات متعددة أنهم مكونون بالفعل تنظيما يرجع تاريخ العمل فيه إلى حوالى أربع سنوات أو أكثر ، وأن أقلية منه ممن سبق اعتقالهم من الإخوان والأكثرية ممن لم يسبق اعتقالهم أو ممن لم يكونوا من الإخوان من قبل ، (٢١)

(ملحوظة - ١ - تم اللقاء الأول بين سيد قطب والخمسة الكبار بترتيب بين عبد الفتاح اسماعيل وزينب الغزالى وكان في عشته برأس البر في حوالى يوليو ١٩٦٤ - وياتوا عنده الليلة بعد أن تناقشوا في أفكاره) . (٢٢)

ويضيف سيد قطب : إن هذا التنظيم تم بأن كلا منهم على انفراد فكر في ضرورة العمل لإعادة حركة الإخوان .. وأنهم في أثناء تحركهم التقوا بعضهم ببعض .. فكونوا هذا التنظيم الواحد .. ولأنهم كلهم شبان قليلو الخبرة ، ولأنهم حتى الآن لم يجدوا قيادة لهم .. فقد عرضوا « أن أتولى أنا هذا بعد خروجي ، ذلك أنهم بعد أن قرأوا كتاباتى وسمعوا أحاديثى معهم قد تحولت أفكارهم وتوسعت رؤيتهم إلى حد كبير . وقد كانوا يفكرون من قبل على أساس أن المسألة مسألة تنظيم مجموعة فدائية لإزالة الأوضاع والأشخاص التى ضربت جماعة الإخوان المسلمين وأوقفت دعوتهم وإقامة الجماعة وإقامة النظام الإسلامى عن هذا الطريق .. أما الآن فقد فهموا أن

(١٩) سيد قطب - القضية .

(٢٠) رغم أننا نملك النص الكامل لما قاله سيد قطب في القضية ، إلا أننا لن نعتمد إلا على الجزء المنشور في كتاب « لماذا أعدمونى » وخاصة أن الناشر يؤكد أنه بخطيد سيد قطب ، كما أنه قد تم الجزم بصحته من عدد كبير ممن يتفق فيهم الناشر .

(٢١) سيد قطب - لماذا أعدمونى ؟ - ص ٤٦ - فقرة ثانية .

(٢٢) أقوال عشماوى - ص ٢٥٩ - القضية .

المسألة أوسع من ذلك بكثير وأن طريق العمل طويل ، وأن العمل في المجتمع يجب أن يسبق العمل في نظام الدولة . (٢٣)

« وكنت أمام أمرين : إما أن أرفض العمل معهم .. وهم لم يتكفوا على النحو الذي أنا مقتنع به .. وإما أن أقبل العمل على أساس تدارك ما فاتهم من المنهج الذي أتصوره للحركة وعلى أساس إمكان ضبط حركاتهم بحيث لا يقع اندفاع في غير محله خصوصاً وبعضهم ينوى فعلاً .. وقررت اختيار الطريق الثاني والعمل معهم وقيادتهم . (٢٤)

« ولكنني قلت لهم مخلصاً في ذلك ، حقيقة أن الحركة الإسلامية في الظروف الحاضرة تحتاج إلى نظرة واسعة وفهم ووعي الإسلام ذاته وتاريخ حركته وكذلك فهم للظروف العالمية المحيطة بالإسلام وبالعالم الإسلامي .. إلخ . وأنتم تقولون إنكم لم تجدوا قيادة ، وتريدون أن أقوم لكم بهذا الدور .. ولكنني كما تعلمون رجل مريض بأمراض مستعصية على الطب حتى الآن وخطيرة والأجل نعم بيد الله ولكن قدر الله يتم بأسباب يوجد لها الله .. لذلك يجب أن تعتمدوا على الله وتحاولوا أن تكونوا أنتم قيادة ومهمتي الحقيقية معكم هي بذل كل ما أملك لتوعيتكم وتكوينكم العقلي لتكونوا قيادة ، (٢٥) .. ثم راح يدرس معهم تاريخ الحركة الإسلامية ، خلال لقاءاته معهم والتي كانت تتم مرة كل أسبوع .. أو أسبوعين أو حسب الظروف .

« كنا قد اتفقنا على استبعاد استخدام القوة كوسيلة لتغيير نظام الحكم أو إقامة النظام الإسلامي ، وفي الوقت نفسه قررنا استخداماً في حالة الاعتداء على هذا التنظيم الذي سيسير على منهج تعليم العقيدة وتربية الخلق وإنشاء قاعدة للإسلام في المجتمع ، وكان معنى ذلك البحث في موضوع تدريب المجموعات التي تقوم برد الاعتداء وحماية التنظيم منه ، وموضوع الأسلحة اللازمة لهذا الغرض وموضوع المال اللازم كذلك (٢٦) .

« فأما التدريب فقد عرفت أنه موجود فعلاً من قبل أن يلتقوا بي ، ولكن لم يكن ملحوظاً فيه أن لا يتدرب إلا الأخ الذي فهم عقيدته ونضج وعيه ، فطلبت منهم مراعاة هذه القاعدة ، وبهذه المناسبة سألتهم عن العدد الذي تتوافر فيه هذه الشروط عندهم ، وبعد مراجعة بينهم ذكروا لي أنهم حوالي السبعين ، وتقرر الإسراع في تدريبهم نظراً لما كانوا يرونه من ملل يتسرب إلى نفوس الشباب إذا ظل كل زادهم هو الكلام من غير تدريب أو اعداد ..

« وأما السلاح فكان موضوعه له جانبان :

الاول : أنهم أخبروني أنه نظراً لصعوبة الحصول على ما يلزم منه حتى للتدريب فقد أخذوا في محاولات لصنع بعض المتفجرات محلياً ، وأن التجارب نجحت وصنعت بعض القنابل فعلاً ولكنها في حاجة إلى التحسين والتجارب المستمرة . (٢٧)

(٢٣) سيد قطب - المرجع السابق - ص ٤٧ - فقرة أولى .

(٢٤) المرجع السابق - ص ٤٧ - فقرة أخيرة .

(٢٥) المرجع السابق - ص ٤٨ - فقرة أخيرة .

(٢٦) المرجع السابق - ص ٤٩ - فقرة أولى .

(٢٧) ص ٥٠ - فقرة ثالثة .

(ملحوظة - ٢ - يتضمن ملف القضية معلومات مذهلة عن كيف تمكن أعضاء التنظيم المتخرجون في كليات العلوم من تحضير مواد مفجرة ومفرقة بجنيهاات قليلة اعتمادا على مواد كيميائية متوافرة في الأسواق مثل نترات النوشادر - وقد شرح ذلك بالتفصيل مبارك عبد العظيم محمود - انظر ملف القضية - الجزء الثاني عشر) .

« الثلثي : ان على عشاوى زارنى على غير ميعاد واخبرنى أنه كان منذ حوالى سنتين قبل التقائنا قد طلب من اخى دولة عربية قطعاً من الاسلحة ، حددها له في كشف ، ثم ترك الموضوع من وقتها ، والآن جاءه خبر منه بأن هذه الاسلحة سترسل - وهى كميات كبيرة حوالى عربية نقل ، وانها سترسل عن طريق السودان مع توقع وصولها في خلال شهرين .. (٢٨) » .

« ولما كان الخبر مفاجئاً فلم يكن ممكناً البت في شأنه حتى نبحثه مع الباقيين .. فاتفقنا على موعد لبحثه معهم .. وفي اليوم التالى - على ما أتذكر - وقبل الموعد جاءنى الشيخ عبد الفتاح اسماعيل وحدثنى في هذا الامر وفهمت أنه عرفه طبعاً من على « عشاوى » وكان يبدو غير موافق عليه ومتخوفاً منه ، وقال : « لابد من تأجيل البت في الموضوع .. » (٢٩) .

(ملحوظة - ٣ - دون الدخول في التفاصيل ذكر سيد قطب أنه بعد أن تأكد أن ثمن السلاح من أموال إخوانية واشترى وشحن بطريق مأمون ، قال لهم إنه يعرف من يستطيعون مساعدتنا في نقل مثل هذه الاشياء ، وكان يقصد اثنين من إخوان ليبيا تعرف عليهما من قبل ، يملكان الوسائل الممكنة لنقل السلاح) (٣٠) .

تحدث سيد قطب أيضاً عن مصادر التمويل ، وعن علاقته بالإخوان المسلمين في عدد من البلاد العربية .. ثم .. تحدث عن ماسمى « خطة رد الاعتداء على الحركة الإسلامية » . فقال : (٣١) . « كما تقدم كنا قد اتفقنا على مبدأ عدم استخدام القوة لقلب نظام الحكم ، وفرض النظام الاسلامى من أعلى واتفقنا في الوقت ذاته على مبدأ رد الاعتداء على الحركة الإسلامية التى هى منهجها إذا وقع الاعتداء عليها بالقوة .

« وكان أمامنا المبدأ الذى يقرره الله سبحانه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وكان الاعتداء قد وقع علينا بالفعل في سنة ١٩٥٤ وفي سنة ١٩٥٧ بالاعتقال والتعذيب وإهدار كل كرامة آدمية في أثناء التعذيب ثم القتل وتخريب البيوت وتشريد الأطفال والنساء . ولكننا كنا قد قررنا أن هذا الماضى قد انتهى أمره فلا نفكر في رد الاعتداء علينا الآن ، إنما المسألة هى مسألة الاعتداء علينا الآن ، وهذا هو الذى تقرر الرد عليه إذا وقع ..

« لم يكن في أيدينا من وسائل رد الاعتداء علينا التى يبيحها لنا ديننا إلا القتل والقتال : أولاً : لرد الاعتداء حتى لا يصبح الاعتداء على الحركة الإسلامية وأهلها سهلاً يزاوله المعتدون في كل وقت .

(٢٨) ص - ٥٠ - فقرة أخيرة .

(٢٩) ص - ٥١ - فقرة أولى .

(٣٠) ص - ٥٢ - فقرة ثانية .

(٣١) راجع ص ٥٤ - ٦٥ - المرجع نفسه .

« ثانيا : لمحاولة إنقاذ وإفلات أكبر عدد ممكن من الشباب المسلم النظيف .
« لهذه الأسباب مجتمعة فكرنا في خطة ووسيلة ترد الاعتداء .
و « الذى قلته لهم : إننا إذا قمنا برد الاعتداء عند وقوعه فيجب أن يكون ذلك ضربة رادعة
توقف الاعتداء وتكفل سلامة أكبر عدد من الشباب المسلم » .

« ووفقا لهذا جاءوا في اللقاء التالى ومع أحمد عبد المجيد بقائمة اقتراحات تتناول الأعمال التى
تكفى لشل الجهاز الحكومى عن متابعة الإخوان في حالة إذا ما وقع الاعتداء عليهم ..
« وهذه الأعمال هى الرد فور وقوع اعتقالات لأعضاء التنظيم بإزالة رموس في مقدمتها رئيس
الجمهورية ورئيس الوزراء ومدير مكتب المشير ومدير المخابرات ومدير البوليس الحربي ، ثم نسف
لبعض المنشآت التى تشل حركة المواصلات في القاهرة لضمان عدم تتبع بقية الإخوان فيها ، وفي
خارجها كمحطة الكهرباء والكبارى ، وقد استبعدت فيما بعد الكبارى » .

(ملحوظة - ٤ - قال على عشاوى إن الهدف من القيام بهذه العمليات انهيار النظام القائم في
البلاد ، وأضاف أنهم لم يبحثوا من سيتولى السلطة في البلد - ص ٢٦٢ من القضية . ويذكر
عبد الفتاح اسماعيل : إن على عشاوى قال له مرة إن سيد قطب قال على شمس بدران إنه من
النوع العنيد و « شخصية » ويعرف ذلك من أيام ما كان طالبا عنده في المدرسة - ص ٤٤٦ من
القضية) .

□□

تلاحقت الأحداث بسرعة مذهلة بعد ذلك .

وطبقا لما سجله سيد قطب بخط يده ، وما اعترف به غيره :

١ - إن إمكانيات التنظيم لم تكن تكفى للأعمال التى اتفقوا عليها ، ومن ثم وافق سيد قطب على
الإسراع في التدريب بعد أن كان يرى من قبل تأجيله ، ولا يتحمس له باعتباره الخطوة الأخيرة
وليس الخطوة الأولى . « سيد قطب - ص ٥٦ » .

٢ - سرت شائعات في البلاد تقول إن الإخوان ينظمون أنفسهم وأنهم انتخبوا مرشدا جديداً
لهم ، قيل إنه مصطفى الملا ، وقيل إنه منير وقيل إنه سيد قطب .. وقد نسب سيد قطب هذه
الشائعات للشيوعيين حتى يستفزوا الحكومة لتضرب الإخوان من جديد . « سيد قطب ص ٥٦ -
وعلى عشاوى ص ٢٢٢ » .

٣ - حذر منير الدالة سيد قطب من « شبان متهورين يقومون بتنظيم ، ويعتقد أنهم دسياسة على
الإخوان بمعرفة قلم مخابرات أمريكى عن طريق الحاجة زينب الغزالى وأن المخابرات كاشفاهم ،
(سيد قطب - ص ٥٨) .. وعرف سيد قطب أنهم في مكتب المشير بيفكروا إذا كانوا « يضربوا
الإخوان ولا يستنوا شوية » ، فرد عليه على عشاوى : « ايه دخل مكتب المشير في هذا ؟ أنا أفهم
أن المباحث أو المخابرات هى اللى تفكر في هذا العمل » .. فقال : « والله أنا وصلنى كده » .. و
« على أى حال إما الخبر مكذوب أو الأجهزة بايطة فتسرب منها هذا الخبر » .. وكان من رأيه أن من
المحتمل جداً أن تضرب الحكومة الإخوان « ولأزم نعمل عمل كبير ولا ييقاش زوبعة في فنجال ، إذا

حسينا ان التنظيم انكشف او اذا الحكومة حاولت تقبض على الإخوان مرة أخرى ، .. و لا نكون سلبيين خالص وما نعملش حاجة ، .. « على عشاوى ص ٢٢٣ » .

٤ - قبل ان يكمل التنظيم تدريبيه وتسليحه ، قامت الحكومة بضربه ضربة وقائية ، واعتقلت افراده واحداً بعد الآخر .. تحركت أجهزة الأمن لإجهاض التخطيط قبل تنفيذه .. قبض على محمد قطب .. ثم على سيد قطب ، وعبد الفتاح اسماعيل ، ثم قبض على على عشاوى الذى أدلى باعترافات كاملة ، جعلت التنظيم كله يسقط كثرمة ناضجة فى « حجر » النظام .. وحاصرت قوات من الجيش قرية « كرداسة » بحثا عن عدد من أعضاء التنظيم وبحثا عن السلاح . وكان أن وقعت تجاوزات لا مبرر لها تتخطى مستوى الخشونة .. وفى ٣٠ أغسطس ١٩٦٥ ، كشف عبد الناصر - فى خطاب القاه فى موسكو التى كان يزورها - عما كان سيحدث .. وفيما بعد اعتبر الإخوان كشف التنظيم فى موسكو دليلاً على أن ما حدث كان مدبراً بمعرفة الشيوعيين .

٥ - ثم .. كانت عمليات التفتيش القاسية بحثا عن باقى المتهمين ، كما حدث فى بولاق فى الاسبوع الاول من شهر سبتمبر .

٦ - ثم .. كانت حملات المؤسسة الدينية ورجال الأزهر على الإخوان .. فقد قال شيخ الأزهر حسن مأمون فى حديث للإذاعة : إن الإخوان بما فعلوه أعادوا إلى الأذهان إرهاب القرون الوسطى .

٧ - ثم .. كانت جولة جديدة من المحاكمات قادها « الدجوى » .

□□

رغم كل الصور البراقة التى كانت على سطح الحياة فى مصر ، كان عام ١٩٦٥ .. عام هذه الأحداث ، عاما مناسبا لإحراج نظام عبد الناصر .. الجيش فى اليمن .. أجهزة الأمن تتصارع فيما بينها .. المشير عبد الحكيم عامر أصبح مركزا للقوى من الصعب ازاحته .. كم هائل من التوتر فرضه القرييون من السلطة فى صراعهم الخفى عليها ، وصلت أنفاسه إلى الشارع .. فى ذلك الوقت كان الإخوان يحلمون بقلب نظام الحكم واغتيال أكبر رموزه ، جمال عبد الناصر . وكالعادة انقسم الطرفان واختلفا فى تفسير ما حدث .. الناصريون يؤكدون أنها مؤامرة لقلب نظام الحكم ، ونسف محطات الكهرباء ، وتوقف المستشفيات ، وتعطيل المصانع ، وانتشار الأوبئة .. باختصار « اغتيال لشعب ولحرية ولحياته ولتقدمه بل أيضا لمعاشه اليومى » (٢٢) والإخوان يصرون على أن المؤامرة « مفبركة » ، من جهاز المخابرات الحربية (بقيادة شمس بدران) لمزيد من القمع والإرهاب ، ولتقديم « كبش فداء » ، جديد لعبد الناصر يعيد التقاف الجماهير حوله .. أكثر من ذلك يؤكدون أن إخراج سيد قطب من السجن كان تخطيطا من المخابرات ليسهل اغتياله ، وإن هذه الخطة تشمل عبد الفتاح إسماعيل أيضا (٢٣) .

ولأن من عاشر المستحيلات إقناع كل طرف بحجة الطرف الآخر ، فإننا وبأعلى مستويات الموضوعية الممكنة توافرها نرى أن هناك حقائق لا يمكن اغلاق ملف القضية دون رصدها .

(٢٢) انظر رسالة عبد الحكيم عامر إلى كمال الدين حسين - عبد الله إمام ص ١٢٧ .

(٢٣) زينب الغزالي - ص ٣٩

١ - إن من المؤكد أنه كان هناك تنظيم إخوانى يؤمن بالعنف ويسعى إلى قلب النظام بالعنف والتخريب . وإن هذا التنظيم كان يتمتع بطموح يفوق إمكاناته .. ويرسم لنفسه خطة لا يمكن أن يقدر عليها ولو كان يملك أضعاف ما كان يملك من رجال وإمكانات .

٢ - إن سيد قطب كان الزعيم الروحى للتنظيم فى السجن والزعيم الفعلى له بعد الخروج من السجن . وسواء كان قد أشار إلى المواجهة المسلحة لرد الاعتداء أولعدم السلبية عند القبض على أعضاء التنظيم فإن هذا لا ينفى أن كل عناصر التنظيم التى يجرمها القانون كانت متوافرة : السلاح . التدريب . التمويل الخارجى . المفرقات . الرجال والخطة .

٣ - إن التعذيب الذى وقع على بعض المتهمين فى السجن الحربى لم يكن له ما يبرره .. وقد أقرط الإخوان فى نشر الكتب التى تصف ما حدث ، وهذا حقهم ، كما أن القضاء حكم لبعضهم بالتعويض ، وعاقب من ارتكبوا هذه الجريمة ، فيما بعد .

٤ - إن من المؤكد أن جمال عبد الناصر قد استفزده أن يقود سيد قطب التنظيم قبل أقل من سنة على الإفراج عنه ، وضاعف من استفزازه أنه أصبح المرشد الحقيقى للإخوان ، أو أجيالهم الجديدة ، وإن لم يحصل على البيعة ، ولا نستطيع بالقطع أن نحكم على مدى موضوعية المحاكمة ، وإن كان قاضيا قد تعرض إلى كثير من الطعن فى أحكامه ، كما أننا لا نستطيع أن نقبل بما قاله الإخوان من أن عبد الناصر أفرج عن سيد قطب ليتأمر على اغتياله ، وأنه أفرج عنهم ليعذبهم من جديد ، ويعتقلهم من جديد ، وخاصة أنه بالقطع أفرج عن سيد قطب بعد أن تدهورت حالته الصحية ، وخاصة أن الحكومة كانت قد انتهت من وضع قانون خاص للموظفين من الإخوان الذين فصلوا ، للعودة إلى وظائفهم مع احتساب مدة السجن فى الترقى والأقدمية والمعاش .

٥ - إن العنف الذى عومل به الإخوان بعد سنة ١٩٥٤ هو أحد الأسباب الهامة وراء محاولة التنظيم الجديد ، للسعى وراء الاغتيالات ، وقلب نظام الحكم .. إن العنف الرسمى يؤدى إلى عنف شعبى .. مع أن العنف الشعبى يجب أن يقابل بالقانون والمحاكمات العادلة .. لكنها حقيقة لا تفهمها النظم دائما .

□□

مرة أخرى حشرت أجيال جديدة من الإخوان فى السجون .

مرة أخرى تعرض الإخوان للظروف الصعبة وراء الأسوار .

مرة أخرى كان البحث عن الخلاص من المحنة الجديدة ، حتى ولو أدى الأمر للوقوع فى محنة غيرها .

ومرة أخرى ولد جيل جديد من الشباب السلفى .. ولد فى السجون .. وصهرته المعاناة .. جيل قوت الظروف استعداده للتضحية .. جيل مختلف عن أجيال الإخوان المسلمين التى سبقته .. جيل اعتبر حسن البناء أياما وانقضت .. زمانا ومضى .. جيل اعتبر أستاذه ومعلمه وقائده ومثله الأعلى سيد قطب .. إنه الأستاذ .. الذى أصبح أبرز معالم الطريق الذى عليهم السير فيه . لقد دخلوا كما يقول هيك (٢٤) إلى إطار الفكر المطلق ، حيث لا مساومة ولا تعايش بين

(٢٤) هيك - خريف الغضب ..

مجتمعين ، وعقيدتين ، لم يعد امامهم إلا الجاهلية والإسلام ، وإلا حاكمية البشر تعترض الطريق إلى حاكمية الله .

إن هذا الفكر المطلق راح - بعد ذلك - يتجاوز المراحل التي وصل إليها الإخوان .. وكانت خطتهم العامة التي سار عليها أولئك الشبان تنقسم إلى مرحلتين .. مرحلة « الاستضعاف » ثم مرحلة « الجهاد » .. ومرحلة الاستضعاف هي مرحلة ينسحبون فيها من مجتمع الجاهلية الذي يكفرونه .. وهي مرحلة - في تصورهم - مشابهة لمرحلة الرسول (ﷺ) في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وفيها كانت الدعوة سرية ، والتعامل مع المجتمع حراماً ، وفيها كان المسلمون يعيشون وكأنهم في « جيوب » ، أو « جماعات » منفصلة .. وفيما بعد عبر عن هذه المرحلة بتطرف تنظيم جماعة المسلمين ، الذي اشتهر باسم جماعة التكفير والهجرة .. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الجهاد .. أي مواجهة المجتمع الجاهلي ، الكافر بعد التمكن من القوة القادرة على إزاحته .. وفيما بعد عبرت تنظيمات مختلفة عن هذه المرحلة لعل أبرزها تنظيم « الجهاد » .

ودون إرهاب للذهن فهم التلاميذ ما قاله الأستاذ حسب تصور كل منهم الخاص .. وحسب ثقافته .. وراح كل منهم يضع كتاباً يفرضه كمنهج على أتباعه .

ولم يكتف أولئك الشبان بتكفير النظام القائم ، وتكفير الحاكم والخروج عليه ، وإنما آمنوا بجواز قتاله ، وجواز الاستيلاء على أموال الدولة ومحاربة سلطاتها واعتبار الخدمة في قواتها مكروهاً يجب تفاديه ، بل هي أيضاً نوع من الكفر لأن الطاعة ليست واجبة إلا لإمام « أو لأمير الجماعة » ، ولا يمكن أن تكون هناك طاعة لإمارة الكفر والسفاهة والجاهلية كما يقولون ، ومن ثم لا بد من العنف والثورة والجهاد وذلك إلى أن يصلوا إلى المجتمع الإسلامي كما يتخيلونه .

ودون إرهاب للذهن أيضاً ، راح الجيل السلفي الجديد يطبق تلك النصوص على الحياة حولهم ، وراحت فتواهم تمتد إلى كل الأشياء وكل البشر .. فالمسلمون عندهم الآن (كما يقول د . كمال أبو المجد) ارتدوا عن الإسلام لأنهم ينطقون بشهادة لا يعرفون معناها ولا يعملون بمضمونها ، ومهما صلوا وصاموا وحجوا وزعموا أنهم مسلمون فلن يغير ذلك من كفرهم شيئاً .. المجتمعات المعاصرة عندهم « مجتمعات جاهلية كافرة .. والجاهلية ليست حالة دينية إنما حالة اجتماعية » .. « ومن ثم من لم يكفر الكافر فهو كافر » .. « ومن يخرج عن الجماعة يستباح دمه وماله » .. لا انتخابات ولا برلمان ولا ديمقراطية لأنها ليست في القرآن .. المساجد القائمة « معابد للجاهلية » لأن الذين يصلون فيها ارتدوا عن الإسلام و « الصلاة معهم شهادة لهم بالإيمان مع أنهم كفرة » .. وتحت شعار « تحطيم المجتمع الجاهلي » تتحول هذه الأفكار إلى عنف .. مع أن الرسول (ﷺ) أوصى جيوشه المتجهة للحرب في الشام قائلاً : « لا تقتلوا امرأة ولا صبيّاً ولا كبيراً هرمّاً ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تخربوا عامراً ولا تعقروا نخلاً أو تحرقوه » ... (٣٥)

□□

(٣٥) د . كمال أبو المجد - مجلة « العربي » - الكويت ١٩٨١ .

من جديد ..

وداخل السجون أيضاً ..

وقع الخلاف بين أولئك الشبان وزعماء الإخوان .. أو بين تلاميذ حسن البنا وتلاميذ سيد قطب .. أو بين المعتدلين والمتطرفين ..

والخلاف بين الفريقين ، كان ولا يزال يبدأ من مبدأ « التكفير » وينتهي عند استخدام أسلوب « العنف » .. ويعترف عمر التلمساني : أن « فكرة التكفير رسخت في ذهن بعض الشباب وأمنوا بها في اقتناع غريب » .. ويؤكد التلمساني : إن هذه الفكرة اتسع نطاقها في معتقل مزرعة ليمان طرة « حتى بلغت أخبارها فضيلة الأستاذ الهضيبي رضوان الله عليه ، إذ كان معتقلاً هناك فاستدعى رؤسائهم وناقشهم في الفكرة ، وكانت الجلسة تنتهي بما يشعر باقتناعهم بكلامه ، وما إن يخرجوا من عنده حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه ، حتى يؤس من إقلاعهم عن تلك الفكرة فكتب كتابه « دعاة لا قضاة » مستعيناً بأبنة مأمون الهضيبي المستشار في محكمة الاستئناف العالي والأستاذ مصطفى مشهور وكان الحق ما رآه لأن تكفير المسلم ليس بالأمر الهين في العقيدة الإسلامية مهما بلغ المسلم في انحرافه وقسوته » . (٣٦) .

نستطيع الآن أن نتعرض لأهم ما جاء في كتاب الهضيبي « دعاة لا قضاة » حتى تكمل الصورة التي نحاول بإخلاص أن نرسمها : (٣٧)

١ - إن حكم الناطق بشهادتي : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن نعتبره مسلماً تجرى عليه أحكام المسلمين وليس لنا أن نبحث في مدى صدق شهادته . إذ أن ذلك متعلق بما استشعره واستيقنه بقلبه وهو أمر لا سبيل للكشف عنه والتثبت منه ، ولكن ذلك من شأن الذي يعلم السرواخفى . فمن استيقن قلبه ما نطق به لسانه ، كان عند الله مسلماً مؤمناً ونفعه ما تلفظه بلسانه . (٣٨) .

٢ - إن حكم الله تعالى أن يعتبر الشخص مسلماً في ذات اللحظة التي ينطق فيها بالشهادتين ، ولا يشترط أن تكون أعمال الشخص مصدقة لشهادته حتى يحكم بإسلامه ، وأنه حال نطقه بالشهادتين يلزمنا اعتباره مسلماً ويحرم علينا دمه وماله . (٣٩) .. ومن تعدى ذلك إلى القول بفساد عقيدة الناس بما أخرجهم عن الإسلام قلنا له إنك أنت الذي خرجت على حكم الله بحكمك هذا الذي حكمت به على عموم الناس . (٤٠) .

٣ - ليست المعالنة بالمعاصي وشيوعها ، وليست الظواهر العامة التي ركن إليها دعاة التكفير مما

(٣٦) عمر التلمساني - ذكريات لا مذكرات .

(٣٧) حسن الهضيبي - دعاة .. لا قضاة - طبعة الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - ١٩٧٧ ويلاحظ أن الكتاب عبارة عن بحوث فقهية يرد بها على أبو الأعلى المودودي صراحة .. وعلى غيره دون تصريح أو حتى تلميح .

(٣٨) الهضيبي - ص ١٨ .

(٣٩) الهضيبي - ص ٤٢ .

(٤٠) الهضيبي - ص ٤٦ .

يجيز لهم شريعة الله أن تصدر حكماً على عموم الناس بخروجهم من الإسلام إلى الكفر أو بعدم دخولهم الإسلام أصلاً رغم النطق بالشهادتين .. (٤١) .

٤ - إن لفظة الحاكمية لم ترد بأية آية من الذكر الحكيم ولا في حديث من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام (٤٢) والغالبية العظمى تنطق بالمصطلح وهي لا تكاد تعرف من حقيقة مراد واضعيه إلا عبارات مبهمه سمعتها عفواً ، هنا وهناك ، أو القاها إليهم من لا يحسن الفهم أو يجيد النقل والتعبير (٤٣) .. وهكذا يجعل بعض الناس أساساً لمعتقدهم مصطلحاً لم يرد له نص من كتاب الله أو سنة الرسول ، أساساً من كلام بشر غير معصوم ، وارد عليه الخطأ والوهم ، علمهم بما قالوا في الأغلب الأعم علم مبتسر مغلوط (٤٤) .

٥ - إن الحكم لله تعالى وحده وأنه سبحانه وتعالى وحده صاحب الأمر والنهي دون سواه ، هذه عقيدتنا (٤٥) ولكن الله عز وجل قد ترك لنا كثيراً من أمور دنيانا ننظمها حسبما تهدينا إليه عقولنا في إطار مقاصد عامة وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى وأمرنا بتحقيقها . وبشرط ألا نحل حراماً أو نحرم حلالاً . ذلك أن الأفعال في الشريعة إما فرض أو حرام أو مباح (٤٦) . ولا يجوز لأحد أن يزعم أن تشريعات تنظيم المرور من تشريع الله عز وجل ، وفي هذا كفاية لإبطال قول من زعم أن التشريع صفة من صفات الله عز وجل وأن من وضع تشريعاً فقد انتزع لنفسه إحدى صفات الله وجعل نفسه نداً لله تعالى خارجاً على سلطانه (٤٧) .

□□

فيما بعد ..

رد الشيخ د . يوسف القرضاوى على الأفكار الأساسية لسيد قطب بعد أن عرضها ..
وكان أبرز ما قاله في التكفير والجاهلية : (٤٨) .

د . إن المجتمع الذى نعيش فيه الآن ليس شبيهاً بمجتمع مكة الذى واجهه النبى ﷺ حين نشأة الدعوة الإسلامية الأولى .

« ذلك كان مجتمعاً جاهلياً صرفاً ، أعنى مجتمعاً وثنياً كافراً ، لا يؤمن بـ « لا إله إلا الله » ولا بأن « محمداً رسول الله » ويقول عن القرآن : سحر وافتراء وأساطير الأولين .
« أما مجتمعنا القائم في بلاد المسلمين ، فهو مجتمع خليط من الإسلام والجاهلية ، فيه عناصر إسلامية أصيلة ، وعناصر جاهلية دخيلة .

(٤١) الهضبي - ص ٤٦ .

(٤٢) الهضبي - ص ٨٣ .

(٤٣) الهضبي - ص ٨٤ .

(٤٤) الهضبي - ص ٨٤ .

(٤٥) الهضبي - ص ٨٧ .

(٤٦) الهضبي - ص ٩٦ .

(٤٧) الهضبي - ص ٩٧ .

(٤٨) د . يوسف القرضاوى - ملاحظات وتعقيبات على آراء الشهيد سيد قطب - جريدة « الشعب » - القاهرة -

١١ و ١٨ و ٢٥ نوفمبر ١٩٨٦ .

« فيه أناس مرتدون صراحة

« وفيه منافقون يتظاهرون أمام الشعب بالإسلام ، وباطنهم خراب من الإيمان ، فلهم حكم المنافقين .

« فيه - عدا هؤلاء وأولئك - جماهير غفيرة - تكون أكثرية الأمة الساحقة ، ملتزمة بالإسلام ، وجل أفرادها متدينون تدينا فرديا ، يؤدون الشعائر المفروضة ، وقد يقصرون في بعضها ، وقد يرتكب بعضهم المعاصي ، ولكنهم في الجملة - يخافون الله تعالى ، ويحبون التوبة ، ويتأثرون بالموعظة ، ويحترمون القرآن ويحبون الرسول ، إلى غير ذلك ، مما يدل على صحة أصول العقيدة لديهم .

« ولهذا يكون من الإسراف والمجازفة الحكم على هؤلاء جميعا بأنهم جاهليون كأهل مكة الذين واجههم الرسول ﷺ في فجر دعوة الإسلام ، وأن واجبنا الانعزال عنهم إلا العقيدة ، والعقيدة وحدها ، حتى يشهدوا أن « لا إله إلا الله » بمدلولها الحقيقي ، وألا نستجيب لاستفتاءاتهم في شأن من شئون المجتمع الإسلامي .

« فالواقع كما قلنا أن هؤلاء غير مجتمع مكة المشرك ، فكثير منهم يصلون ويصومون ، ويزكون ويحجون ، وكثير ممن قصر في هذه الفرائض لا ينكرها ، ولا يستخف بها ، وهي أركان الإسلام ومبانيه .

« فهل كان مجتمع مكة يلتزم شيئا من هذه الأركان ؟

« ثم هم يتزوجون ويطلقون ، ويرثون ويورثون ، ويوصون ، على مقتضى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

« ولا يزال في بعض البلاد من يقيمون الحدود الشرعية من الجلد والقطع والقتل ونحوها ، ولا تزال القاعدة العريضة في البلاد الأخرى تطالب الحكومات بإقامتها وتطبيق شرع الله تعالى .

« فهل ياترى إذا استفتى هؤلاء في شأن من شئون الإسلام التي يمارسونها بالفعل ألا نفتيهم ونبين لهم ؟

« إنهم يسألون في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بشئون العبادات ، وما يسمى بـ « الأحوال الشخصية » ومن واجبنا أن نبين لهم ولا نكتم عنهم علما نافعا فيلجئنا الله بلجام من نار يوم القيامة .

« وهم يسألون أيضا عما يعرض لهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية ، فهم مسوقون إلى أن يتعاملوا مع البنوك ، وأن يؤمنوا على المتاجر والمعامل والممتلكات ، ويسألون عن حكم الشرع في ذلك كله .

« هل نصم أذاننا عن هؤلاء المسلمين .. حتى لو سألونا عن الصلاة والزكاة والصيام ؟

« أم نجيبهم عن أحكام العبادات وما يتعلق بها ، ولا نجيبهم عن أحكام المعاملات ؟»

□□

قبل أن يمر العام على كشف تنظيم ١٩٦٥ ، حوكم سيد قطب ومن معه ، وكان أن حكم عليه -
هو ومحمد يوسف حواش وعبد الفتاح إسماعيل - بالإعدام ... وبعد أن فشلت محاولات عديدة
من بعض الدول الإسلامية لإنقاذهم من حبل المشنقة ، نفذ الحكم .
وقبل إعدامه نشرت الصحف صورة له وهو يبتسم ابتسامة باهتة .. وفيما بعد كانت هذه
الصورة ، الصورة المفضلة للصحف ، تنشرها إذا ما جاءت سيرته !
ومنذ لحظة الإعدام ، وحتى الآن يحمل سيد قطب لقب شهيد ..
ولأنه أعدم فقد أصبح بطلا .. ونموذجا .. وأستاذا .. ومعلما .. وبشرا غير البشر .
ولأن حياته كانت الثمن . فإن أفكاره وتعاليمه راحت تجد من يؤمن بها .. دون نقاش .. وبعد
عزلها عن الظروف وبعد تجريدها من ظروفه الإنسانية .
ثم ...
راحت الدوائر تدور .

بعد أن قوات

إلى هنا انتهى الكتاب .
إلى هنا انتهى الفصل الأول من هذه القصة المثيرة .
أما الفصل الثاني فلم يكتب بعد .
والفصل الثاني يبدأ بعد رحيل سيد قطب ، ويروى تأثير
أفكاره على الذين حفظوها وآمنوا بها وحولوها من مطبوعات
إلى متفجرات .
ولا مفر من الانتظار فترة من الزمن حتى تتاح مادة كتاب
جديد تناسب هذا الفصل ويمكن أن يختتم بها هذا الكتاب .

المراجع والمقالات والوثائق !

□ سيد قطب : (كتب)

- ١ - طفل القرية - دار الشروق - ١٩٧٣ .
- ٢ - كتب وشخصيات - دار الشروق - الطبعة الثالثة - ١٩٨٣ .
- ٣ - التصوير الفني في القرآن - دار الشروق - الطبعة السادسة - ١٩٨٠ .
- ٤ - العدالة الاجتماعية في الإسلام - لجنة نشر دار الكتاب العربي - ١٩٤٩ .
- ٥ - معركة الإسلام والراسمالية - دار الشروق - الطبعة الثامنة - ١٩٨٢ .
- ٦ - نحو مجتمع إسلامي - دار الشروق - الطبعة الثالثة - ١٩٧٨ .
- ٧ - المستقبل لهذا الدين - الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الإسلامية - الكويت - ١٩٨٦ .
- ٨ - معالم في الطريق - دار الشروق - ١٩٨٠ .

□ سيد قطب : (مقالات)

- ٩ - إلى الأستاذ توفيق الحكيم - مجلة الرسالة - العدد ٨٢٧ - الاثنين ٩ مايو ١٩٤٩ .
- ١٠ - أمريكا التي رأيت - في ميزان القيم الإنسانية - المقال الأول - مجلة الرسالة العدد ٩٥٧ - ٥ نوفمبر ١٩٥١ .
- ١١ - أمريكا التي رأيت - المقال الثاني - الرسالة - العدد ٩٥٩ - ١٩ نوفمبر ١٩٥١ .
- ١٢ - أمريكا التي رأيت - المقال الثالث - الرسالة - العدد ٩٦١ - ٣ ديسمبر ١٩٥١ .
- ١٣ - أيها الفدائيون امضوا في طريقكم - الدعوة - ٢٠ نوفمبر ١٩٥١ .

□ سيد قطب : (وثائق)

- ١٤ - لماذا أعدموني ؟ - كتاب « الشرق الأوسط » - الشركة السعودية للأبحاث والتسويق .
- ١٥ - إقرار سيد قطب الذي كتبه في السجن الحربي كاملاً يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٦٥ .

- ١٦ - نص التحقيقات معه - ملف القضية رقم ٤٨٤ حصر / ٦٥ والقضية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا .
- ١٧ - سليمان فياض - مقال : سيد قطب بين النقد الادبي وجاهلية القرن العشرين - مجلة الهلال - سبتمبر ١٩٨٦ .
- ١٨ - د . الطاهر مكي - مقال : سيد قطب وثلاث رسائل لم تنشر بعد - مجلة الهلال - اكتوبر ١٩٨٦ .
- ١٩ - د . سمير أمين - أزمة المجتمع العربي - دار المستقبل - ١٩٨٥ .
- ٢٠ - د . يوسف القرضاوي - دراسة منشورة بجريدة الشعب أعداد ١١ و ١٨ و ٢٥ نوفمبر ١٩٨٦ بعنوان : ملاحظات وتعقيبات على آراء الشهيد سيد قطب .
- ٢١ - ويلبر كرين ايفلاند - حبال من رمال - ترجمة على حداد - دار المروج - بيروت .
- ٢٢ - محمد حسنين هيكل - ملفات السويس - مؤسسة الاهرام - ١٩٨٦ .
- ٢٣ - محمد حسنين هيكل - خريف الغضب - الطبعة السابعة - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت .
- ٢٤ - عباس خضر : رسائل متبادلة بينه وبين سيد قطب - مجلة الرسالة الأعداد ٨٨٧ (٢ يوليو ١٩٥٠) و ٨٩١ (٢١ يوليو ١٩٥٠) .
- ٢٥ - جيلس كيبل - النبي والفرعون - بالانجليزية مترجم عن الفرنسية - دار الساقى - لندن .
- ٢٦ - حسين محمد أحمد حمودة - أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمين - الزهراء للإعلام العربي - ١٩٨٥ .
- ٢٧ - الإخوان المسلمون - وثيقة - الإصلاح المنشود في العهد الجديد - أول أغسطس ١٩٥٢ .
- ٢٨ - عبد الله إمام - عبد الناصر والإخوان المسلمون - الطبعة الثانية - ١٩٨٦ .
- ٢٩ - عادل حمودة - نهاية ثورة يوليو - مكتبة مدبولي - ١٩٨٤ .
- ٣٠ - محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - دار الدعوة - ١٩٨٥ .
- ٣١ - د . عبد العظيم رمضان - الإخوان المسلمون والتنظيم السري - روزاليوسف - ١٩٨٢ .
- ٣٢ - ناصر الدين النشاشيبي وآخرون - هؤلاء هم الإخوان - الناشر مجهول - ١٩٥٥ .
- ٣٣ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - المنتخب في تفسير القرآن - ١٩٨٤ .
- ٣٤ - حمد بن صادق الجمال - أبو الأعلى المودودي - دار المدنى - جدة - بلا تاريخ .
- ٣٥ - أبو الأعلى المودودي - المصطلحات الأربعة - دار القلم - الكويت - ١٩٧٣ .

- ٣٦ - د . محمد عمارة - مقال : من أمراض الصحوة الإسلامية - مجلة الهلال - سبتمبر ١٩٨٦ .
- ٣٧ - د . محمد عمارة : العلمانية ونهضتنا الحديثة - دار الشروق - ١٩٨٦ .
- ٣٨ - رفعت سيد أحمد : الدين والدولة والثورة - كتاب الهلال - فبراير ١٩٨٦ .
- ٣٩ - د . فؤاد زكريا : الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة - كتاب الفكر - ١٩٨٦ .
- ٤٠ - سعد جمعة : المؤامرة ومعركة المصير - دار الكاتب العربي - بيروت ١٩٦٨ .
- ٤١ - جريدة الأهرام - ٥ مايو ١٩٦٨ .
- ٤٢ - جريدة وطني - ٥ مايو ١٩٦٨ .
- ٤٣ - ملحق مجلة منبر الإسلام - رد الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي على كتاب معالم في الطريق .
- ٤٤ - زينب الغزالي - أيام من حياتي - الطبعة الثامنة - دار الشروق .
- ٤٥ - عمر التلمساني - ذكريات لا مذكرات - دار الاعتصام - ١٩٨٥ .
- ٤٦ - حسن الهضيبي : دعاة لا قضاة - الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الإسلامية - الكويت - ١٩٧٧ .
- ٤٨ - الأجزاء الكاملة للقضية رقم ١٢ / ١٩٦٥ أمن دولة عليا والقضية رقم ٤٨٤ / ٦٥ حصر .

من شخصیات
طور

الملك فاروق



الملك فاروق - ريشة رخا بعد حريق القاهرة



19 me. année No 957

برل الاشتراك عن سنة

١٠٠ في مصر والودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

نمن هذا الممدد ٣٠ ملها

الاعتمادات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للادب والعلم والفن

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

1e Calre 5 — 11 — 1951

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المستول

أحمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — طابن — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

المدد ٩٥٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٥ صفر سنة ١٣٧١ — ٥ نوفمبر سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

مجلة الرسالة

منشور بتوقيع المدافعون عن السلام ، موجه للعائلات البريطانية في القناة - ١٩٥١ .

To British Families In The Canal Zone !

HAVE You FORGOTTEN the WAR Years in ENGLAND, or what it was like being BESIEGED ?

Do you want TO GO THROUGH all that again ?

Its NOT going to be FUN from now on.

Neither for YOU — nor your CHILDREN..

Not that we INTEND TO HARM WOMEN and CHILDREN. We leave that to your GALLANT FUSILIERS.

But you have got to think of YOURSELVES !

PACK UP AND GO BACK HOME. If you can't REASON with your MENFOLK — LEAVE THEM TO US.

We will DEAL with them. But GET OUT OF this LAND which has nothing TO OFFER You but HATRED and VIOLENCE.

And when you go — TAKE YOUR HUSBANDS WITH YOU.

Or ELSE we will SHIP THEM out to you IN COFFINS.

" DEFENDERS OF ISLAM."

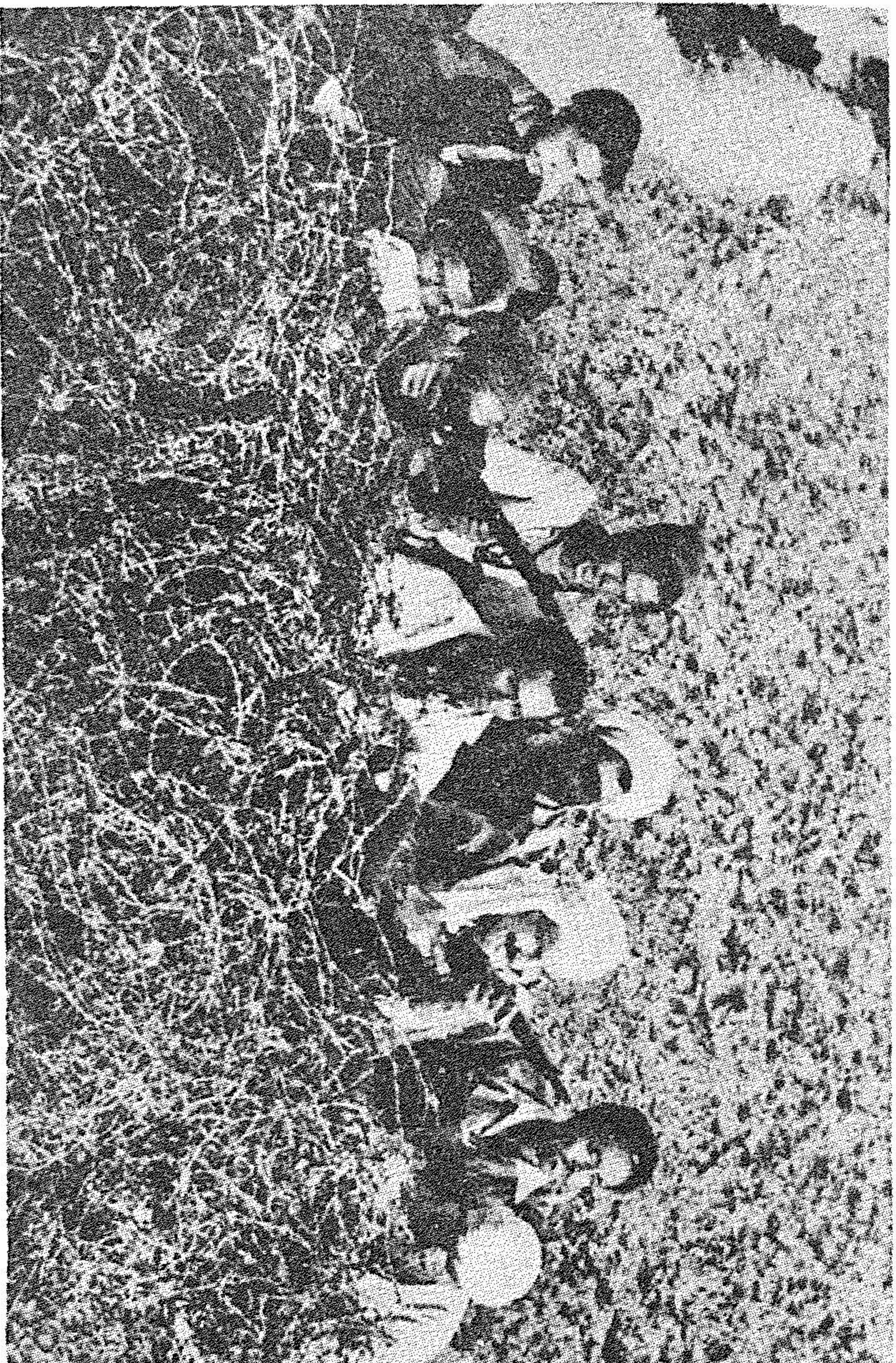


منشورات ضد الاحتلال البريطاني - مصر ١٩٥١

أمريكا التي رأيت :

في ميزان القيم الانسانية للأستاذ سيد قطب

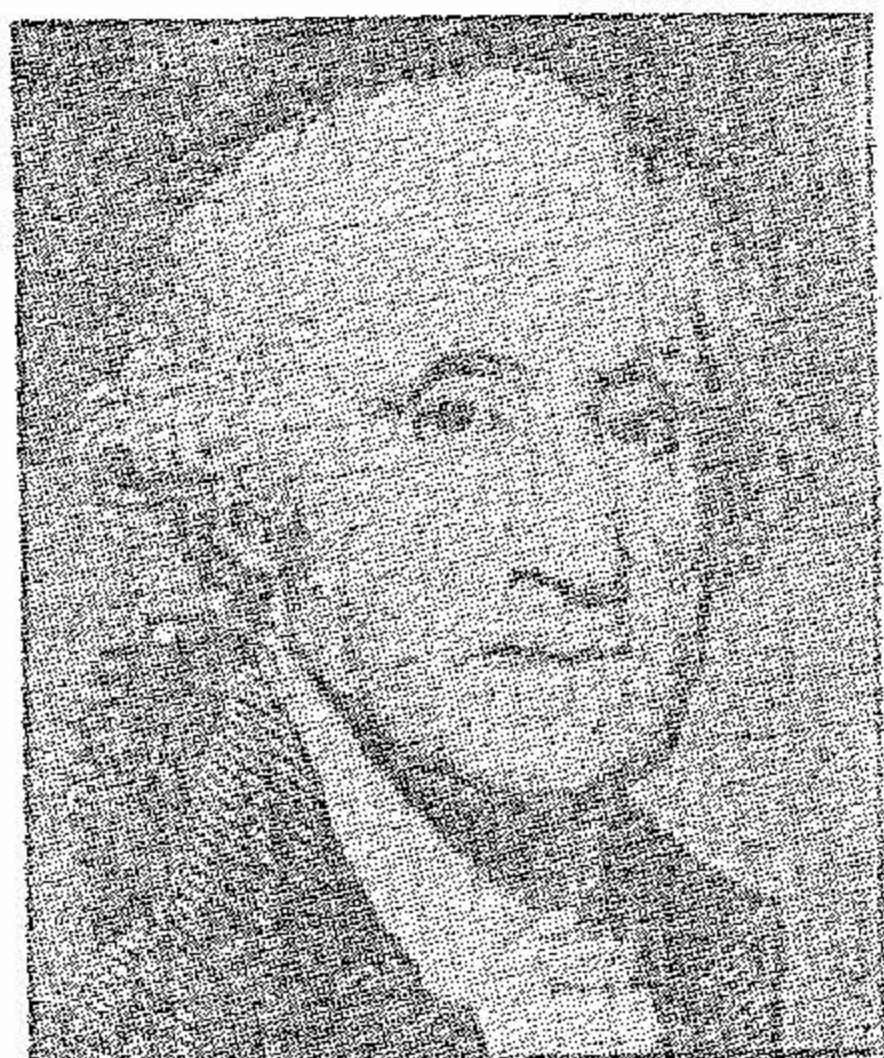
عنوان أولى المقالات في الرسالة



الفدائيون في القناة



ونستون تشرشل



جورج واشنگتن



لينين



مصطفى كمال اتاتورك

سعد زغلول

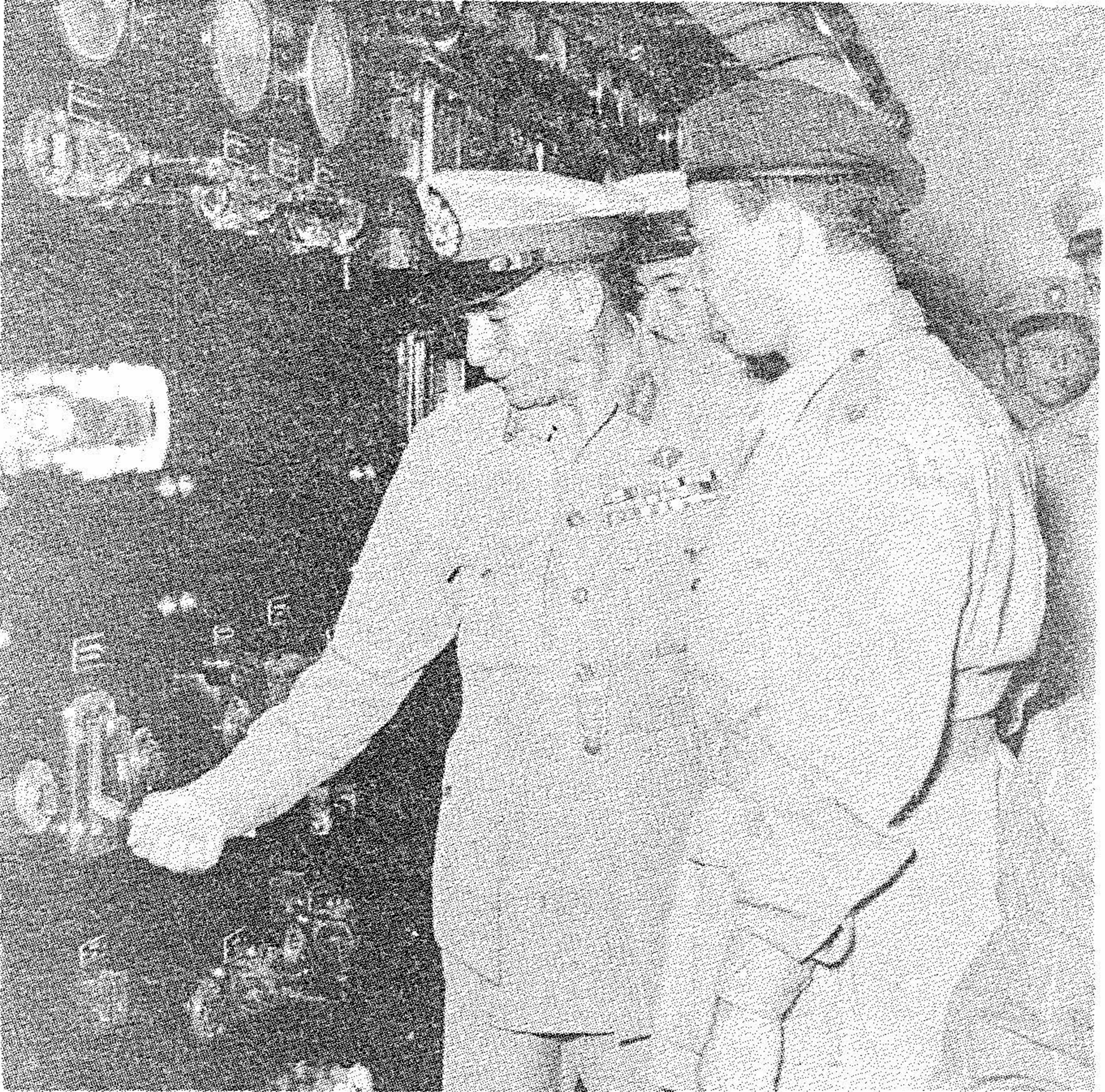


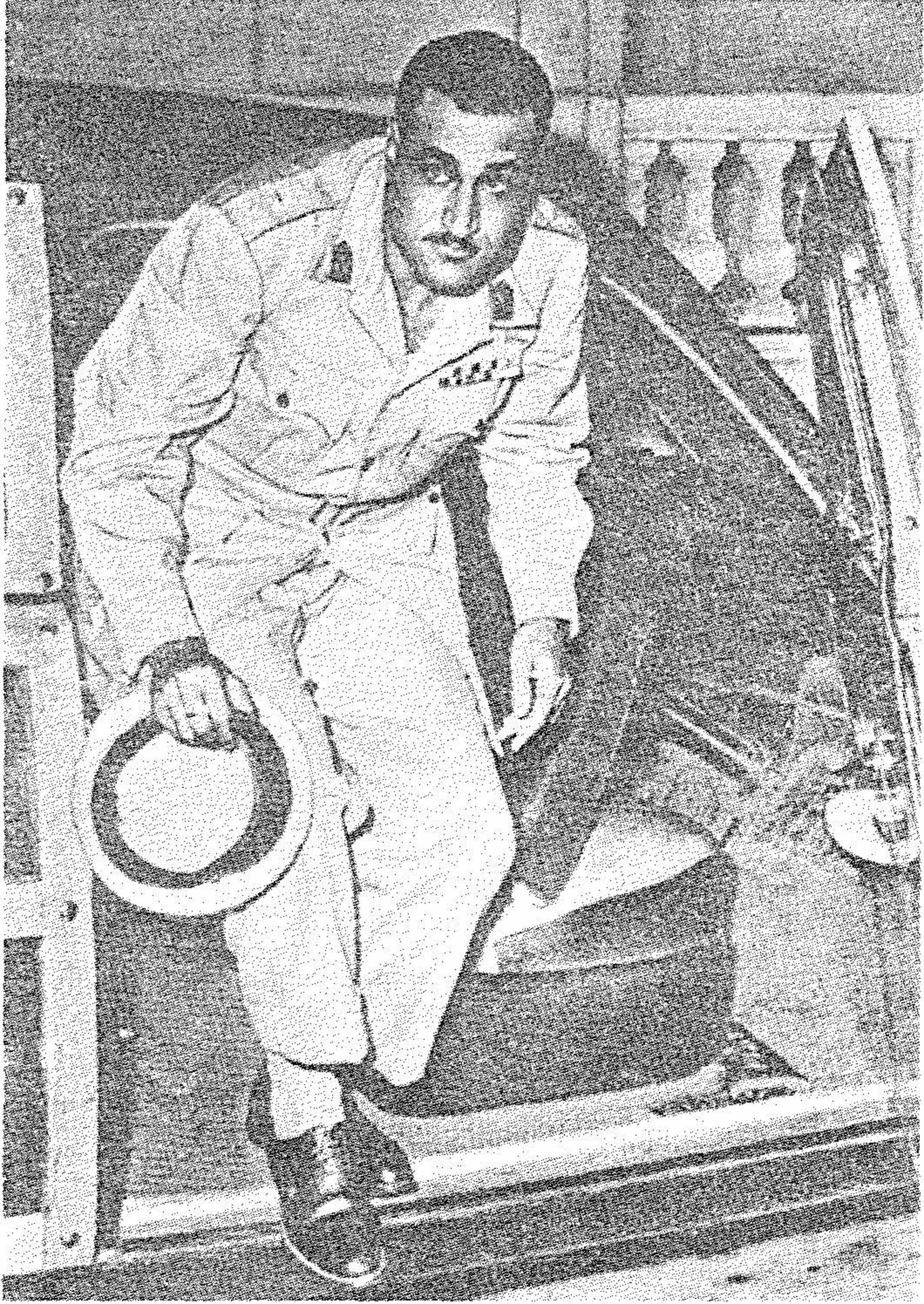
مصطفى كامل

مصطفى النحاس



محمد نجيب و خالد محيى الدين





جمال عبد الناصر



عبد الحكيم عامر



كمال الدين حسين



عبد السلام عارف



حسن الهضيبي



حسن البنا



عمر التلمساني



علم الإخوان وراء الثورة

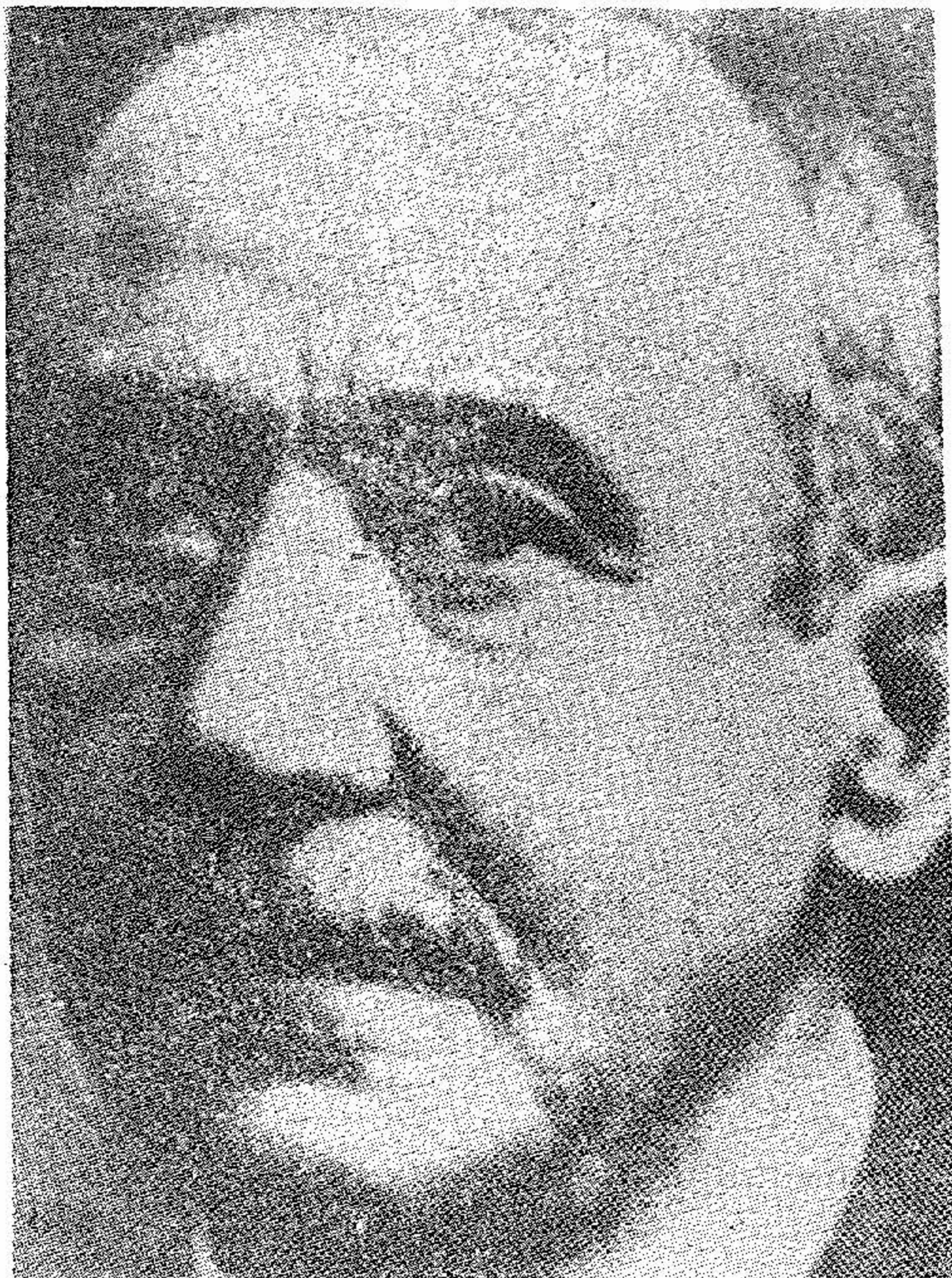


زينب الغزالي

مصطفى صادق الرافعي



الشاعر / أحمد شوقي



دكتور طه حسين



عباس العقاد

دكتور / محمد حسين هيكل



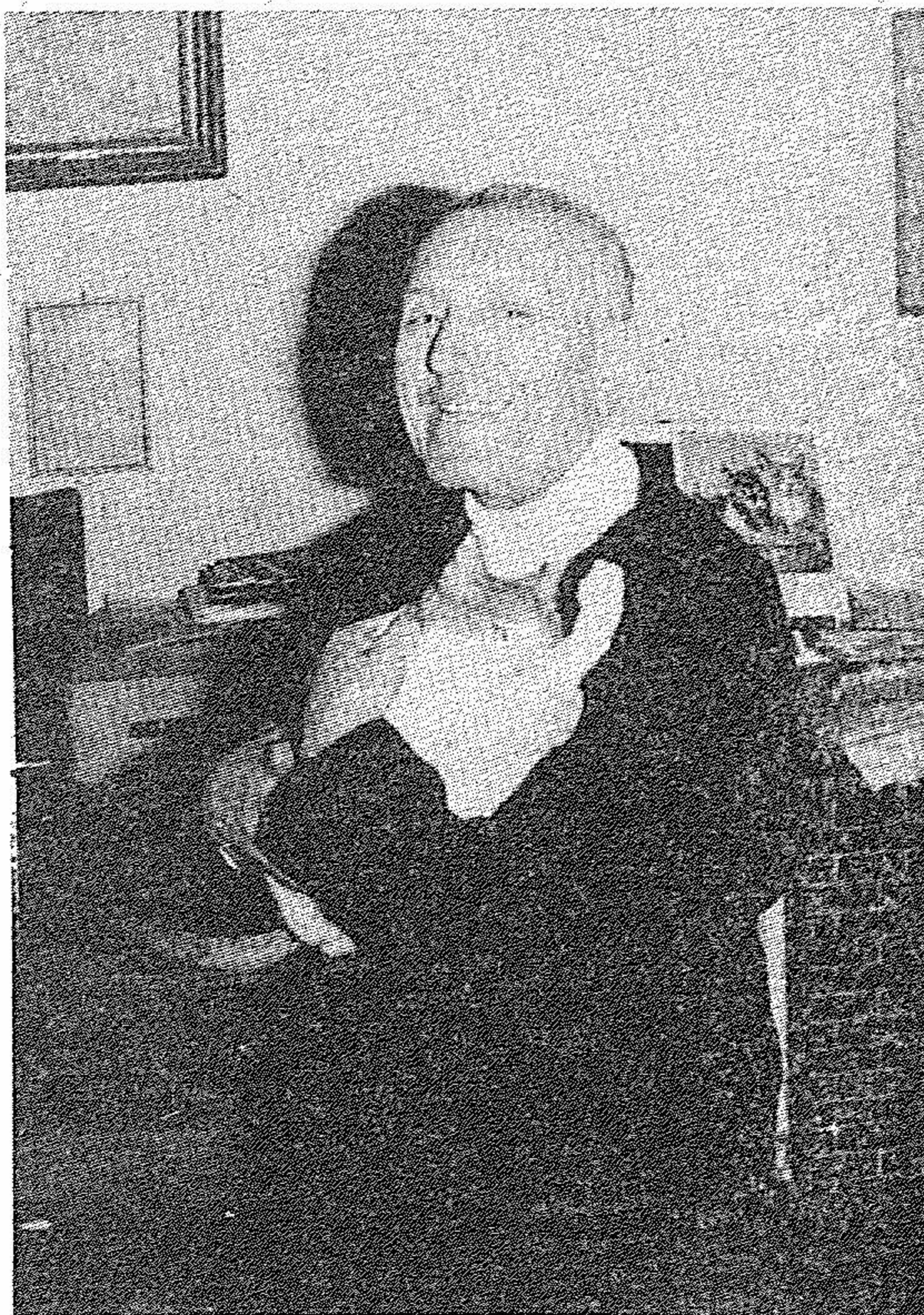
توفيق الحكيم



إحسان عبد القدوس



يحيى حقي



نجيب محفوظ

حسين فوزي



مصطفى أمين



دكتور فؤاد مرسي



سعيد العريان



محمد عبد الوهاب



ام كلثوم

حليل الكتاب

قبل أن تقرا

شخصيات في الكتاب

٧

١٣

[١]

طفل القرية .. المحلل !

١٣

□ قريته □ اهداء إلى طه حسين □ المجنوب العارى □ حلاق الصحة □ عسف الحكومة □ أسرته □ نظرة إلى د ام الدنيا ، □ وحيد أبويه □ شائعة في مدرسة القرية □ الفرار من د سيدنا ، □ حفظ القرآن قبل المراهقة □ البسطاء لا يفهمون الزمخشري □ الحب الاول □ رأى في المرأة الامريكية □ الكتب السرية □ سعد زعلول اسم مقدس □ احلام الام □ الطريق إلى القاهرة □

[٢]

عطس الدنيا .. السلام !

٤٣

□ الذين عرفوه □ القاهرة في الوقت المناسب □ في كلية حسن البنا □ فترة الضياع □ ليلى الإلحاد □ مع العقاد ضد الرافعي □ طه حسين مدرسة بلا تلاميذ □ النقد يسبق الإبداع □ انحياز لشعراء الغزل □ حملس لنجيب محفوظ □ نداء المجهول □ إلى الحكيم من أمريكا □ كيمياء بدون فلسفة وميكانيكا بدون اخلاق □ الرحيل الاجباري إلى الدفاء □ بيت حلوان والضباط الاحرار □

[٢]

لقد وجدت .. القلب !

٦٣

□ الإسلام من أجمل أبوابه □ إلى فتية لمهم في خياله □ المنتج الايديولوجي الوحيد للإخوان □ العدالة الاجتماعية في الإسلام □ الرأسمالية ثم الشيوعية فالإسلام □ أمة إسلامية لا عربية □ لا .. لكتب الفقه القديمة □ صفحة جديدة مع الاجتهاد □ أربعة احتمالات قبل الوصول إلى المجتمع الإسلامي □ دكتور يوسف القرضاوى يرد □ الشريعة لا توجد إلا داخل الفقه □

[٤]

أمريكا .. القى رأيت !

٧٩

□ في حمى المسليح والعمائم □ إلى أمريكا .. لماذا ؟ □ دكتورة في غسل الأطباق □ « مس فيرور » الصديقة الحسنة □ الباشوات والكروش □ القراء المداي والفقر الروحي □ الموت يثير السخرية □ عضوية نوادي الكنائس □ « ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج » □ موسيقى الزنوج □ في السينما □ قهوة بالملح ولحمة بالسكر □ « لقد ولدت من جديد عام ١٩٥١ » □

[٥]

ظلم في نهاية النفق !

١٠٣

□ صورة تذكارية مع جمال عبد الناصر □ هجوم على علماء الأزهر □ مكتب في مبنى قيادة الثورة □ نشيد وطني في كتاب مطالعة □ الديكتاتور العادل □ منشورات ضد الثورة □ صحيفة تحت الأرض □ جسر مع الشيوعيين □ انحياز للمرشد العام للإخوان □ رأى في الدفاع المشترك □ أحاسيس الأديب وحكمة السياسي □ شهادته وشهادة عبد الناصر في حادث المنشية □

[٦]

مفكران في الطريق !

١٢٣

□ في بطن حوت السجن □ قواعد الصراع بينه وبين عبد الناصر □ حادث ليمان طرة □ التعذيب والتكفير □ منام محمد حواش □ معالم في الطريق □ أبو الأعلى المودودي □ عزل النصوص عن ظروف البيئة □ الجاهلية والحكمية والجماعة الإسلامية □ عبد الناصر والدين □ رد الأزهر على الفكر □ ما بعد الرحيل أجيال شابة جاهزة للتنفيذ □ هل كان سيغير الفكره لو لم يعدم ؟ □

[٧]

تنظيم مستشفى « طرة » ! ١٤٧

□ القوى الخفية التي افسدت العلاقة بين الإخوان والثورة □ اعتزال المجتمع □ اخطاء الحركة الإسلامية □ مجموعات فدائية لرد الاعتداء □ الإخوان يغيرون طريقهم □ برنامج عقائدى □ من وراء الاسوار □ لا لتكفير المسلمين □ رأى عمر التلمسانى □ نقله إلى مستشفى خارج السجن □ تقرير عن حالته الصحية □ الحكومة تنشر كتبه وهو في السجن □ عبد السلام عارف يتوسط للإفراج عنه □

[٨]

الطريق إلى المشقة ! ١٦٣

□ الإخوان يحلمون بالحياة والانتقام □ التنظيمات الجديدة لهم □ البحث في الدفاتر القديمة عن زعيم □ رايه في نظام حكم عبد الناصر □ اعترافات بخط يده في السجن الحربى □ شمس بدران تلميذه □ ضربة وقائيه □ تحذير منير الدالة . المخابرات المركزية اخترقت التنظيم □ العنف ليس زوبعة في فنجان □ الهضيبي يرد دعاة .. لا قضاة □ ملاحظات على أبواب غرفة الإعدام □ الشيخ القرضاوى : نحن لا نعيش في جاهلية □

بعد أن قرأت ١٨٥

المراجع والمقالات والوثائق ! ١٨٩

مطبعة اطلس
imprimerie atlas



LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, P.C. 100731, TEL: 747787
القاهرة ١١٣ شارع سوق التوفيقية م.ت. ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٨٧

رقم الايداع ١٩٨٧/٣٧٤٥



« كان سيدنا حين يصحح الألواح يلحس
الكلمات المغلوطة بلسانه ، ويمسحها بطرف
كفه ، وقد كان هذا مثيراً للإشمئزاز » .

سيد قطب - الصعيد ١٩١٢

« ظللت أحد عشر عاماً ملحداً حتى عثرت على الطريق
إلى الله ، وعرفت طمأنينة الإيمان » ..

سيد قطب - القاهرة ١٩٣٩

« لقد احتمل هذا الشعب ديكتاتورية طاغية ، باغية ،
شريرة ، مريضة مدى ١٥ عاماً أو تزيد أفلا يحتمل
ديكتاتورية عادلة نظيفة ستة شهور » ..

سيد قطب - القاهرة ١٩٥٢

« إننا لم نكفر الناس ، هذا نقل مشوه ، إنما
نقول : انهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة
حال يشبه حال المجتمعات الجاهلية »

سيد قطب - السجن الحربى

